القائمة القصيرة لجائزة الغان بوكر الدولية 2015

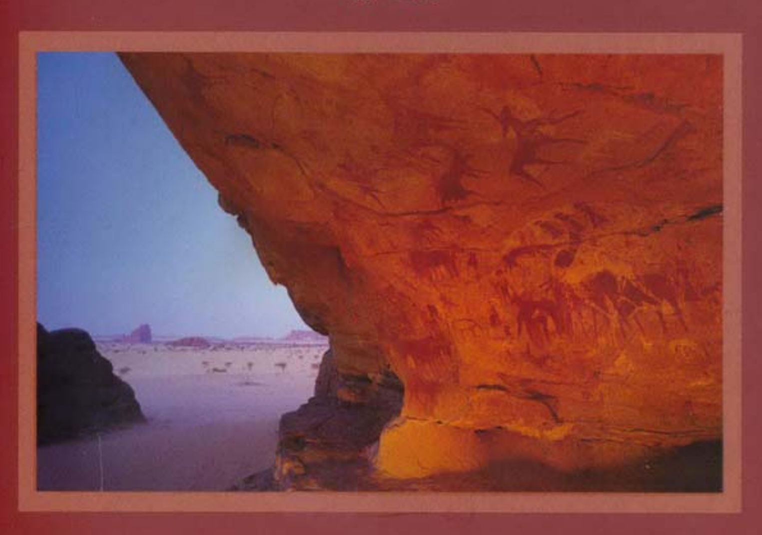
إبراهيم الكوني



4.3.2016

ناقةُ اللهِ

رواية





الطبعة الأولى

إبراهيم الكوني

ناقةُ الله

رواية





الطبعة الأولى 2015

دار سؤال للنشر
بيروت - لبنان
dar_souaal@outlook.com

ISBN: 978-614-8020-02-5

لوحة الغلاف: لفنّاني ما قبل التاريخ. الصحراء الكبرى.
منطقة آزجر. الألفيّة الثامنة قبل الميلاد.

إلى كل الذين عاشوا سيرة هذا الكابوس، سواء الشهداء منهم الذين نحسبهم على قيد الحياة أمثال **إبراهيم أغ الحبيب**، و**محمود خوّاد**، أو الأحياء منهم الذين نحسبهم في عداد الأموات أمثال **مانو ديّاك**، و**إبراهيم بهانغا**.

«ويا قوم هذه ناقة اللّه لكم آيةً فذروها تأكل في أرض اللّه ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذابٌ قريب».

القرآن الكريم

(سورة هود: الآية 64)

«الجمال مخيف، لأنه بلا تعريف؛ وهو بلا تعريف لأن اللّه لا يطرح إلّا الأحاجي».

دوستويفسكي

«الإخوة كارامازوف»

القسم الأوّل

1 ــ العُقال

لم يتخيّل يوماً أن يبلغ السُّعار بالجنيّة هذا الحدّ. لقد حدّثه أحد الدّهاة بغرابة أطوار هذه السلالة فلم يصدّق. حذّره قائلاً إنها مخلوقات مسكونة بأشباح شرّيرة لا أحد يدري متى تستيقظ. ولكنّه استهان بالوصيّة. وها هي تكشف له عن معدن آخر، وأسوأ من كل شيء، منكر. يذكر كيف تغنّى شاعر القبيلة المجاورة في إحدى قصائده بشيء مماثل عندما وصم الحنين في معشر الإبل بالجنوني، قبل أن يخلع على هذه الملّة لقباً مهيباً هو «الشاعر»؛ كأنّ الحنين الذي تشدّق به هذا الدّعي وقفٌ على الشعراء وحدهم، ولا يشاركهم فيه سوى الإبل! هو أيضاً عرف هذا الدّاء، وربّما أسوأ من هذا الدّاء، بدليل أنه لم يفقد صوابه في البليّة كما فقدته «تاملّالت» بفعلتها الأخيرة، بالمقارنة مع أفعالها الأخرى السابقة على هذه الفعلة الأخيرة. فكم مرّة لاذت بالفرار صوب صحاري الجنوب؟ كم مرّة احتالت على القيود، فلم يدركها إلّا في منفذ «تادرارت» المتاخم للحدود؟ هل يجزم اليوم بالحيلولة دون وقوع ما وقع

لو لم يسلّم بصواب وصيّة عابر السبيل الذي نزل عليه ضيفاً في تلك الليلة ليشاركه طعام العشاء مخلّفاً وراءه تلك الوصيّة الجنونية عن العقال؟

حلّ على المرعى مع حلول غيهب الغروب ككل الأشباح التي تجوب صحراء الشمال، فلم يكن ملزماً بأن يثق بهويّة الضيف في مثل هذا الوقت المفضّل لأهل الخفاء كي يستعيروا أبدان أهل الخلاء ليتنقّلوا بحريّة في ربوع الصحراء. ولكن مواهب هؤلاء في التنكّر كانت دائماً متقنة إلى الحدّ الذي لم يكن المضيف ليجرؤ على التهاون في شأن أداء واجب الضيافة بمراسم العادة. أوقد على شرفه ناراً سخيّةً، ودسّ في أحشاء تربتها الموقدة رغيف الخبز، ثم أتى بحصيلة النهار من كنوز الكمأ بأنواعه الثلاثة وألقى بها في القدر المنتصب على الأثافي بعد أن قشّرها بحدّ السكّين جيّداً. ولكن الضيافة لم تكن لتكتمل دون أن يحتل وعاء الشاي موقعه فوق الجمر. بعدها فقط تسترخي الأعضاء، وتشتعل قناديل النجوم في قلب السماء، فيبتسم الأفق بطلوع القمر ليتوّج مسيرة المساء. فهو الطقس المكتوم الذي لا يستبيح سكونه سوى حشرجة الإبل وهي تجترّ حصيلة الأعشاب التي التقمتها في مراعي النهار، فتنطلق في الإنسان عضلة اللسان لتعوّض الاسترخاء في الأعضاء. تنطلق العبارة بفعل الحذر. تتردّد في الأذن بوقع جارح قبل أن تتبدّد بفضل العمق في السكون. يستجيب

الجليس بالإجابة فتتنقّل العبارة لتمرّ بذات السلّم. يطوف الحوار كل الأركان، ويرتاد أبعد المنازل، لينتهي إلى الدّاء. تحدّث الضيف عن الحنين بلغة ذكّرته بقصيدة الشاعر. تحدّث الداهية بروح شاعر فلم يتمالك نفسه فأطلق من صدره أنين وجع. سكت الضيف بسبب الحذر، وربّما إكباراً للوجع. ولكن وتراً مزموماً ترنّم في بُعْدٍ مّا فزفر المضيف زفرةً كأنها تلبية لنداء. هنا فقط استجار الضيف بصريح العبارة:

ـ اعقلها!

قالها بوضوح. بل أطلق سراحها بيقين موسوم بنغمة كأنّها الاستفزاز. توضّحه أسيس في تلك الليلة بفضول، ولكنه لم يستفهم إلّا بعد مهلة:

ـ أعقلها؟

إكتشف حمق التساؤل، فأضاف كالمعتذر:

ـ ليت العقال يُجدي...

لم يكمل. عاند وعاء الشاي المنتصب فوق جمر الموقد ليداري حرجاً مجهولاً. أكمل:

ـ لقد قطّعتْ كلّ عقال!

أخفى الضيف بسمة غامضة. كان يقاوم سلطان النار في حربه مع النجوم طوال الوقت فيحجب ألسنة اللهب بكفّه كي يتطلّع إلى النجوم، ثم يكافح ليتبيّن موقع القمر في موقف

الأفق حيناً آخر. كفّ نحيلة، محبوكة بكتلة كثيفة من عروق كحبال المسد، ظلّ **أسيس** يترصّدها ببصره خلسةً كأنّه يريد أن يقرأ فيها نبوءة ذات صلة بالعقال، إلى أن تكلّم مريد العقال:

ـ ليس كل عقالٍ عقال، والحنين لا يعترف بكل عقال!

تطلّع **أسيس** إلى النار وهي تفترس آخر عود حطب. كان بقيّة من جذر شجرة ظلّ ينزف بفعل الحرارة نزيفاً حقيقياً. سائلٌ لزجٌ كالدم، بلون الدم أيضاً. مضى ينزّ بعناد ليغمر الجمر فيتحوّل إلى فقاعات تطفو فوق الجمرات بصوت كالاستغاثة. لحظتها أمر الضيف بلهجة اليقين:

ـ اعقلّها بالعقال الذي لا سبيل لقطعه!

تطلّع إليه **أسيس**. في عينيه استفهام. على شفتيه بسمة. كان يستشعر خجلاً، لأنه لم يفلح في فهم الأحجية. ولكن الضيف أراد أن يجيره، فأوضح:

ـ اعقلها بالذرّية!

الذريّة عقالٌ حقّاً! الذريّة العقال الأقوى من كل عقال حقّاً! الذريّة هي العقال الذي لن تجدي معه أحيل حيلة حقّاً، ولكنه العقال الذي لم يخطر له على بال. لقد نسي في حمّى علاقتهما، وفي جهنّم الأحداث التي رافقت هذه العلاقة، أنها ناقة، ناقة وليست جملاً. نسي أنها أنثى، وغاية الأنثى هي الذرّية بالطبع. بل يكاد يجزم أنه نسي أنها بعير أصلاً وهو الذي لم يعرف لنفسه خلّاً سواها، ولم يجد لنفسه مخلوقاً

يفهم له منطقاً غيرها. بلى! بلى! المهمّ هو المنطق. الأهم من كل شيء هو المنطق. وقد أنساه منطق المخلوق الذي يسمّيه أبناء الصحراء ناقة كل منطق آخر. أنساه منطق الإنس والجنّ والطير. منطق منزّه عن الدنَس في لسان الإنس، وبريء من روح الأحاجي في منطق الجنّ، ومجرّد من البلبلة في رطانة الطير. منطق «تاملّالت» أمّ كلّ منطق لأن ذخيرته ليست اللسان أو الصوت. ذخيرته ليست العبارة ولا حتى الإشارة، ولكن سلاحه هو الأقوى لأنه... الصمت!

فليس بطولة أن تتلقّى الوصيّة في خطاب مبثوث في صوت، أو في بيان مخطوط في رقّ أو رقعة أو في حجر. ليس بطولة أن تتلقّى الوصيّة في إشارة أيضاً، أو في لحون أنشودة، أو في نغم مرثيّة، ولكن البطولة أن تلتقط الوصية في حوارٍ لا يعترف بعضلة السوء وسيطاً، لأنه اختار الصمت رسولاً!

«تاملّالت» لم تعترف يوماً بانتمائها إلى سلالة البعير، فكيف تعترف بهويّة الأنثى، أو... الناقة؟ أَمْ... أَم أنه هو مَن لم يعترف لها بهذا الانتماء، فكيف يعترف لها بهويّة الأنثى التي لم تنتمِ لها في عُرفه هو، ولم تفعل هي ما يمكن أن يوحي باعترافِها بما لم يرده لها؟ لماذا يخشى أن يعترف بأنّه هو من شاء لها أن تكون بلا هويّة، بلا جنس، بلا انتماء؟ هل يستطيع أن يقول يقيناً إنها من بنات الأنام؟ هل يستطيع أن

يجزم أنها ناقة إذا كان لا يستطيع أن يجزم بأنها حيوان أصلاً؟ هل يستطيع أن يعترف لنفسه، قبل أن يعترف للأغيار، بأنها مخلوقٌ ككلّ المخلوقات، محشورٌ في جرمٍ مسبوك من لحم ودم كبقيّة الكائنات؟

الواقع أنه لا يستطيع أن يجزم بشيء ولا أن يعترف بشيء لسببين: أولهما لأنه لم يسبق أن اضطرّ لمواجهة هذا السؤال، وثانيهما لأن ما عاشه بالتجربة برهن على نحوٍ مّا الحقيقة التي لا يستطيع أن يقنع بها أحداً وهي أنها ليست حيواناً وليست إنساناً، ليست جنّيةً وليست ما يسمّيه فقهاء القبائل ملاكاً. كل ما يعلمه أنها تجمع خصال كل هذه الأجناس دون أن يحدّد لها في هذه المحافل مكاناً. لم يحدّد لها هويّة، لأنه ليس ملزماً بأنّ يحدّد لها هوية، ولم يستشعر يوماً بحاجتها هي إلى تحديد هوية. هو سعيدٌ بهويّة اللاهوية، في حين تبدو سعيدةً في وجودها في برزخ اللاهوية، لاسيّما بعد أن اكتشف أن سرّ شقاء كلّ من عرف إنّما يكمن في شَرَك الهوية. فإنكار الهوية وحده ضمان حرية. لقد جرّب استئصال هذا القناع الأبله مراراً فاستعار مواهب الطير حيناً، وتخفّى في أوطان الأشباح حيناً آخر، وهَبَّ في أنفاس الرياح الشمالية، واستوطن أجرام الأنعام، كما تنصّل من أجسام الأنام ليرتحل في مسيرة الأعالي لينقضّ على الأسافل في قطرة المطر، فيسري في عروق الأرض. ليتحمّم بسرّ الحضيض. يولد من رحم اغترابه

من جديد في بذور النّبوت. ولولا هذا الطواف في الأبعاد، وفي الأركان، وفي الأجرام، لما احتمل العيش، بل لما تردّد في أن ينضمّ إلى قوافل المرتحلين الأبديّين الذين يأبون أن يعودوا إذا خرجوا. يستطيع أن يعترف أن القدرة على هذا الطواف صار له في منفاه بصحاري الشمال عزاءً أجاره من البليّة التي أصابت نصفه الثاني بالشلل، لأن الحنين هو داءٌ بلا ترياق حقّاً. والطواف، كما يبدو، هو الحيلة التي أعجزت «تاملّالت» كي تستعين بها على الانقطاع الطويل عن صحاري «آير» في أوطان الجنوب. وقد أدرك أن المخلوق لن يستطيع أن يحلّق بنصفٍ مشلول، تماماً كما لن يستطيع أن يطير بجناحٍ مكسور. هذا ما دفعه لطلب الترياق بأيّ ثمن طوال زمن عراك الشريكة مع مصابها الأليم، فقرّر أن يعتنق وصيّة عابر السبيل عن العقال.

2 ـ الخيانة

حَبْكُ عقال النجاة لم يكن ليتمّ بدون قربان. ذلك أن هذا الجنس من الأشراك الذي يسمّيه شبح السبيل عُقالاً هو أكثر ما أثار اشمئزازه في حياة معشر الإبل. ففي السنوات الذهبيّة التي تنقّل فيها بحرّية في رحاب مملكة تينبكتو كان شاهد عيان لمثل هذه العمليات الفظيعة التي يتكأكأ فيها الرجال على النوق الشقيّة كي يعينوا الجمال على سحقها بكلاكلها الرهيبة في سبيل بذر الأجنّة في بطونها المنيعة. كان يُصاب بالدوار في كل مرّة، فيفرّ ليدفن غثيانه في العراء.

وها هو البحث عن الترياق يجبره على ممارسة هذا الفعل المخجل.

هام بعد حواره مع الضيف المجهول طويلاً. كانت تقتفي خطاه كالعادة، ولكنه لاحظ كيف تتفحّصه بإيماءٍ مريب هذه المرّة، كأنها أدركت أنه يخفي سرّاً. أدركت أنه يبيّت دسيسةً. لم يسهجن بالطبع، لأن ليس لمن اعتنق دين الصمت لساناً أن يستنكر إذا قرأ الحميم سرّه، أو أدرك فيه النوايا. ذلك أن

الإحساس بأنه يرتكب في حقّ الحميم إثماً جلّله بالخجل. والخجل هو الإحساس الذي لا يُخفى حتّى بين مخلوقات تتخذ من عضلة اللسان بياناً، فكيف بالفئة التي لا تعترف بغير الإيماء رسالة؟

استمرّ العراك. كان يتنقّل وراء بقية القطيع في المراعي الفسيحة ليتحاشاها. لا ليتحاشاها وحسب، ولكن لكي يقنع المخلوق الذي يسكنه أوّلاً بصواب ما يفعل، وبأن ما سيفعله إنما سيفعله من أجلها، في سبيل استرداد عافيتها، واستبدال حمّى الحلول في الوطن جسداً، بأعجوبة الحلول في الوطن طوافاً، كما اعتاد هو أن يهوّن من همّهما المشترك، في المنفى، في انتظار خلاص الوطن من البلاء الذي حرمهما من جنّة اسمها الوطن. حرمهما فجأة من العيش بسلام في الجنّة التي لا ندرك كم هي جنّة إلّا عندما نفتقدها كما هي الحال مع جنّة اسمها الوطن!

القناعة بأن ما سيفعله إنّما هو من أجل عافيتها شجّعه على أن ينظر في مقلتيها محاولاً كتم أنفاس الخجل. درّب نفسه طويلاً، لأنه يدري أنه لن يفلح في خداعها أبداً بأمرٍ لم يقنع به نفسه. ولكن الحزن في عينيها السوداوين المذهلتين، الجميلتين كلؤلؤتين، الواسعتين كجوهرتين أسطوريّتين، لم تنطلِ عليهما الحيلة، فحدّثته قائلة بأنه من العبث أن يقنعها بما لم يقنع به نفسه، ومن العبث أن يقنع نفسه ما لم يقتنع المخلوق المجهول الذي يسكنه.

في النهاية قرر أن يستعين بالرعاة في خلوات الجوار. كانوا خليطاً من أهل الصحراء الشمالية، وآخرون ينتمون إلى قبائل الصحراء الوسطى، وفريق ثالث من أبناء الصحراء الجنوبية الذين استجاروا بالمكان هرباً من عصابات القتلة التي جنَّدها السفاح «موديبوكيتا» كي يمحو أثر الملة البيضاء من رحاب القارة السوداء، فلم يجدوا ملاذاً آمنا سوى عمق الصحراء الشمالي، تماماً كما حدث دوماً كلما توغل الغزاة في حملات الإبادة ضد أهل الصحراء في مختلف مراحل تاريخها الدامي.

سلّم الزمام لزميل أقبل من صحراء «أجاديز» منذ أيام يكبره بأعوام يُدعى «ساهو» التحق بالمنطقة قبل أشهر قادماً، أو بالأصح فارّاً من مذابح شريك «موديبوكيتا» في سفك الدماء «هاماني ديوري» في صحراء «آير» التي كانت الشطر الشرقي لمملكة تينبكتو الملغية بجرّة قلم الحاكم الفرنسي حتى لا تكون عقبة في طريق الاستقرار الاسمي للأمم الزنجية على حساب وطن أمم الملثمين عقاباً لها على موقفها من الاحتلال. تلك كانت مكافأة المحتل لأمّة استعبدها قروناً فقدّم لها وطن الملثمين هديّةً، لأنهم آثروا أن يموتوا أحراراً على أن يعيشوا تحت رايته عبيداً. أمّا حملات الإبادة فهي بمثابة هديّة وداعيّة للذكرى، وضرورة اقتضتها مراسم التتويج!

ترك الزِّمام في كفّ «ساهو» ثم توارى عن الأنظار. امتطى

جملاً ورحل غرباً لينقطع في الفلاة ثلاثة أيام، وعندما عاد ذهب ليقرئها السلام ويطلب من جنابها الغفران، ولكنها ألقت في وجهه بتهمة فظيعة هي الخيانة، ثم أشاحت عنه بوجهها شزراً.

3 ـ الإثم

توَدّد لها. استسمحها مراراً مردّداً أنّه لم يفعل ما فعل إلّا لتحريرها من الألم، ولكنّها صدّته في كلّ مرّة حتى يئس وأيقن أنها القطيعة. ولكن «ساهو» توعّده بسبابته كأنه يُبيح لنفسه أن يخاطبه بالإنابة عنها قائلاً:

ـ لا يبدو أنها تضمر لك خيراً، فاحترس!

تذكّر وصيّة أحد الدهاة الذين يعبرون الصحراء طولاً وعرضاً دون أن يقطع أحد عمّا إذا كانوا أناساً أم أشباحاً تتنكّر في أجرام الإنس. هذا الداهية حدّثه عن البعير كأحبّ الأجسام التي يروق الأرواح الشريرة أن تتّخذها مقاماً! قال أنها تتخفى هناك لآجالٍ قد تستغرق عمراً، ولكنها مميتة عندما تستيقظ. لم يجادل ذاك الشبح في ذلك اليوم وهو الذي قسّم سلالة البشر إلى شطرين اثنين: شطر يكنّ عداءً مستفحلاً لسلالة البعير لم يدرك له سبباً، وشطر آخر لا يجد حرجاً في أن يجاهر بعشق هذه المخلوقات فيرى فيها نبلاً يفوق نبل أبناء القبيلة البشرية. ويعترف أن الغموض خصلة مشتركة بين هذين

الفريقين، لأن لا أحد منهما استطاع مرة أن يعبّر له عن سبب مقنع ينفع مبرّراً لموقفه.

ففي يوم المواجهة مع ابن جلدته «**ساهو**» الذي كان له الفضل في الإشراف على مكيدة الوتد الذي سماه عابر السبيل بـ«العُقال»، وجد نفسه مضطرّاً أن يستنكر:

ـ ولكنها ناقة تانّس! ألم أحدّثك بأنها ناقة تانّس؟

تطلع إليه الرجل بعينين تطرحان سؤالاً قبل أن يجيب:

ـ بلى! حدّثتني بسيرة الناقة!

أحكم لثامه حول وجنتيه الملوّحتين بشموس صحراء تينيري قبل أن يضيف:

ـ سواء أكانت ناقة الربة تانيت أو لم تكن، فإن ما تخفيه في نظرتها لا يبشّر بخير.

طارده الرجل بمقلة لجوجة دون أن يفهم لماذا. طأطأ ثم هتمل:

ـ لا تسئ بها الظن، فإن بيننا عهداً. كل ما هنالك أنها تتوهّم أنها لم تُخلق لهذا!

استنكر ساهو:

ـ أليست ناقة؟ ماذا ستفعل الناقة إذا لم تستسلم لفحل؟

أعجزه اللسانُ فلعثم في وجه الرجل:

ـ قلت لك إنها ليست ناقة...

أطلق ساهو ضحكة فتهدّل لثامه وانحسر عن أثرٍ لجُرحٍ عميق اخترق أسفل الشفة حتى حفر أخدوداً في الذقن. ستر وجهه ثم تساءل بتسامح:

ـ كلنا نحلم بكسب ودّ دوابنا. كلنا نصادق مطايانا، ولكن يجب ألّا نستسلم لأحلامنا فنصنع من أنعامنا معبوداتنا!

أعجزته عضلة السوء مرة أخرى. اللسان هو نقطة ضعفه دوماً. لقد أحسن الصمت، فخذله اللسان إلى الأبد. أحسن لغة الصمت فتخلّت عنه لغة اللسان. احترف الصمت لأن الصحراء شجّعته على الصمت. وعندما شاركته **تاملّالت** الصمت استمرأ الصمت فكانت بينهما ترجماناً للألسن، بل جرماً يرى في استخدام العضلة اللئيمة إثماً لا يدري كيف يكفّر عنه. الإحساس بالإثم هو ما انتابه دوماً إذا تكلّم كثيراً.

4 ـ وسام الرجولة

الحنين، في المبتدأ، كان يصيبها بالشلل، ولا يتحوّل نوبة جنونيّة إلّا عندما يستفحل. في مستهلّ غزوات هذا الدّاء كانت تستسلم. يحلّ بها وجوم مريب فتهجر القطيع. تستكين في العراء، أو تلتجئ لشجرة طلح، أو قاع الوادي، لتبثّ الفضاء أشجانها المكتومة. تنقطع هناك بعناد، وترفض تلبية كل التوسّلات. وأكثر ما كان يزلزله في هذا المسلك غيابها. تنتصب في هذا الوضع أيّاماً. تيمّم صوب الوطن المفقود بعينين مفجوعتين مليئتين بكمّ من حزن لم يعرف له مثيلاً حتّى في عيون أشقى خلق اللّه، دون أن يرفّ لها جفن، أو تطرف لها العين. تحدّق في الفراغ القاسي، العاري، اللانهائي، المهيمن، ناحية الجنوب كأنّه العدم، في سكونٍ مهيب كأنه الصلاة، كأنه صلاة الشهيد الذي لا يملك للخلاص سبيلاً سوى الصلاة، فلا تغمض، ولا تجترّ، ولا تتحرّك، ولا تطرد أسراب الذباب اللجوج، ولا تراه، بل لا تعود تستشعر له وجوداً. تقف كأنها شجرة نبتت هناك. تقف في غيبوبتها كأنها

جلمود صلد. إنها، في هذه الحال، نصب، نصب حقيقي. كل ما يدلّ على وجود حياة في هذا النصب هو المقلة المدهشة، كأنها لؤلؤة هائلة، تتلألأ تحت أشعّة الشمس بفيوض الألم. هذه الفيوض، هذا الوميض المميت، هو ما لم يطقه **أسيس** يوماً في هيئة هذا الكائن الخفيّ الذي أطلق عليه اسم «**تاملّالت**» (الجاموس البرّي) عندما كان حطاماً هشّاً بين يديه، ثم تحوّل في أحد الأيام مارداً من مملكة الجان يخترق الفضاء بجناحين.

حدث هذا منذ سنوات سبقت حلول البلايا التي تنزّلت على رأس الوطن، عندما رافق عمّه إلى «بيلما» لاستجلاب أحمال الملح لأوّل مرّة، في الوقت الذي كان فيه الذهاب في ركاب القوافل العلامة الأولى على الرجولة. بعد العودة من تلك الرحلة الشاقّة كان نبأ ميلاد اللقية قد تزامن مع يوم وصولهما، فرأى العمّ أن يكافئه بها جزاء اجتيازه الامتحان في رحلة «بيلما» التي يروقه أن يسمّيها «بوّابة الفروسية» برغم أنها، في نظره، أبعد ما تكون عن كل ما يمتّ للفروسية بصلة! ولكن العطيّة حلّت في الصحراء بخطأ مجهول. حوار بلون غريب هو اللالون، وبدن كسول، بل مشلول، على غير عادة الحيران التي تولد واقفةً، لتدبّ على خفّين لحظة الميلاد ذاتها. كانت فرصة للأقران الأشقياء كي يعيّروه بها كأنّ العطب فيه هو، وليس في الحوار البائس المكوّم في العراء

ككوم القشّ. كانت فرصة أخرى للتشكيك في البطولة، في سيرة الرحلة، التي حاول العمّ أن يسوّقها في القبيلة بوصفها بطولة. قالوا إن الخفاء عادل، ولم يكن ليكافئه على عمل بسوء لو لم يوجد خلل في العمل. أشاعوا في القبيلة باقترافه خطايا، وما عطيّة العمّ سوى محاولة لحجب هذه الخطايا. وها هو الخفاء الذي لا تُخفى عليه خافية يستنزل الآية في جسد العطية. لم يكفهم أن يتندّروا بالعجز في البدن، ولكنهم تندّروا باللون. تندّروا باللون، ثمّ انتهوا إلى أنه لون الجنّ؛ كأنّ لون الجنّ هو اللالون. ثم نسجوا قصصاً تقول إن الفحل الذي وطأ الناقة الأمّ كان شبح جنّ، كأنهم كانوا شهود عيان. بل وجدوا الشقيّ الذي ادّعى أنه كان شاهد عيان. لم يستطع أن يتنصّل من كوم الوبر المعطوب لأنه هدية. ليس هدية وحسب، ولكنه هديّة العمّ. ليس هدية ككل هدية، ولكنه الدليل على الرجولة. بل هذا الحوار الميّت هو وسام البطولة. وهو ما يعني استحالة التنازل عنه. وهو ما يعني ليس استحالة التنازل عنه وحسب، ولكن ضرورة فعل المستحيل لإنقاذه، لإحيائه، لبثّ الروح في جرمه الهامد، لأن روحه منذ الآن روحه هو، ووجوده رهين وجوده، وهلاكه سيكون نذيراً بهلاكه، وما الأنفاس الواهنة التي تتردّد في جوفه سوى أنفاسه المهدّدة بأن تتحوّل نزعاً أخيراً في أيّة لحظة. لم تعد استفزازات الأشقياء في يقينه سبباً للإحساس بالعار، ولا

التشكيك في البطولة حجّةً في العراك، ولكن المزحة تحوّلت تحدّياً أكبر من الصيت، ومن الأوسمة، ومن رأي الحِسان، ومن قصائد الشاعرات، ومن القبيلة، ومن الصحراء برمّتها، لأن وسواساً استيقظ بينه وبين هذا الكائن المعطوب، المكوّم في حضنه كأنّه دمية ملفّقة من قطع العهن المنفوش التي تبدعها العجائز ليتّخذها الرعاة بوّاً يخدعون به النوق التي فقدت صغارها كي تدرّ الحليب.

لم يعد يستجيب لاستفزازات القرناء وهم يطاردونه بالنكات كلّما التقاهم في العراء حاملاً بين يديه الحِمْل الشقيّ الذي تتدلّى سيقانه الطويلة على الجانبين كأنها العصي، فتحرث الأرض تارةً، ويلملمها تارةً أخرى، كأنها بلا عظام من فرط هشاشتها؛ فلم يستهجن أن تنكرها الأم من أوّل يوم وتحرمها الحليب ليتولّى هو دور الأم.

لم يجد عقبة في حقنها بالحليب، كما لم يحتر في حمايتها من الذئاب، ومن أذَى الفضوليّين. ابتكر مرضعة من رقع الجلود تنتهي بجزءٍ لميسٍ يوحي بالضرع فانطلت الحيلة على شقيّة المهد. وفي الأوقات التي تتمرّد على البدعة وترفض تناول الحليب يضطرّ لاستعارة حبوب الحلبة من خزائن العجائز. يقوم بغليها ثم تبريدها، ثم حقن الوليدة العصيّة برحيق العجب. تستجيب أحياناً، وتتمنّع أحياناً فيضطرّ لاستخدام القوّة. ولم يكن ليسمح بترك كائن بلا حول كهذا

في مربد الإبل وإلّا التهمته الذئاب في أول يوم كما فعلت مراراً مع حيران وليدة أقدر على المقاومة، ولهذا استقدم الدمية إلى الخباء ملفوفةً في لحاف من وبر ليقيها البرد. لم تشاركه الخباء وحده، ولكنها شاركته المخدع أيضاً لتتحوّل مع الأيام، إلى جواره تحت الغطاء، طفلاً وديعاً يلتحم بدنه ببدنه، ويلفحه بأنفاسه، ويضمّه إلى صدره كأنه يخشى أن يختطفه الجنّ من بين يديه إلى المجهول الذي أقبل منه.

لم يتعاطف معه في تلك المرحلة سوى العقلاء. كانوا يعزّونه فيحدّثونه عن غرابة الأطوار في سلالة الإبل. قالوا إن الانتماء إلى أهل الخفاء ليس خصلةً رذيلة لأن في دماء أهل الصحراء تجري دماء الجنّ أيضاً، والعجب لا يأتي إلّا من السلالات التي تنتمي إلى عوالم الخفاء. أمّا فقيه النجع فاختلى به بعيداً ليؤكّد أن البطولة ليس أن تقتل، ولكن أن تحيي بدل أن تقتل. وما يفعله مع قطعة اللحم (كما وصف دميته) هو إحياءٌ للموتى، لا قتلٌ للأحياء، كما يتباهى البلهاء.

استمرّ يهدهدها في حجره، ويجيرها من برد الشتاء بحرارة لحمه، كما حماها من بطش الذئاب بخبائه، ونفث في روحها من أنفاسه، ولم يكن ليفلح في إنقاذها لو لم يحتقر سخرية الأغيار في نوادرهم الموجعة، وتهكّمهم أثناء عبوره بينهم وهو يحتمل عبء كنزه الثمين، منشداً أبياته الشعرية عن محاسن العطية، مرتّلاً اسم «تاملّالت» الذي خلعه عليها بروح

وجدانية، لأن الجاموسة البرّية وحدها تستطيع أن تتباهى بالجمال على الرغم من ثقل البدن!

كانت تلك أول عتبة في سيرة التحدّي لأنه عرف في رحلة «بيلما» أن النجاة إنّما تسكن حرف الانكسار، والهزيمة قدر التسليم أمام بعبع الانكسار. لقد سقط في قافلة الألف بعير من فوق ظهر الجمل في ذيل القافلة. غفا فسقط في رحلة الليل البهيم فلم يهرع لنجدته أحد، لأن أحداً لا يهرع في نجدة أحد في رحلة الألف بعير عبر صحراء الألف ميل، وربّما الألف ألف ميل، كما تخيّل، لأنها تترامى وتتوالد ولا حدّ تعد به الآفاق طوال أيام وأيام وأيام. غلبه سهر الليالي، ووعثاء السبيل وحرّ النهارات، وظمأ الأبد، وشحّ القُوْت، وحصار العدم، فغلبته غفوة طارئة، ولكنها كانت كافية كي تستودعه الخطر فيما لو استسلم للغفلة، فيما لو استسلم للغفوة، وركن إلى المكان. بل كاد يركن. بل ركن بالفعل برغم الوجع في الظهر الناجم عن السقطة، وبرغم الصدمة. ركن ليدرك تالياً كم هو رهيب سلطان ما نسمّيه نوماً. كم هو أفيون مميت هذا الغياب الذي ندمنه إلى الحدّ الذي لا نستطيع أن نستغني عنه يوماً. ركن وكان يمكن أن يبقى مركوناً هناك إلى الأبد لو لم يتدخّل النزيف لينتشله من قبضة الأفيون. تدفّق النزيف من أنفه سخيّاً، حارّاً، لزجاً، ليغمر وجهه وصدره، بسبب السقطة. سدّ أنفه بيده واستماتت كي يفتح عينيه

المقيّدتين بالغلّ القاهر، المغلولتين بطاغية اسمه النوم. اشتعلت في المقلة حشود النجوم فعادت الستور تنسدل على الحدقتين بقدرة القادر. تحامل ليقف، ثمّ تعثّر ليخطو، ولكن حجاب الطاغية كان ما زال يسدّ كل المنافذ. بذل جهداً بطوليّاً كي يخطو، كي يتقدّم خطوة في العراء العاري، المسطّح، المفروش ببساط مغمور بتراب مغطّى بحبيبات الحصى، تحت سماء مرصّعة بعناقيد النجوم حقّاً، ولكن السكون يرمي بكل شيء في العدم. يرمي بالأرض، بالسماء، بالقافلة التي تتوسّط القطبين، في متاهة تبدو فردوساً، ولكنه فردوسٌ بجدرانٍ من عدم!

فهل يستغيث كالنساء؟ هل ينتهك حرمة الكون فيطلب العون بالصراخ كالنساء؟ هل يعترف في حضرة العمّ، وفي حضرة أرباب القافلة، بالعجز في أوّل اختبار للرجولة؟ هل يرتكب العار فيخلّ بالعهد الوحيد المبرم مع الأب قبل أن يودّعه إلى الأبد ويرحل عن الدنيا ليتركه في فردوس العدم وحيداً؟ أيخون الوصيّة في أول تجريب؟

المدى كان قد ابتلع القافلة برغم الاستواء الأبدي في الخلاء الأبديّ. ولم يبقَ له سوى النجوم التي لا يستطيع أن يراها ليستدلّ بها، والليل الذي لا يعد إلّا بالمفاجآت الضارّة، ولهذا لم يملك إلّا أن يتعثّر في الخطو ليمضي. فمضى. استعاد القدرة على فتح الستور بعد مسافة، فاحتفت به

النجوم. حدّق في النجوم كي يروّض المقلة على الصمود. حدّق مراراً وهو يمضي. بعد مسافة أخرى هرجل، ثم هرول. انقشع الغيهب أكثر فأبصر. أبصر أثر القافلة على ملحمة الحصباء المتوالدة بلا نهاية، ولكنه لم يركض. استعان بالهرولة تيمّناً بوصية الأب الفقيد. كان النزيف قد توقّف، ولكن البلل في الثوب كان لزجاً ومزعجاً. واصل، واصل دفع الجسد المزلزل بالتعب، ولكن غزوة الطاغية أصابها وهن. واصل. خيّل له أنه سار ليالي كاملة. نزف العرق بدل الدّم. نزف عرقاً فحلّ الظمأ بديلاً لسلطان النوم. أدهشه تبدّد القافلة. ولولا وجود الأثر على الأرض لأيقن بتلاشي القافلة من الصحراء. بل لولا وجود الأثر لما آمن بوجوده هو أيضاً. أيعقل أن يكون الأثر الدليل الأقوى على وجود ربّ الأثر؟ ولِمَ لا إذا كانت الآثار هي الشهادة الوحيدة التي تبرهن على وجود كل الذين رحلوا؟ في غبش السَّحَر اختطّ الأفق لنفسه شاهداً. في القوس المزموم، المجلّل بوميض حميم، تبدّى خيال كأنّه طيف. تبيّنه أمداً قبل أن يقطع بهويّة القافلة. لحظتها فقط أيقن بعودته من المنفى ليغدو من جديد، عضواً في ركب القافلة!

5 ـ الدّمية

استيقظ في فجر أحد الأيام فلم يصدّق ما رأى. كانت الدمية تجثم إلى جواره في جوف الخباء تتطلّع إلى المدخل حيث انقشعت الظلمة وبدأت الحياة تدبّ في المربد المقابل. كانت الجنيّة تجثم بجرمٍ حقيقيّ ملفّق من عظام وعروق ولحم ودم، كأنها بطل لسيرة في حلم. بل هي سيرة في حلم حقّاً. تأمّلها في ذلك اليوم طويلاً حابساً أنفاسه في صدره خوفاً من أن يفزعها فيتداعى فيها الجرم ليعود إلى طبيعته كدمية محبوكة من أعواد القشّ. فكيف لا يصدّق بعدها أنها من طينة الجنّ؟

فالجنّ هي القبيلة الأكثر حضوراً في حياته وفي حياة أهل الصحراء. بل هي أكثر حضوراً في دنياه من حضور قبائل الصحراء. حدث ذلك في الأيام الأولى لنزوله ضيفاً على الصحراء وعلى أهل هذه الصحراء. فقد حدّثته الأمّ، ما إن شبّ، عن المكيدة الدنيئة التي تعرّض لها في الأيام الأولى وهو ما زال في المهد رضيعاً وكاد يصير بسببها أسيراً في مملكة الخفاء، كما صِغار كُثر قبله وكما سيصير مصير آخرين

من بعده. اعترفت في مستهلّ السيرة بأن الجنّ قومٌ لا يظلمون أحداً، ولا يستغلّون إلّا الأخطاء المرتكبة في حقّ العهد المبرم بين القبيلتين منذ الأزل والقاضي باستخدام معدن الحديد كحدٍّ عازل بين الضدّين الخالدين الخفيّ والجليّ، لأن اكتشاف هذا المعدن الخبيث كان السبب في القطيعة بين الفريقين بعد اختلاطٍ حميمٍ وطويل لا فرق فيه بين مخلوقٍ خفيّ يتجلّى أو قرينه الجليّ الذي يتخفّى. وما زال الرواة يتحدّثون عن السّيَر المثيرة عن أواصر المصاهرة التي ربطت بين القبيلتين الصحراويّتين فتولد الذرّية الحاملة للخصال المزدوجة سواء في التخفّي أو في التجلّي.

هؤلاء الرواة هم مَنْ يروقهم أن يرجعوا غرابه أطوار أهل الصحراء لأصولهم القديمة السابقة على اختراع المعدن الخبيث، كما يفسّرون غرابة أطوار الجنّ واستفزازاتهم لأهل الصحراء إلى حنين هؤلاء إلى دنيا أهل الصحراء، انطلاقاً من هويّاتهم الإنسيّة المنسيّة.

ما زال يذكر بوضوح هيئتها وهي تتربّع في مواجهة موقد النار وتعاند قربة الحليب في الصباح، تتحصّن بقناعٍ محبوكٍ من وجومٍ كعادتها، وهي تتمتم باعترافها قبل أن تنطلق في سرد روايتها، لأن الصباح في رأيها أنسب الأوقات للخوض في شؤون خطرة كسيَر الخفاء. ليس كل صباح بالطبع، ولكنه الصباح الذي تحرّر من الأسر، وتغسّل بشعاع المعجزة التي

كانت للأسلاف معبوداً، وما زالت في يقين الأخلاف لغزاً جديراً بأن يظلّ معبوداً.

تحدّثت فقالت إن جارة لها اقتحمت بيتها عند هجمة غيهب المساء في زيارة مريبة. كانت امرأة ثرثارة تمتلك لساناً يقطر شهداً من فرط حلاوة القول الذي لم يكن ليحلو بدون بعض التمائم وشطر سخيّ من النوادر المخجلة المشفوعة بنصيب وفير من الأكاذيب التي لا يليق أن يسمعها الصغار أمثاله! وهو ما أربكها فأنساها الحصون التي اعتمدها ناموس الخصومة المتوارثة بين الطرفين: أنساها أن تتسلّح بنصل المدية الفظيعة التي رشقتها فوق رأسه منذ أول يوم لتكون له سدّاً منيعاً يجيره من مؤامرات أشرار الخفاء الذين لم يرقهم شيء في الدنيا كما راقهم اختطاف أبناء الإنس واستبدالهم بأبناء أشقياء من ملّتهم. كانت الجارة الشقيّة قد استدرجتها بحديثها الشيّق فتناولت المدية وذهبت بها إلى الناحية الأخرى من الخباء لتستقطع للمرأة شريحة من لحم الغزال المجفّف المخبّأ في زاوية المتاع مكافأةً لها على نوادرها. ولا تعرف كيف ألهتها الجنّية فأنستها المدية هناك. انصرفت الجارة لقضاء حوائج منزلية عاجلة فهجعت هي بجوار الرضيع مستعيدةً نوادر المرأة اللعينة إلى أن أخذتها سِنة نوم. لا تدري كم استغرقت غفوتها، ولكن ما لن تنساه هو غزوة الظلمة، وغزوة أخرى تسلّلت متستّرةً بغزوة الظلمة، وهو ما يعني أنها

غابت في نومة عميقة استغرقت أطول ممّا خمّنت: شبح ينتصب فوق رأسها محاولاً أن ينتزع الطفل الملفوف في القماط إلى جوارها. حدّقت في العتمة لتتوضّح الشبح فإذا به امرأة فارهة، في العقد الثالث من عمرها، تسترسل على صدرها خصلات شعر غريب، ذهبيّ، لم ترَ له مثيلاً إلّا في رأس امرأة نصارى شاهدتها عند زيارتها لـ«تينبكتو» منذ سنوات، فلم تجد ما تنطق به سوى عبارة استفهام لم تدرك كم كانت غبيّة إلّا بعد فوات الأوان: «ماتموسد؟» (من أنتِ؟) المرأة لم تجب بالطبع، ولكن السؤال لم يثنها عن عملها، لأن الطفل الملفوف في القماط كان بين يديها في تلك اللحظة، ولولا شرارة الإلهام المفاجئ التي قدحها زند الوحي في وجدانها كأمّ لفقدت الوليد إلى الأبد. فزّت استجابة لنداء المجهول لتختطف كنزها من بين يدي الشقيّة في غمضة، ولكن المرأة استعادته قبل أن تتمكّن هي من ضمّه إلى صدرها. هنا بدأت المبارزة الحقيقية كما راق الأمّ أن تسمّيها في ذلك الصباح. استعاد شبح المرأة الدمية المخفيّة في قماش القماط في لمحة فقفزت واقفة لتنتزعه من بين يديها بعنف، فاستيقظ الطفل وحشرج باحتجاج. ولكن هل استسلمت الجنيّة؟ كلا بالطبع! تقدّمت إلى الأمام خطوة ودفعتها بقوّة فترنّحت الأم وكادت تسقط في رماد الموقد المطوّق بثالوث الأثافي في المدخل. استعادت توازنها بفضل مارد الأمومة

الذي استيقظ فيها بعد أن أيقنت أخيراً بخطورة الحدث. وثبت كالمسعورة، وانتشلت اللفافة من يد الجنّية، قبل أن تفلت من الفخّ بقفزة خارج الخباء. ركضت بأقصى سرعة ولم تتوقّف أو تلتفت حتّى رمت بنفسها في أحضان الجارة.

ولكن مفاجأة أخرى كانت تنتظرها هناك، كما اعترفت في ذلك اليوم وهي تختتم مغامرتها. فالجارة أنكرت زيارتها لها في ذلك اليوم، فلم يبق للأم إلّا أن تسلّم بأنها كانت ضحيّة مؤامرة محكمة دبّرتها تلك الأقوام الخفيّة التي لا تجارى في تدبير أي شيء، لأن سلاحها الخفاء، والخفاء هو السلطان الذي لا يُقهر، وهو لا يُقهر لأنه المجهول الذي لا يدرك. لا يدرك على الرغم من وجوده في دنيانا بحضور يفوق حضور كل موجود.

أدركت الأم في تلك التجربة أن أمم الخفاء لا تستخدم التنكّر فقط لتنفيذ مكائدها ضدّ بلهاء الصحراء، ولكنها لا تتردّد في احتراف الخداع أيضاً، كما فعلت الجنيّة اللئيمة التي تنكّرت في جلد جارتها كي تجرّدها من نصل الحديد قبل أن تعود تالياً لتختلس الوليد. ولهذا لم تتردّد الأم في الذهاب إلى الساحر لتعود بتميمة مجبولة بحكمة الأوائل، ولم تقنع بهذه الغنيمة، ولكنها لجأت إلى فقيه النجع أيضاً لتبتاع منه تعويذة إضافية مستعارة من القرآن. دسّت الحجابين في جلد الغزال، ثمّ دشّنت تميمة الأسلاف بعلامة معبودة الأجيال «تانيت»

سواء بشقّها المسبوك من معدن الفضّة على شكل مثلّث، أو في شقّها الثاني المسبوك بالفضّة أيضاً في جرم مهيب في هيئة صليب.

نضّدت التقيّة في خيطٍ مفتولٍ من الجلد وطوّقت به رقبة الوليد وهو ما زال في المهد صبيّاً.

6 ـ الأنفاس

لم يكن يطمع بأن يكون استثناءً في سيرة القدر الذي لا نؤمن بعدالته عادةً إلّا عندما ينصفنا، بل إنّنا لا نتردّد في إنكار وجوده أصلاً إن لم ينصفنا يوماً بالرغم من نوبات الخوف الغامضة التي كانت تنتابه في كل مرة تجاسر فيها على التجديف في حقّ هذا البعبع، ربّما لأنه لم يكن ليختلف في يقينه عن الخفاء الذي لم يجرؤ يوماً أن يشكّك بوجوده. وها هو يقدّم البرهان على هذا الوجود يوم نفث الروح في خرقة الدمية ليجعلها تدبّ على الأرض بخفّين حقيقيّين. ولكن البعث لم يكن في البشارة سوى سورةً أولى. ذلك أن عطيّة العمّ، التي لم تكن سوى جوفٍ خاوٍ كأنها البوّ الذي يستعمله الرعاة في الاحتيال على النوق لتدرّ الحليب، لم تسعَ في الأرض وحسب، ولكنّها طارت في الأرض وفاقت كل الحيران قدرةً على الجري. هل يسمّى ذلك قدرة على الجري؟ كلا، كلا. ذاك لم يكن بجري. ولكنه سباق. فرار. طيران بجناحين حقيقيّين! عندها فقط استشعر أسيس لذّة الغلبة

ليعرف معنى الثأر، لأنّ لا ترياق لمرارة الذلّ إلّا الثأر. الثأر ليس من أقرانٍ حسبهم خصوماً كما تخيّل في البداية، ولكنه ثأرٌ ضدّ كل الناس، ضدّ كل الكائنات، ضدّ المجهول، ضدّ القدر نفسه الذي خلقه فسوّاه، ولم يكتفِ بأن سوّاه، ولكنه تنازل عن استكباره وحقّق له الحلم... حقّق له الغلبة!

والمدهش أنه لم يعرف في نفسه أدنى حرج، ولا ما يسمّيه فقيه النجع تبكيت الضمير، بأن يجرؤ على منازلة القدر فيتحدّاه بالثأر وهو الذي مَنَّ عليه بالهبة التي صارت سبباً للثأر: الغلبة!

فالإحساس بالغلبة يغذّي ثأراً مجهولاً ليس ككلّ ثأر حقّ لأمثاله الذين اكتووا بنار السخرية أن يسمّوه التجديف في حقّ وهّاب الهبة نفسه، فتتضاعف في الوجدان روح التجلّي إلى الحدّ الذي تتحوّل فيه وَجْداً نقيّاً يفوق التفوّق لينقلب إحساساً أكبر من سعادة، ولا يجد له اسماً سوى... الحرية!

في حمّى هذه الحرية ذهب إلى شاعرة القبيلة ليصبّ في أذنيها كمّاً سخيّاً من فنون غزل كلّفه اعتكافاً في الصحراء دام طويلاً، مقابل أن تهديه بالمقابل قصيدة في مديح اللقية الفريدة التي أضاف اسمين جديدين للتعبير عن مواهبها الإلهيّة هما: «تالهينت» الدالّة على «الجنيّة»، ثمّ «إيْلل» الدالّ على «السراب» إلى جانب الاسم القديم «تاملّالت» الدالّ على «الجاموس البرّي» اعترافاً بخصلتها المخجلة الأولى، وهو الاسم الذي اختاره ليكون اللقب المتداول، أمّا الاسمان

الباقيان ففضّل أن يخفيهما من باب التمويه خوفاً على الهبة من العين، إلى جانب أسماء أخرى ثانوية مثل «تامنوكالت» (الأميرة)، أو «أج أسوف» (الشبح).

لم تبخل الشاعرة المجيدة «آمّا» على اللقية في سيرة المديح. لم تُشِر إلى الكابوس الذي جثم على المسكينة في البداية ليحيلها جثّة هامدة لتسفّه نكبتها تسفيهاً، أو لتسخر من العطب، ولكن فعلت ما فعلت لتعظّم من أمر الصحوة، وتشيّع مفاجأتها إلى مستويات غيبيّة على عادة دهاة هذا الفنّ. لم تنسَ بالطبع أن تعرّج على النجوم في رحلة المعراج تلك ليقينها، ككاهنة داهية في هذا المجال، أن الشعر نوعٌ من سفر. سفر إلى الأعلى لا إلى الأسفل، وهو لهذا في خصاله قرين السماء الحميم. فكم ستبقى السماء صفحة ظلماء فيما لو خلَت من عناقيد النجوم! ثم تولّت قمع الخصوم بإخلاص. بل نكّلت بهم بقسوة بعد أن صوّرتهم في أبيات قاتلة أقراناً للملعون «**وانتهيط**» الذي يرتاد النجوع ليغوي البلهاء وينشر بين الأخيار صنوف الفتن. ولكن أكثر الأبيات التي استفزّت القوم لتغدو ذريعة جدل هي الاستعارة المتقنة التي تحدّثت فيها عن ناقة تانّس الأسطورية، إلى أن انتهت بالأبيات التي تصف لقيته بـ«الطيف المسكون بروح معبودة الأجيال تانّيت». وهو ما لم يغتفره العمّ بالطبع وهو الذي صار أباً منذ غياب الأب، فاختلى به في العراء ليوبّخه على هذا البيت بالذّات، مسمّياً

ذلك تجديفاً منكراً لا في حقّ الأرباب، ولكن في حقّ الأخيار الذين آمنوا بالأرباب!

طأطأ طوال حضور العمّ، وما إن انصرف ووجد نفسه في خلوة المساء وحيداً حتّى انفجر بضحكة شرّيرة. لقد ظنّ أنه حقّق نصراً آخر في زيارته السريّة إلى الشاعرة في تلك الليلة الظلماء، ولكن العمّ ضبطه متلبّساً. ضبطه حدساً، لا برهاناً. ضبطه بحاسّة الدم، لا بحسّ الحواس، ولا بتخمين العاطلين الذين يستهويهم إشاعة الشائعات إذا عدموا وجود الشائعات. لقد لاحظ كيف كان العمّ يسترق نحوه النظر في عتمة المساء قبل أن يبلغا الرابية التي أدلى فيها بيانه بصريح العبارة. نظرة تقول «إيّاك أن تنكر لأنّك لن تخدعني مهما فعلت!».

لم يعرف لماذا استولى عليه إحساس مهين كأنه ارتكب إثماً. وكان عليه أن يعترف لنفسه بعد أعوام أن سرّ الإثم آنذاك ليس التجديف بحقّ المعبودة بقدر ما كان التجديف في حق النزاهة لأن شراء قصيدة هو عمل من قبيل الغشّ!

وكان عليه أن يتريث زمناً آخر كي يدرك أن سر الإحساس ليس في شراء القصيدة أيضاً، ولكنه في فحوى القصيدة. في الدافع لشراء القصيدة. في الوسوسة اللئيمة. في الظمأ الجنوني لرد الاعتبار. أي ما يمكن أن يعوّض اضطهاد المهلة التي عاش فيها بين الناس أضحوكةً. عاش منبوذاً متأبطاً خرقة بالية من عهن منفوش لا وجود فيها لحياة إلا في أوهامه في

وقتٍ كانت قد بدأت تتفتّح فيه زهرة الحنين إلى مطيّة. مطيّة تصلح سبباً لحلم الكل وهو الفروسية. فإذا بالسبب يولد ميتاً. فإذا بالمطية تولد ميّتة. فإذا بالعطية التي عول عليها تخذله فتجلله بالعار أمام الأقران وأمام الحسان وتقتل أحلامه، فلم يستسلم. تحدّى قدره ونفخ في العهن المنفوش من روحه. بلى! بلى! روحه هي ما تسلل في تلك الليلة إلى الحطام وهو رميم لتقدح فيه الشرر. لا ينسى كيف كان يهدهدها في ليل الشتاء عندما كانت تستلقي في حضنه كقشّة. كل ما يوحي بوجود الحياة في تلك القشة هو الأنفاس. أنفاس واهنة كأنّها تعاند النزع الأخير. وكان هذا الوهن يعتصره ويكتم فيه الأنفاس حيث يكاد يشاركها في لفظ الأنفاس. تخيل مراراً أنه سيستيقظ ليجدها وقد لفظت آخر نفحة من هذه الأنفاس. الأنفاس! آه من الأنفاس! لقد أدرك في تلك المبارزة الطويلة أن أنفس ما في الدنيا هو النفس. وأدهشه أن لا أحد يقدّس الأنفاس، لأن لا أحد يعلم ماذا تعني الأنفاس. كان ينكب فوق الدمية ليشاهد سيرة الأنفاس في مخلوق يجاهد لالتقاط الأنفاس إلى حدّ حلم فيه أنه هو من يعدم الأنفاس، ويستبسل لالتقاط الأنفاس. وفي ليلة أخرى عاش رؤيا امتلأت فيها رئتاه بالأنفاس حتى انتفختا بحجم قربة ولم يجد سبيلاً لتصريف الأنفاس إلا بنفثها في صدر الدمية الخاوية من الأنفاس. وكم أدهشه أن تتقاطع الكائنات في قيامة الدنيا

وتنسى الأنفاس! تنسى أن كل ما تفعله تلك الأشباح التي تحسب نفسها آلهة هو رهين الأنفاس. رهين غياب الأنفاس.

استمرّ هاجس الأنفاس. ويبدو أن انشغاله بسيرة الأنفاس هو الدافع لتكرار الحلم. الحلم الذي ينكبّ فيه فوق كومة القشّ ليبثّه شجونه، وليشحنه بالأنفاس. ولهذا السبب لم يستشعر زهوّاً ولا استكباراً يوم جاء الخلاص. بل استشعر العكس. انتابته رغبة في البكاء. ربّما امتناناً، وربّما سخطاً. ولكن ما لن ينكره أبداً هو الرغبة المحمومة في استنزال القصاص. استنزال القصاص بحقّ الجميع. بحقّ الناس. بحقّ العمّ. بحقّ الأقران. بحق الحسان. وبحقّ القدر نفسه. بلى! بحقّ القدر أيضاً.

العقلاء يسمّون الرغبة في استنزال القصاص بحقّ الناس انتقاماً. ولكن ماذا يمكن أن يسمّوا الرغبة في استنزال القصاص بحقّ القدر؟ إذا كانوا يرون في استنزال القصاص بحقّ البشر إثماً، فماذا يمكن أن يسمّوا استنزال القصاص بحقّ الخفاء؟

اليقين أن عليهم أن يبحثوا في لغتهم عن كلمة أقوى مفعولاً، وأنكر مدلولاً، للتعبير عن هذا المنكر.

7 ـ أن نحيا على أمل أن نحيا

مضت شهور على إنجاز العقال، ولكن المخاض لم يلح في الأفق. كل ما حدث هو تشوّه خلقة الطيف فخجل أن ينعتها بهذا النعت الأثير من بين كل ألقابها السخيّة. ولا يعرف لماذا اعتمده هذه الأيام أكثر من أي يوم مضى، ربّما من باب العناد، أو ما راقه أن يسمّيه دوماً تحدّياً. وربّما ليعاقب نفسه جرّاء ما فعله بالمخلوق الذي كان بالأمس مثالاً لرشاقة القوام إلى حدٍّ اضطرّه أن يذهب إلى الفقيه لينال من يديه تعويذة جديدة تجيرها من العين قبل أن يخلع عليها لقباً جديداً هو «الغزالة». تعمّد أن يخلع اللقب بعد الحصول على التعويذة وليس قبل ذلك عملاً بوصيّة الداهية الذي أكّد له أن عين الإنسان تستطيع أن ترتدّ لتصيب صاحبها نفسه بشرّ أسوأ من شرور الأغيار. ولكن ها هو الجمال الذي استمات كي يجيره من العطب تسلّل إليه الفساد ليبدأ مسيرة الانهيار أمام عينيه. أين جرم الغزال في طيف السهول؟ أين الحشا المهضوم في قامة الحُسن؟ أين الأشعار في امتداد الجِيْد؟ أين سحر الوميض في المقلة النجلاء؟

الوميض في المقلة انطفأ، والضمور في الحشا ترهّل، وجرم الغزال تشوّه وبَطُل. والقبح محا آية الجمال. فمن يؤمن بعد هذا التزوير أن الأجنّة خير؟ من يستطيع بعد هذا أن يجزم بأن الذرّية زينة الحياة الدنيا؟

أَلَا تبرهن الأنثى في هذا الوضع القبيح الذي تحتمل فيه حمولتها الثقيلة بأنّ الذريّة قبح وليست زينةً؟ أم أن الرهان على الخلاص الذي يأتي إلى الصحراء بكائنات لا حول لها ولا قوّة تمتصّ النزيف كي تستعير الحول ثمّ القوّة، فإذا استقام لها الأمر واشتدّ فيها الساعد، أنكرت ربّ النزيف، ورفضت الاعتراف بتضحيات صاحب الفضل؟ ما جدوى ذرّية بلا جدوى؟ بل أيّ خير يُرجى من ذرّية لا تأتي إلى الدنيا إلّا لقطع دابر الجَمال؟

لقد شاهد في مقلتيها خجلاً عميقاً طوال هذه الأشهر. ليس الخجل الأوّل الذي طاردته به طوال الأسابيع الأولى من العمل الموجع والذي يقول حرفيّاً: «إنّي أخجل من أجلك!». ليس الخجل الموجّه له هو، ولكن الخجل المختلف الموجّه لنفسها هي، لا له هو. وهو خجلٌ مركّب، مضاعف، وقاسٍ. وهو ما يعني أيضاً أنها لم تغفر له خطيئته كما توهّم تالياً، كأنها لم تتنازل، لتلوذ ببعض اللين في نظرتها، من باب الغفران، ولكن من باب الشفقة ليس إلّا. تساهلت، ولكن الحزن في حدقتيها لم يبشّر بخير. ظلّت تحوم، وتناور،

وتتظاهر بالتسامح، ولكن حيلها لم تنطلِ عليه. لم تكن لتنطلي عليه لأنه أعلم بها من نفسها كما كانت هي أعلم به من نفسه. إنها الصفقة المتبادلة التي تجعل من الخداع عملاً مستحيلاً للقطبين. وقد تجلّت بنود الصفقة الخفيّة في حرف الأيام الخوالي عندما داهمها الدّاء لأول مرّة، ثم في النوبات التالية أيضاً. ففي اليوم الذي تلبّسها الشجن ويمّمت صوب الجنوب لتمكث في هذا الجمود أياماً كان هو ينزف دماً، بل ينزف بما هو أسوأ من نزيف الدم. كان ينزف روحاً. لم ينزف روحاً تعاطفاً معها، ولكنه نزف روحه توقاً للحلول في الوطن. فكم من مرّة ساءل فيها نفسه عن سرّ هذه الأحجية المسمّاة وطناً؟ كم مرّة جاهد في تفكيك هذا الطلسم بلا جدوى؟ ألا يكفي أن الأرض هي الأرض في كل مكان؟ ألا يكفي أن نتحمّم بفيوض الشمس أينما نزلنا؟ ألا يكفي أن نجد أنفسنا بين الناس في كل مكان، وتكون لنا فرصة أن نتّخذ من الأنعام أقراناً إلى جانب الأنام؟

ولكن شيئاً يسكننا، لابدّ أن يستيقظ فينا ليستنكر حُجّتنا. شيئاً لا اسم له، ولا لسان له، ولا كيان له، ولا يعترف بمنطق ولا برهان، لأنه نداء. إنه النداء الذي لا يعترف بالأرض ما لم تكن أرضه، ولا بسماء ما لم تكن سماءه، ولا بنجوم سوى نجومه، ولا بشمس ما لم تكن شمسه، ولا بأنامٍ ما لم تكن أنامه، ولا بأنعام ما لم تكن أنعامه، ولا بروح ما

لم تكن روحه، لأنه في الحقيقة هو الروح التي تسكننا، وتشدّنا إلى هذا المكان وليس ذاك المكان، إلى هذه الأرض وليس إلى تلك الأرض، إلى هذه السماء وليس إلى تلك السماء، إلى هذه النجوم وليس إلى تلك النجوم، إلى هذه الشمس لا إلى تلك الشمس، إلى هذه الأنام وليس إلى تلك الأنام، إلى هذه الأنعام وليس إلى تلك الأنعام، بل إلى هذا الخفاء وليس إلى أيّ خافيات. فهو كالماء تماماً، بلا لون، بلا رائحة، بلا طعم، بلا صفة، لأن الاسم لا يدلّ عليه، ولكنه ينفيه، هو ما لا يسمّى، لأنه كاللّه الذي ليس كمثله شيء كما يروق فقيه القبيلة أن يردّد. الخلاصة أنه المعجزة! هو المعجزة الوحيدة التي لا يدرك كم هي إعجاز إلّا من ابتلته الأقدار فحرمته منها.

ولمّا كان ما نسمّيه وطناً من قبيل الإعجاز، فمن الطبيعي أن يكون الجنين في قلب من فَقَدَ الوطن لغزاً يرتقي إلى مستوى الإعجاز. ومن الطبيعي ألّا يشفع لدائه ترياق ما لم يكن الترياق هو الارتماء في أحضان الوطن. ولقد صار الجنون في «**تاملّالت**» أقوى، لأن النداء في ما يسمّيه الفقيه غريزة أقوى. أمّا هو، طريد الوطن **أسيس**، فيملك ما يتباهى به الجميع، وعلى رأسهم الفقيه، وهو العقل. ولا يدري ما إذا كان هذا العقل حقّاً هو اللجام الذي حبك خيوط العزاء الذي روّض فيه الجنون، في حين أجّجت الغريزة في الرفيقة

الجنون. ما يعلمه أن الأمل وحده ما صنع له العقال الذي غالب به نوبات الجنون، دون أن يجزم ما إذا كان العقل هو منبع هذا الامتياز الذي خذل الرفيقة بالمقابل. فكم مرّة فقد صوابه، تماماً كما فقد طيفه الصواب مراراً، وانتابته رغبة جنونية في أن ينطلق عبر الخلاء ولا يتوقّف حتى يعبر الحدود وليكن ما يكون؟ كم مرة قرّر أن يرمي بنفسه إلى التهلكة، لأن المنيّة في رحاب جنّة اسمها الوطن أهون من حياة الأمان خارج الوطن؟ فما ظنّه النجاة عندما أفلت من بنادق أشباح «موديبوكيتا»، كان في الواقع السجن الذي اختاره لنفسه. فالفرار طلباً للحرية خارج الأوطان سجن، كما القبول بالسجن، أو حتى بالموت، داخل الأوطان حرية! ويستطيع أن يؤمن بعد كل هذه الأعوام أن الأيام التي قضاها خارج الوطن لم يعشها في الواقع ولهذا ليس من العدل أن تُستقطع من العمر، لأنها لا تختلف عن الحبوس. درس الشيخ الذي مرّ بنجوعهم مرّة في طريقه إلى صحرائه في الشمال لا يُنسى. أقبل من تينبكتو قادماً إليها من مجاهل ما وراء نهر «كوكو» حيث قضى هناك في سجون الفرنسيس أعواماً مديدة. نصب القوم على شرفه خباءً فخماً إكباراً لدوره في الحرب ضدّ جيوش الغزاة. نحروا له الذبائح وطوّقه الأشياخ في المساء توقاً لسماع الملاحم من فم شاهد العيان الذي شارك في صنع الملاحم. اختبأ هو بصحبة أحد الأقران خلف الخباء ليسمع

أيضاً سيرة الملاحم. تحدّث الشيخ طويلاً إلى أن انتهى إلى الوصيّة التي تقول إن الفرنسيس سجنوه ليخفوه عن الحياة الدنيا، ولا يدرون أنهم أخفوه عن الزمان وليس عن الدنيا. والدليل أن كل رفاقه الذين ظلّوا طلقاء، على مرأى ومسمع من الزمان، رحلوا، وهو الوحيد من بينهم الباقي على قيد الحياة، لأنه استغفل الزمان!

المنفى أيضاً سجن يخفى عن العدوّ المدعو زماناً.

وها هو يجرّب جرجرة الأذيال بعيداً عن الوطن فيكتشف وجود الفرق بين أن يعيش الإنسان وأن يحيا الإنسان. فإنسان المنفى لا يحيا، ولكنه يحيا على أمل أن يحيا. لا يحيا ولكنه يعيش على أمل أن يعود إلى الوطن يوماً كي يحيا. إنه ينتظر أن يأتي اليوم الذي سيمكّنه من أن يحيا. فكل شيء في دنياه مؤجّل. كل شيء مدسوس في المستقبل. الزمان بغياب الأوطان ليس زماناً، ولكنه مستقبل. الواقع نفسه يغيب عن الواقع ما لم يهرع لنجدته الوطن بالواقع. والزمان هو الحكيم الذي لا يعترف للكائن بواقعٍ سوى واقع الأوطان.

8 ـ السكّين

الأمل في استعادة الوطن المفقود هو ما استعان به كي لا يصاب بالجنون، كما أُصيبت «تاملّالت» المسكينة. الأمل أجاره من الجنون، ولكن حوّله ممسوساً. بلى! المسّ أضعف ما راهن عليه العقلاء (إلى حدّ لم يجدوا ما يكافئونه به سوى استعارة اسمه ليكون لهم وساماً): **العقل!** استولى عليه البلبال في المرحلة الأولى فهام على وجهه كدراويش الطريقة القادرية ليتسقّط أخبار الوطن وأحوال الوطن كأنه المتسوّل الذي يتسوّل الحسنات. وكان من الطبيعي أن يتّهمه معشر الرعاة بالخبل! والأسوأ من كل شيء هو الإنكار الذي قرأه في مقلة رفيقة الدرب طوال زمن الصراع. ويستطيع أن يعترف لها الآن بالبطولة، لأنها تألّمت بصمت وتصدّت للدّاء بشجاعة أهّلتها لأن تكون إنساناً، في حين حطّت منه البلبلة ليدبّ على الأرض حيواناً! كان يقرأ في لؤلؤتيها المدهشتين همّاً لا يطاق، ولكنها كانت تبتلع السكين لتنزف نزيف الداخل

بصمت. لقد استجار بالأمل فخذله الأمل. لقد ظنّ أن البليّة التي حاقت بالوطن، وكانت السبب في طرده من الوطن، زوبعة عابرة لا تلبث أن تزول كما زالت من الصحراء كل الزوابع. ولكن هيهات! فالواقع أثبت أن الزوبعة هذه المرّة ليست ككل الزوابع التي اجتاحت الصحراء في تاريخها المميت. كلّ الأنباء التي أتى بها الهاربون من الوطن تشير إلى طغيان الزوبعة، بل وانقلابها إلى كابوس. ولا يستطيع أن يستعيد ذكرى ما حدث إلّا مشفوعةً بتلك النبوءة التي ردّدها الكبار ولا أحد يدري من استودعها ألسنة القوم مرّة:

«إنّهم يسنّون السكاكين!».

لم يتساءل في إحدى السنوات التي سبقت المذابح عن هوية النبوءة، ولا عن هوية الذين يشحذون السكاكين، ولا عن هوية السكاكين، ولا عن هوية كبش الفداء الذي ستنحره السكاكين، ولا عن سبب الدم الذي سيسيل بفعل أنصال السكاكين. ولكن ما يذكره هو كيف انتشرت النبوءة المشؤومة على ألسنة الجميع كما تنتشر النار في الهشيم ليسمعها تتردّد في المضارب، وفي المراعي، وفي الصحاري الخوالي، حتّى نطقت بها الجبال، وتغنّى بها الطير، وهمهم بها الجنّ كوعيد رهيب:

«إنّهم يسنّون السكاكين!»

البعض أشاع أنها أقبلت على ظهور القوافل من قلب

الأدغال حيث ما زالت قبائل «بامبارا» تتطاول في الأشجار لتنافس القردة في تسلّق السيقان. وفريق آخر ردّد أنها جاءت من **آهجّار**، من **تامنغست** حاضرة القوم تحديداً، مصحوبةً بنبأ الختام في حرب تحرير الشمال، وإعلان الاستقلال، ووفاة زعيم النضال: **إبراهيم بكّدة**. وفي كل الأحوال المهمّ ليس من أي سماء تنزّلت، أو كيف استُقبلت!

لن ينسى الاهتمام الذي نالته في مجالس الأكابر، وفي محافل العجائز، لأنه خمّن دوماً أن هاتين الفئتين لا توليان اهتماماً لأي أمرٍ عبثاً كبقية السواد، ولكن المحفلين لا يستمرئان الخوض في شيء طويلاً إلّا لأمرٍ جلل. فإذا تناطحت الرؤوس، وتهامست الشفاه، فإن الخطب أعظم! إلى أن جاء ميعاد الرحلة إلى «بيلما». فما تكتمه صدور الأكابر تفضحه ألسنة الفضول في الأسفار، وما يخفيه دهاء العجائز في البراري، يعلنه الاحتكاك في مجالس الأغيار. هناك، في رحاب الرحلة، وفي خضمّ الأخلاط، لم يعد الخطر اسماً محظوراً، ولكنه أضحى على الأبواب! في الطريق الطويل قال «**بسّا**» بصريح العبارة: «السكاكين جاهزة، ولا تنتظر إلّا الوقت المناسب لتستقرّ في النحر!». تساءل عن معنى «الوقت المناسب» فأوضح صديقه القديم في المراعي «**بسّا**»: «شبّ حريقٌ لم يقرأوا له حساباً، فأربك الحواة، وعطّل اللعب!». استفهم عن سرّ الحريق فأفاد بأن حرباً اشتعلت بين مراكش

ونوميديا الاستقلال، والحواة لا يستطيعون أن يغامروا بما ضمروا ضدّ أهل الصحراء ما لم يضمنوا دعم هذين البلدين، فإن لم يفعلوا، فعلى الأقل ضمان حياد البلدين. تعجّب في ذلك اليوم طويلاً، تماماً كما تعجّب كل من سمع السيرة. أيعقل أن يكونوا طريدة سمينة إلى الحدّ الذي يستدعي دعم دولة مهيبة مثل مراكش أو حليف الأمس في حرب التحرير نوميديا؟ ما الذي جنوه في هذه الدنيا حتّى يستحقّوا أن تعقد مثل هذه الأحلاف لذبحهم؟ بل ما الذي جنوه منذ الأزل حتّى يكونوا ضحيّة الغزاة منذ الأزل؟

في «بيلما» كانت الفرصة في إيضاح ما خفي. تحرّروا من أحمال السلع وأطلقوا سراح الجمال لالتقاط الأنفاس، وكافئوا أنفسهم على الوعثاء بيوم كامل للاستجمام. في مساء هذا اليوم، بجوار موقد نار متوّج بوعاء الشاي الأخضر، طاب السّمر. في مثل هذه الأوقات ينضمّ أهل المكان إلى المحفل لتداول الآراء حول شؤون الصحراء في كل مرة. في هذه المرّة كانت السكاكين بطل الساعة بلا منازع. «بوبو» من أجاديز قال إن المكيدة لم تعد سرّاً. فالحكومة الشرقيّة التي استولت على الشقّ الشرقي من مملكة تينبكتو كنصيب من الغنيمة والتي لم يجد الغزاة ما يطلقوا عليها سوى «نيجر» المهين، بدأت تطارد القبائل وتزجّ بأبنائها في الجيوش كجنود استعداداً لليوم المشهود الذي لم يعد ينتظر إلّا كلمة السرّ

للانطلاق! أمّا ذوو العيون الزرق في أدغال ماوراء النهر فجنّدوا همج «بامبارا» بعد أن وضعوا في أيديهم البنادق بدل الحراب، ثمّ نصّبوا على رؤوسهم بعض أبناء جلدتهم الذين عملوا خدماً في بيوتهم (أمثال موديبوكيتا) استعداداً لاقتراف الآثام في حقّ الصحراء انتقاماً لموقفها القديم من عدوان ملّتهم.

تناولوا الموقف من كل جانب في تلك الليلة. وكان لا بدّ أن يستشعر القلق إزاء هذا الإجماع على اقتراب نزول البلاء وهو الذي لم يعتد من القوم سوى الاستهانة بكل شيء، بما في ذلك الحياة نفسها، التي استهتروا بها دوماً، فزاوجوا بينها وبين الموت في عبارة «ميدّيياغز» الدالّة على إيمانٍ عميق بباطل كل شيء! في تلك الليلة، قبيل أن ينفضّ المجلس، حلّ بينهم ضيف جديد قال إنه تاجر جلود ينتمي إلى قبائل الأنصار التي أقبلت إلى الصحراء مع أوائل المبشّرين بدين التوحيد، فطاب المقام لروّاد السلف، ليمارسوا الفقه بين القبائل جيلاً بعد جيل حرصاً على تعاليم الدين. كان نحيلاً، طويلاً، ببشرة نحاسيّة، ولثام مخطّط هزيل. في عينيه تسليم من عاند الصحاري طويلاً فيبدو إيماءً كأنه الإعياء. قال إنه أقبل من «توات» في الشمال حاملاً نبأ لا يأتيه بهتان. هيمن على المجلس سكون مزموم وتعلّقت به الأبصار بفضول انتظاراً للكلمة الأخيرة في ملحمة الفصول. قال إن المدعو

«موديبوكيتا» الذي نصّبه المحتلّ حاكماً على كذبة «مالي» قد أفلح في التوسّط بين الجارتين الشماليّتين نوميديا ومرّاكش ليذلّل آخر عقبة في طريق المؤامرة المبيّتة، وهو ما لم يكن ليتمّ بدون إيعاز من أسياده وأولياء نعمته الفرنسيس، ولم يبق الآن إلّا وضع الخطّة موضع التنفيذ، فخيّم على المجلس وجوم. فكلّ إنسان في تلك الجلسة كان كوكباً كاملاً يختزل الجنس البشري كلّه في ذلك الجرم الضئيل: علاقات، ونوايا، وأحلام، وارتباطات، وخيال، وروح تستطيع أن تطوف ما لا نهاية له ولا بداية لتحوي في عبّها كل شيء متحدّيةً عجز الجرم البائس الجاثم أمام موقد النار في بقعةٍ مّا في صحراء جرداء قُدّر لها أن تكون قرباناً لإله شرّير استصدر بحقّ أهلها فرمان الموت منذ الأزل لا لشيء إلّا لأنهم أبوا أن يكونوا عبيداً لعبيد! كلّ إنسان في تلك الجلسة الآن صار عالماً مهدّداً بالزوال من معبودته الصحراء، تماماً كما كان الإعدام سيفاً مسلّطاً على رقاب كل أجيال الصحراء التي سلفت، وما سيحدث هذه المرّة ليس سوى طور جديد في المهزلة القديمة التي ورث الأخلاف فصولها في سير الأسلاف. والتكرار هو ما دفعهم لأن يسلّموا بغياب العدالة على الأرض، ولكن ما لم يستطيعوا أن يسلّموا به هو غياب عدالة السماء في هذه الأرض!

سليل الأنصار القادم من «توات» أضاف للسيرة المعلومة

الأسوأ عندما قال إن الثعلبان «**موديبوكيتا**» لم يضمن حياد الجارتين بوساطته الخبيثة، ولكنه ضمن دعم الطرفين أيضاً في الحملة المبيّتة!

لا ينسى كيف انطفأ الألق الحامي، اللجوج، العنيد، في عيون أعضاء المحفل.

كانت نار الموقد ما زالت تومض لتبدّد الظلمة في المكان عندما شاهد كيف ينكفئ هؤلاء الأشدّاء ليرتدّوا إلى أنفسهم، ليرتدّوا إلى سجونهم، ليعاندوا حساباتهم في ضوء البلية المقبلة، لأن في كلّ من هؤلاء يحيا عالم آخر، أرضيّ، إلى جانب الكوكب السماوي. عالم مغلول بألف قيد وقيد. عالم تسرح فيه العوائل، والآباء، والأمّهات، والأقرباء، والأخلّاء، والارتباطات، والأحلام، وسلسلة لا نهاية من الارتباطات، التي عليهم أن يجدوا الحيلة لحمايتها من شبح الغول القادم. فالخوف من الموت ليس هو البعبع الذي يفزع في الحروب، أو في أشراك الدنيا الأسوأ من الحروب، ولكن هذه الحزمة من المسؤوليات التي تطوّق عنق كل مخلوق، بما في ذلك الأشدّاء في ملّة المخلوقات. والهمّ الذي رآه تلك الليلة كان الترجمان الأمين لهذه الرطانة الخفيّة التي دمدمت في قلب كل جليس، لأن الكل لديه ما يخسره. الكلّ، بما في ذلك أكثرهم تنصّلاً من كل قيد، أو تباهياً بالتحرّر من كل حطام في الدنيا، لديه ما يخسره في هذه الدنيا. هو أيضاً،

أسيس، الطليق، اليتيم الذي فقد الأب ثم الأمّ، اكتشف في تلك اللحظة أن لديه ما يخسره. والدليل أن طيفه تجسّد في سجنه ما إن ارتدّ إلى نفسه، كما ارتدّ الجميع ما إن أيقنوا بقرب القارعة في تلك الجلسة التي قد لا تتكرّر، بل اليقين أنها لن تتكرّر. طاف حوله الطيف في غمضة، فسرى في البدن وهن كالشلل. فأن يفقد «**تاملّالت**» كان الإحساس الذي لم يخطر له على بال، ولم يكن ليعترف به، ولم يتخيّله ليقينه بوجود ربّ الفراق الذي يسمّيه الناس موتاً في مكانٍ مّا من هذه الصحراء، ولم يشكّ في أنه سينزل عليه ضيفاً يوماً. ولكنّه لم يشكّ أيضاً أن هذا الضيف سوف يفعل كل ما بوسعه كي يأخذهما إلى مجهوله معاً، أو يتلطّف فيدعهما معاً. جادل هذا الضيف مع الزمن طويلاً ولم يتوقّف إلى أن انتزع منه العهد الذي قبل بموجبه الصفقة المرضية للطرفين: أن يأخذهما معاً عندما يحين ميعاد انقطاع الحبل.

ولكن ما لم يتوقّعه في تلك الليلة أن يداهمه همّ فراق شيء آخر لم يقرأ له حساباً: **اللحون!**

ففي اللحظة التي ارتدّ فيها إلى الحبوس، كما ارتدّ الكلّ، انهمرت في أذنه المعزوفة. تلك كانت المعزوفة المميتة التي شبّ عليها، وحبكت فيه لغز الوجدان، وبرهنت له وحدها على وجود اللّه في بُعْدٍ مّا من هذه الصحراء الشقيّة. المعزوفة التي كانت ترياق الحنين، والعزاء الوحيد في عزلة الفيافي،

واغتراب الأعوام، والإحساس الذي لا يطاق باليُتْم: يُتمٌ يبدو التيتّم من الأبوين إلى جواره مزحةً.

فالحرمان من هذه المعزوفة هو المنيّة الحقيقيّة، إلى جانب، منيّة الحرمان من رفيقة الدهر، ولن يتردّد في أن ينضمّ إلى القافلة ليمشي في ركاب الغيبة فيما لو تنازل الضيف الموعود عن كبريائه وقبل أن يفعل ما بوسعه لا كي يحرمه من رفقتهما في الرحلة.

عاند غصّة مريرة، كأنّها شهقة النزع الأخير، ما إن استعاد تاريخ العلاقة مع المعزوفة الموسيقية عندما سمعها بصوت شاعرة الأغراب في حفل زفاف أحد الشباب. كانت تلك جنيّة، وليست شاعرة، جاءت رسولاً من دنيا الأساطير، لا من صحراء «آدرار» كما قيل في المنتجع آنذاك، فصدّق لأول مرّة بوجود المغنّيات الجنيّات اللّائي يستدرجن المهاجرين في الخلوات بسحر لحونهن كما تروي القبائل. في تلك المرّة غاب عن الدنيا لأوّل مرّة أيضاً وهاجر إلى المجهول في نوبة وَجْد لم يفق منها إلّا بعد مضي ثلاثة أيام. ليس الصوت وحده، أو أبيات القصيدة التي تغنّت بها الجنّية، هو ما صعقه في ذلك اليوم، ولكن اللحن. لحن الجنّ الذي يستطيع أن يصرع الأحياء ويحيي العظام وهي رميم كما وصفه أحد الممسوسين، وإلّا لما تردّد في أذنيه دوماً، بل وسكنه إلى الأبد حتى أنه لم يستغرب عندما حدّثوه، بعد يقظته من نوبة

الوجد، كيف أطاح اللحن بأحد الأقران ليغمى عليه، وعندما صحا اندفع يجري حتى رمى بنفسه في البئر التي لم يكتب لمخلوق أن خرج منها حيّاً.

هو أيضاً لم يخرج من الصعقة حيّاً تماماً. صحيح أنه لم يلفظ أنفاسه غرقاً كقرينه البائس، ولكن المعزوفة سرقت قلبه فسقط طريح الفراش لأسابيع. وعندما تعافى واستفهم عن الجنيّة قالوا له إنها رحلت إلى صحرائها النائية. هام في صحرائه زمناً قبل أن يفاتح العمّ برغبته في القيام برحلة إلى «آدرار» برفقة صديقه «بسّا» لقضاء بعض الحوائج. وبالطبع لم يدهشه أن يحدس العمّ حقيقة الحُجّة التي أطلق عليها اسم «الحوائج»، لأنه إذا كان يستطيع أن يضلّل أحداً مّا، فلا شكّ أن العمّ سيكون آخر من يستطيع أن يضلّل. لن ينسى كيف رمقه بتلك النظرة التي تفضح مكراً قبل أن يفاجئه بالقول: «إذا كنت تطمع في أن تجد المغنّية المشؤومة في آدرار فأنت واهم!». لقد عبّر العمّ عن مواقف أكابر القبيلة بالعبارة لأنهم لم يغفروا للجنّية سلب عقول شباب القبيلة.

استفهم من العمّ عن معنى القول، ولكن العمّ حدجه بغموض ولاذ بالصمت. بعد أيام شاع في الربوع الخبر الذي يقول إن المغنّية لم تكن سليلة أهل آدرار، ولكنّها جنّية حقيقيّة لم يعثر لها على أثر في أي مكان منذ غادرت المضارب.

فَقَد السبيل إلى المغنّية الجنونيّة، ولكنه لم يفقد غنيمة

المغنّية الجنونية: تلك المعزوفة الموسيقية الجنونية التي ما زالت تتلبّسه وتسري في خفايا مهجته، تماماً كما يسري الدم في شرايين جسده. ما لم يغفره لنفسه أنه لم يستطع أن يغنّي، وفشل دوماً في أن يقول الشعر!

9 ــ العهد

في اليوم التالي تجوّل برفقة «بسّا» في مناجم الملح ليستمتعوا برؤية السبائك السحرية الملفّقة من أكثر عطايا الأرض غموضاً التي حقّ لها أن تصنع مجد هذا المكان دون أي مكان في كل المتاهة الصحراوية الكبرى: فالملح هو المعدن الذي نسجت فيه الأجيال الأساطير أكثر مما نسجته في كل المعادن، فقيل فيها أكثر ممّا قيل في معدن الحديد، أو الفضّة، أو حتّى الذهب. فهو لا يكتفي بأن يكون الرسول الذي يهب الطعم للطعوم في يقين القوم، ولكنه إمام الدهاء الذي يهب الطعم للوجود، لأنه حجر الزاوية في سيرة الاعتدال الذي يؤكّد حكماء الصحراء أنه الاسم المستعار لما يسمّيه الدهماء سعادةً، لأنه المثال في القياس: إذا زاد وجوده عن الحدّ بَطُلَ، وإذا عدم وجوده بَطُلَ أيضاً. من استوعب درس الملح وحده يستطيع أن يستوعب درس اللغز! درس السعادة! ولهذا السبب رفعه الدهاة فوق كل المعادن درجات بما في ذلك الذهب، ليكون بطل الصفقة التي أنجزها

الأسلاف يوم وجدوا أنفسهم تحت قبّة السماء في هذه الصحراء لينزلوا لأول مرّة أضيافاً على الكائنات المذهلة التي تستطيع أن تتنكّر في الأجرام فتتبدّى، وتستطيع أن تتجرّد من الأبدان فتتخفّى، فأطلقوا عليها أسماء كالأشباح، أو الأرواح، أو الجنّ. وكان من الطبيعي أن تنشب بين القبيلتين حروب حامية في البداية لعدّة أسباب أهمّها الحرب التي ورثها الأخلاف في أساطير الأسلاف باسم «حرب الكنوز» ولعب فيها ثالوث الذهب والملح والحديد دور البطولة. تفاوضوا طويلاً قبل أن ينتهوا إلى عهد يتنازل بموجبه فريق الدخلاء على معدن الذهب، مقابل أن يتنازل فريق الجنّ لهم عن الملح. فصار امتلاك الذهب في عرف النزلاء اقترافاً لإثم منذ ذلك التاريخ الموغل في القدم، بقدر ما غدا الملح تعويذتهم ضدّ الجنّ، لأنه في العرف الأول محرّم على ملّتهم إلى الأبد. ولهذا استجار به القوم دوماً في عراكهم السرّي الخالد مع أهل الخفاء، كما استخدم فريق الخافيات معدن الذهب للإيقاع ببلهاء البشر! ولكن جدلاً قاسياً نشب عند الخوض في شأن الحديد. تدارس عقلاء القوم من الفريقين أمر الحديد طويلاً، ولم ينتهوا إلى اتّفاق بشأنه إلّا بعد مشاورات شاقّة استغرقت بحساب القوم أعواماً وربّما أجيالاً. ولكن الأساطير تروي أنّ الفريقين توصّلا إلى اتّفاق في النهاية يقضي بتحريم هذا المعدن ومنعه من التداول منعاً باتّاً على الفريقين، إيماناً

بخطورته على حياة الفريقين، بل لأنّه شرّ يهدّد وجود الفريقين في كل اليابسة النفيسة التي أحبّوها وعبدوها ونصّبوها في قلوبهم قدس أقداس وخلعوا عليها اسم الصحراء.

سرى مفعول هذا العهد أجيالاً وأجيالاً إلى اليوم الذي أقبل فيه الشبح اللئيم الذي بصمته الأساطير باسم «**وانتهيط**» (صاحب الأتان) ممتطياً أتانه المشؤومة ليغري البلداء باستخراج المارد من القمقم بوصفه التميمة الوحيدة التي ستضع حدّاً لعدوان أهل الخفاء في حقّهم وتجيرهم من استفزازاتهم المكرورة. ولكن المارد الذي أجارهم من استفزازات أقران الخفاء، ما لبث أن ارتدّ ضدّهم ليصير في حياتهم اللعنة التي لم يجدوا للخلاص منها سبيلاً!

استعاد هذه السيرة وهو يتجوّل في جداول المنجم السخيّ برفقة «**بسّا**» قبل أن ينضمّ إليهما «**باخي**» تاجر الجلود الأنصاري القادم من «**توات**» الذي اقترح النزول إلى السوق لاستطلاع البضائع. فارتياد هذا العشّ العجيب الذي تتقاطع فيه المِلل ولو إلى حين كان دوماً كعبة القوافل ونزهة العابرين. إنه الشَّرَك الوحيد الذي تؤمّه الأمم طوعاً لتستعيد في رحابه العلاقة المفقودة التي أضاعتها بفعل ناموس الحياة في الصحراء، وما تبادل السّلع أو اقتناء الحوائج في هذا الزحام الحميم سوى ذريعة. إنه عيدٌ مصغّر، بل هو حجّ في حجمه المصغّر، ومراسم الطواف فيه لا تختلف عن طقوس

الطواف حول الكعبة. فحيثما التقى الإنسان بأخيه الإنسان فهو حرم، سواء تبادلا فيه التجارة، أو تبادلا فيه العبارة.

هذا هو الحرم الذي نزلوه ثلاثتهم في مطلع ربيع ذلك العام المشؤوم الذي داهمهم فيه المسلّحون ليدنّسوا بأحذيتهم الحرم، ويضعوا في أيديهم القيود، ليدركوا بعد فوات الأوان أن السوق إذا كان حرماً للإنسان الذي يريد أن يستعيد علاقته المفقودة مع أخيه الإنسان، بيد أنه لأهل السلطان أنسب فخّ لاستدراج ذلك الإنسان الذي آثر أن يموت في الصحاري وحيداً، ولكن حرّاً، على أن يستجير بالسقوف في الواحات ليحيا عبداً للمكان.

كانوا يخوضون في أمرٍ صار حديث المجالس في الأيام الأخيرة عندما داهمتهم أشباح الحكومات المختلفة الجديدة. تحدّث «**باخي**» فقال إن «**هاماني ديوري**» رئيس البلاد التي أبدعها خيال الفرنسيس خصّيصاً لكي تبتلع في جوفها شرق مملكة **تينبكتو** المنحلّة بما في ذلك «**آجاديز**» و«**بيلما**» نفسها لم يستحِ أن يفاخر بكراهيّته للإنسان الأبيض، بل وللبياض، إلى حدّ حرّم فيه على نفسه أكل الطماطم لأن لونه يذكّره بسيماء الإنسان الأبيض! أمّا «**بسّا**» فقال إنهم يدّعون عداوة الملّة البيضاء بدعوى أننا استخدمناهم برغم أن الحقّ هو أنّهم هم من استخدمنا. فليس سرّاً أنهم كانوا يبيعون أولادهم لأجدادنا كي يطعموا أنفسهم وضمنوا ألّا تهلك ذرّيتهم بسبب

الجوع، لم نعاملهم إلّا كما نعامل أبناء الأسرة الواحدة. وهو ما ورثناه عن أسلافنا منذ الأزل، فما الذي جدّ في هذه الدنيا فجأة؟

تدخّل «باخي» ليفسّر ما جدّ في العلاقة بين الملّتين. قال إن الفرنسيس هم أصل الفتنة، لأنهم هم من أوحى لبلهاء الملّة السوداء بفرْيَة الاستعباد ليفرّقوا بين الطرفين فيضمنوا السيادة حتى بعد أن يغيبوا، وها هي الدلائل تشير إلى نجاحهم في دسيستهم. ولهذا التفت إلى «أسيس» ما إن وجدوا أنفسهم في الأغلال تالياً، ليسمعهم وصيّته التي ردّدها مراراً: «سترون أن سكاكين النصارى أرحم بما لا يقاس من سكاكين ذوي القربى، أو من حسبناهم ذوي قربى!».

10 ـ سكاكين ذوي القربى

باخي! باخي! كم كان باخي على حقّ! لقد تجرّع القوم سموم نبوءة **باخي** إلى النهاية ليعلموا كم كانت سكاكين الغرباء أرحم من سكاكين الأقرباء فما كان منهم إلّا أن لعنوا رياح التغيير التي يهفو لها الناس دوماً، فلم تأت لهم بخير يوماً كلّما أتت. فالكلّ لا يملّ سبّ الحال، والكلّ يولول بسبب زوال الحال وحلول المحال. فاليوم لعنة حتّى لو كان جنّة، والغد ألعن ما إن يتبدّل، ولا خلاص في الحالين. الخلاص في الأمس وحده، لأن الذاكرة التي تمتطي جياد الحلم وحدها تمتلك الموهبة التي تعيد صياغة السيرة فتحيل بليّة الأمس أرجوحة اليوم. لن ينسى كيف زجّ بهم عتاة الجند في عربتين وفرّوا بهم إلى معسكر أنشأوه حديثاً خصّيصاً لهذا الغرض كما خمّنوا. هناك وجدوا أشقياء آخرين ينتمون أيضاً إلى أبناء جلدتهم: **بولّا** من تينبكتو، **وبكّة** القادم من فيافي آضاغ، وحتى **بزكة** ابن قبائل السونغاي الذي أقبل من **غاو**.

بدأ الاستجواب.

الواقع أن أمراً مضحكاً سبق وقائع الاستجواب هو طلب إبراز الوثائق الثبوتيّة. وكان من الطبيعي أن تثير هذه النكتة استنكار الجميع. وهو ما استفزّ كبير الجند الذي قرّر أن يثأر منهم جزاء استخفافهم فيوجّه لهم تهمتين خطيرتين، أولاهما: التنقّل في أرض الدولة بدون هوية إثبات الشخصيّة، وثانيتهما: التسلّل عبر الحدود بدون تأشيرة مرور!

استغرق الاستجواب بقيّة النهار لينتهي مع حلول المساء بإضافة تهمة أخطر إلى القائمة وهي: التهرّب من دفع المكوس!

لم يفهم أحد معنى هذه التهمة الأخيرة إلّا عندما أخبرهم الترجمان الذي تولّى نقل رطانات الضابط المهيب إلى لغتهم بأن ينسوا كل ما ملكت أيديهم ويحمدوا اللّه على نجاتهم، لأن أمثالهم فقدوا حياتهم أيضاً إلى جانب ممتلكاتهم!

لم يفهم أحد منهم بالطبع معنى هذه الأحجية، فاستفهموا من الترجمان مراراً ليعلموا بالحرف الصريح صدور الأمر بمصادرة القافلة كلّها، بما في ذلك الجِمال وما تحمله من أثقال!

الصدمة عطّلت فيهم اللسان، كما شلّت فيهم الأبدان، إلى حدّ لم يعرفوا ماذا سيفعلون بأنفسهم. هو، أسيس، وحده لم يفقد صوابه لأنه الوحيد في تلك الحادثة العبثيّة لم يفقد كنزه. فاللّه الذي ألهمه أن يستبقي قلبه، أن يستبقي **تاملّالت**

في المراعي، ويغادر إلى **بيلما** وحده، كان به رحيماً. بل أطلق ضحكة أثارت استنكار الرفاق لأنه ذكّر كيف أجاب **بولّا** على سؤال كبير الجند عن مكان الإقامة فأجاب **بولّا** ببراءة: «في **تينبكتو**»، ثم استدرك ليضيف: «في مملكة **تينبكتو**!»، فما كان من الضابط المهيب إلّا أن تفحّصه بفضول شديد قبل أن ينطلق ليستخرج خريطة بالية من درج طاولة متهالكة ليفردها في وجهه قائلاً: «هيّا! أرني أيها الأبله أين تقع مملكتك التي تتحدّث عنها؟». ولكن **بولّا** لم يفهم كما تبدّى، لأنه استنجد بالآخرين حائراً، ثم طأطأ بحزن!

11 ــ الحِداد

بعدها بدأت الصحراء تضيق، وتضيق، وتضيق حتى استحقّت أن توصف بـ «أضيق مضيق» الذي لا يقارن إلّا بخرم إبرة بعد أن كانت أكبر صحاري العالم اتّساعاً وإلّا لما سمّيت بـ «الكبرى».

لم تطلق السلطات الناشئة سراحهم إلّا بعد أن أجبرتهم على توقيع تعهّد يلزمهم بعدم تكرار ما اقترفوا في حقّ القانون من خطايا. وعندما احتجّوا على تجريدهم من كل ما يمكّنهم من بلوغ أوطانهم بعد سلب حوائجهم وإبلهم تدخّل الترجمان مرّة أخرى ليقول لهم إنهم محظوظون لأن أصحاب قوافل أخرى أُغرقوا في نهر كوكو بسبب شحّ الموارد الضرورية للاحتفاظ بهم في المعتقلات!

خرجوا من معسكر الأشباح ليكتشفوا أنهم عرايا: بلا متاع، بلا قافلة، بلا بضائع، بلا قوت، بلا ماء، بلا أي شيء يصلح عوناً في البلوغ بهم إلى برّ الأوطان، باستثناء الملابس التي تستر أجسادهم. فالآن فقط يستطيعون أن يدّعوا أنهم

أبناء صحراء! الآن فقط يستطيعون أن يتباهوا بأنهم أحرار! الآن فقط تستطيع الصحراء أن تقبلهم في بلاطها، وتعترف بانتمائهم إلى مملكتهم، بل بانتمائهم إلى ملكوتهم، بعد أن شوّهته الأغلال المنكرة، المرفوضة بموجب ناموسها. الآن فقط يستطيعون أن يحقّقوا حلمهم الخفيّ، حلمهم الأبديّ، بتلبّس هذه الأمّ الرؤوم والتماهي بها جسداً وروحاً. الآن، بعد أن تحرّروا من حبال المسد، بل من أغلال الحديد، من الممتلكات، من الدنس، ليستعيدوا البراءه المفقودة، ليستعيدوا الشهادة الوحيدة التي لا تعترف الصحراء بسواها كي تبيح ارتياد حرمها. لأن لغز الألغاز المسمّى حريّةً لا يتحقّق وجداناً ما لم يتحقّق حرفاً. لا يتحقّق روحاً ما لم يتحقّق جسداً.

هم اليوم أحرار. لهذا السبب هاموا على وجوههم غير آبهين بما حدث حتى أنهم سخروا من بركة سليل قبائل سونغاي عندما اقترح السعي جنوباً نحو زندر حيث يقيم أحد أقربائه الذي سيمكّنهم من ركوب نهر كوكو نحو الغرب، إلى تينبكتو. تصدّى له بولّا ليتساءل بلهجة تهكّم مريرة: «ومن يضمن لنا أن تينبكتو ما زالت هي تينبكتو التي عرفناها قبل حلول الطامّة؟ ألم تسمع ما قاله زعيم العصابة؟». هنا جاء دوره هو، أسيس، ليعترض لا على وجود تينبكتو أو زوالها من الصحراء، ولكن على ركوب النهر، على ركوب الماء! استعان بوصايا الأسلاف

في استنكار اقتراف إثم مثل ركوب الماء الذي خُلق ليكون ملاذاً يُستجار به، لا بهيمةً نتّخذها مركباً، ولو لم يؤمن الأسلاف بهذا اليقين لما قبلوا بأن يبقوا سجناء جزيرة اسمها الصحراء محصورة بين وادي **كوكو** جنوباً، ووادي النيل شرقاً، وبحر الأروام شمالاً، وتنّين المحيط غرباً. ثمّ تساءل: «هل سمع أحدكم يوماً بابن صحراء كسر يوماً هذا الطوق الذي فطمنا عليه، ثمّ عبر إلى المجهول الواقع فيما وراء المياه المذكورة؟ هل مصادفة أن تكون المياه التي تحدّ الصحراء بعدد أركان الدنيا الأربعة؟». تدخّل بركة ليوضح أنهم لن يركبوا الماء ليعبروا إلى ضفاف الأقوام الأخرى، ولكن ليبلغوا برّاً آمناً على الضفّة نفسها. ولكنه عاد يحاجج قائلاً إن ركوب الماء وحده خطرٌ جسيم، لأنه يخفي سرّاً يستدرج للمجهول، وطلب المجهول في عرف الناموس خطيئة!

حلّ الليل، ولكن الليل لم يضع حدّاً للجدل. استمرّ الجدل إلى أن كشف الأنصاري باخي عن كنزه المخبّأ في حزامه الجلدي الثخين. كان كمّاً من الفرنكات الفرنسية كافياً لمساعدتهم في الوصل إلى برّ الأمان. عرض المال قائلاً إنه قرّر أن يتخلّى عن تجارة الجلود منذ اليوم، لأن ما يحدث ما هو إلّا البلاغ الذي نعاها، ولا يريد الآن إلّا أن يلتحق بعائلته في توات كي يفتّش عن حرفة أخرى تصلح مصدراً للرزق بدل تجارة الجلود التي ستلفظ أنفاسها بسبب قيام السدود!

لاذوا بالصمت جميعاً، لأنهم اكتشفوا فجأة أن حال «باخي» سيكون حال الجميع . . . فالكارثة إذا كانت ستضع حدّاً لتجارة الجلود، فإنها النار التي لن تكتفي بالتهام الجلود، ولكنها سوف تسرح لتلتهم بقيّة الهشيم. وهو ما يعني أنّهم مهدّدون جميعاً. تجارة الملح أيضاً سوف تلفظ أنفاسها. بل تجارة القوافل كلّها سوف تموت. وهو ما يعني أن الصحراء سوف تفقد الجواد الذي راهنت عليه منذ الأزل، وسوف تزول أيضاً من خرائط الوجود. كانوا يوسوسون، ولكنهم لا يصدّقون. لا يصدّقون لأنهم لا يتخيّلون. ظنّوا أن ما حدث لهم مجرّد مزحة عابرة، نكتة شرّيرة سوف تنقشع. ولكن المنطق يقول إن ما حدث هو واقع جديد عليهم أن يقبلوا به منذ اليوم كحقيقة واقعة. ولهذا لم يصدّقوا، ولا ينوون أن يصدّقوا، لأن التصديق يعني أن عليهم أن يتوقّعوا الأسوأ الذي لن يعني سوى زوالهم من الصحراء، وزوال الصحراء أيضاً بزوالهم من الصحراء.

ولا يذكر من أشار بوجوب اللجوء إلى آزجر، ربّما «بكّة»، وربّما «بسّا»، قال إن آزجر كان قبلة الجنوب منذ الأزل تلوذ به القبائل كلّما حاق بها مصاب، فيجير القبائل إلى أن ينجلي المصاب. قال أيضاً إن هناك يسود السلام منذ انسحاب الطليان، وشاحنات التجّار لم تتوقّف إلى هناك لأن حكومات الأشباح في الجنوب لا تملك الشجاعة الكافية كي

تستفزّ مواطنين ينتمون إلى حكومة مثل ليبيا. وإذا كان باخي يرى أن الطريق إلى منافذ آهجّار أنسب فليس للجميع أن يتمثّل هذا الخيار. ولكن باخي لم يرَ أن الطريق إلى المنافذ المؤدية إلى توات أنسب. بل أكّد أن أبالسة الجندرمة الذين نصّبتهم حكومة الاستقلال في نوميديا هناك أسوأ من أشباح موديبوكيتا أو هاماني ديوري. هنا استنكر «بولّا»: «ولكنّك تنتمي إلى توات، وتوات من نصيب نوميديا الاستقلال في القسمة المشؤومة، لا نوميديا الاحتلال!». ولكن باخي الأنصاري خيّب ظنّ السائل بحكومة الاستقلال عندما أعلن: «جندرمة الاستقلال أرذل ألف مرّة من جندرمة الاحتلال لأنهم لا يعترفون بكلّ من ارتدى لثاماً إلّا كعدوّ يجب نهبه أو حبسه أو تسليمه للحلفاء في حكومتي عَبَدَة الأوثان هؤلاء! ولولا الحزام لما وجدتُ اليوم حيلة تعينني على الالتحاق بأبنائي!».

سكت باخي قليلاً قبل أن ينعت الإنسان الذي عدّه الناس بالأمس بطلاً جاءهم بالخلاص بـ«الدّسيسة التي تخفّي في عبّها جلّاداً أشرّ من أولياء أربابه الفرنسيس» وهو يروي سيرة الزعيم الذي تربّع على عرش دولة الاستقلال، فلم يكتفِ بإنكار الأبطال الذين ضحّوا بكلّ شيء في سبيل التحرير، ولكنه لم يتردّد في أن يفعل بالأهالي ما لم تجرؤ على فعله حتّى سلطات الفرنسيس عندما فرّق بين أفراد القبيلة الواحدة، بل وبين أفراد العائلة الواحدة، لمجرّد توافق وجودهم في ركن

آخر من صحراء اللّه الواسعة، تلبيةً لمشيئة القوانين الغبيّة التي سنّها بدعوى حماية حدود دولة الاستقلال!

فما لم يخطر ببال أحد في تلك المرحلة أن حظر التنقّل في فضاءٍ كان مفتوحاً منذ الأزل كالصحراء لم يكن فقط لغاية تقنين المكيدة الدنيئة في تشتيت أهل المكان وفرض التقسيم المشؤوم عليهم كأمرٍ واقع، ولكن أيضاً لمحو ملّتهم وتقديم هذه الملّة هبةً مجّانيةً لقبائل لم تملك يوماً شروط الملّة، اللهمّ إلّا إذا كان الانتماء إلى اللون الواحد ملّةً!

فبعد زمنٍ قصيرٍ من ذلك التاريخ عمّ الصحراء الحداد بعد شيوع نبأ الكابوس الذي عُرف في الصحراء تالياً باسم: «حملة صيد الأقنعة»!

القسم الثاني

1 ــ الحنين

تثاقلت، وانتفخ فيها الجوف، ولكنها لم تفقد أناقتها أبداً. لم تترهّل، أو تتحلّل كما هي حال قريناتها في مثل هذا الوضع. احتفظت بضمور الأعضاء رغم أنف العبء. لا يعرف لماذا كان العبء دوماً عدوانيّاً في علاقته بالجمال. الجمال دوماً هشّ. الجمال ليس هشّاً وحسب، ولكنه لسوء الحظّ ضيفٌ عابر. أمّا العبء فقط واقع كأنه برهانٌ حازم. الجمال فخّ لاقتناص العبء، ولكن العبء في الصفقة غاية. ينقضي الإغواء، ولكن الأجنّة تبقى.

تضعضع فيها القوام، ولكن العبء لم يقتل فيها التعالي. العبء لم يصب في مقلتيها الإيماء المميت. لم يصب فيها الفجيعة أيضاً. استجاب لألمها ففكّ القيد وأطلق سراحها ليقينه بأنها لن تقطع مسافة بعيدة حتّى لو استيقظت فيها طائفة الجنّ التي تسكنها. تركها في رحاب مرتع فسيح غنيّ بأنواع الكلأ يقع عند تخوم الحمادة الجنوبية. اعتلى رابية تشرف على المرتع وشرع يراقبها من مسافة مناسبة لئلّا تكتشف

الموقع الذي اختاره للمراقبة. في المرتع تناثر جزء قطيع الإبل، في حين سرح الباقي عبر مسربين معشوشبين منحدرين من الجهة الأخرى للرابية. فالحمادة الحمراء سيرة صعود حثيثة إلى الأعلى. صعود ينطلق من أحاضيض الوعوثة المغمورة برمال منطقة «تارجا» يعقبه صعود آخر إلى صحراء مفروشة بالحصباء يشتدّ أزرها كلّما ترامت شمالاً في رحلة الصعود إلى أعلى، إلى أن تتشبّث بتلابيب الوعورة الحجرية في المسافات التالية، قبل أن تبلغ تخوم سطوح مديدة، عنيدة، صارمة، حمراء السيماء، تتخلّلها روابٍ حميمة، تتمدّد فوق سهول سخيّة بالنّبوت المختلفة، بعضها شجر، وجلّها أجناس أعشاب، وتستلقي فوق هاماتها المكابرة أضرحة الأوائل في نتوءات خرافية ملفّقة من صنوف ألواح صلدٍ مستقطعٍ من الأجبال النائية الواقعة في سفوح أجبال أخرى أعلى قامةً تقع في مرحلة من سيرة الصعود الذي لا يبلغ الذروة إلّا في أقاصي الشمال.

في نقطةٍ مّا من هذا المسير (المستميت، كأنّه في صموده سُلّمٌ يهفو لبلوغ السماء) أنكرته في أحد الأيام التي عصفت بها نوبة جنونية أخرى. نوبة أخرى من جنسٍ آخر هذه المرّة تجلّى فيها الهجوم بعد أن كانت في المرات السابقة ضرباً من دفاعٍ عن النفس. كانت في الماضي فراراً، كفاحاً في سبيل الخلاص، ولكنها في تلك المرّة انقلبت عدواناً حقيقيّاً كاد

يدفع ثمنه غالياً. استغفلته في إحدى الليالي لتقطع القيد. اقتفى أثرها في الصباح في مطاردة استمرّت طويلاً. امتطى مهريّاً فروسيّاً ليدركها عند المرتفع المشرف على حضيض الصحراء الرملية. في هذا المنعطف ارتدّت لتكشّر له عن أنياب هذه المرّة. هاجمت المهريّ أوّلاً. عضّت فخذته عضّاً دامياً، فتدخّل هو ليعيدها إلى صوابها، ولكنّها أنكرته أيضاً. تخلّت عن فخذة المهري المسكين لتتولّاه هو. وجّهت له لطمة برأسها فسقط ليتدحرج مسافة عبر السفح. لم تكتفِ بهذا المنكر، ولكنها لاحقته في نيّة لسحقه بكلكلها الفظيع الذي لم يفلت منه إلّا بالفرار. ركض عبر المنحدر الممتدّ نحو المنخفض الرملي، فطاردته. انحرف يميناً ليستجير بشجرة طلح، فحاصرته. كانت تصرّ على أسنانها وتلفظ الزبد. في مقلتيها لمع جنونٌ مجبولٌ بألم. ألمٌ يستفزّ فيه نزيفاً لا يطاق كلّما استعاد ذكراه. ألمٌ مشفوعٌ بغياب. ألمٌ زوّر الروح في المخلوقة التي هدهدها وعرفها وأحبّها ليبعث فيها شبحاً آخر فتساءل مراراً عن سرّ الحنين. عن سلطان «**أهيراغ**» كما يسمّيه القوم. أهيراغ الذي لم يكن ليكون الملهم لكل الأشعار، ولكلّ اللحون، ولكلّ الفنون، بل وللحبّ أيضاً، لولا سطوته الخفيّة التي لم يؤمن بقوّتها إلّا في تجربته الدموية مع هذا الكائن الذي لا يستطيع إلّا أن يصفه بالكائن، لأنها ليست حيواناً بالطبع، وليست أيضاً شبحاً أو ما يسمّيه فقهاء النجوع

ملاكاً، ليلقّنه درساً في هذا اللغز المسمّى حنيناً لا في صيغته المألوفة، ولكن في بُعْده الآخر، في بُعْده الخطر، الذي يتكتّم على طبيعته المميتة دهاة القبائل، فلا يرد اسمه على الألسن إلّا همساً، كما هو الحال مع الحنين إلى الوطن. فكم مرّة تساءل عن السرّ الذي يسكن الوطن بعد أن أعيته الحيلة في أن يجد جواباً شافياً عن السرّ الذي يسكن الحنين، ممّا ضاعف همّه ودعاه لأن يجزم بأنه لن يستطيع أن يفسّر لنفسه سرّ أيّ منهما ما لم يتوصّل لتفسير أحدهما. فأشعار الشعراء لا تلامس أوتار الحنين إلّا لتوقظ فينا الإحساس باغترابنا عن الوطن، فلا نزداد إلّا جهلاً بالقطب المسمّى حنيناً، وبقرينه المسمّى وطناً، لأن الوطن ليس هو الوطن، ولكن الوطن ما هو إلّا الباب المؤدّي إلى الوطن، إلى الوطن المفقود في الوطن. أمّا الحنين في الصفقة فهو النذير الذي أخذ على عاتقه وزر التبشير بهذا الوطن القائم في بُعْدٍ مّا خلف الوطن.

وجنون المخلوقة هو الدليل على هذه المحنة. فالتخوم التي تقاتل لبلوغها ليست في البرزخ المجسّد في منفذ «تخرخوري» الجبلي الذي جعله المحتلّ الفرنسي حدّاً فاصلاً بين الدول الثلاث، ولكنّها التخوم التي تقع وراء «آير»، التخوم التي لا تستطيع أن تستعيدها ما لم تحلّ في الصحراء الواقعة بين «آير» و«أزواد»، لأن هناك فقط يوجد المنفذ، توجد البوّابة المؤدّية إلى الوطن الحقيقي المتخفّي خلف الوطن.

وها هو الحنين إلى هذا الموقع يجرّدها من فطنتها، بل وحرمها من ذخيرة قوتها، من غريزتها، فتستبسل في النيل منه. هشّمت الشجرة بصدرها في طريقها إليه، ففرّ. صعد السفح هذه المرّة وهي تجدّ وراءه بعناد. اعتلى المرتفع، ولكنها لم تتراجع. في امتداد المرتفع تبدّت قمّة نحاسيّة متوّجة بجلاميد صخريّة قاسية فطلبها ركضاً. انطلق فانطلقت وراءه. كادت تدركه قبل أن يدرك القمّة. صدمته بصدرها في منتصف الطريق فتدحرج. كادت تتمكّن منه بالكلكل، ولكنّه تنحّى في آخر ومضة. غمرته برغوة الزبد، ولكنّه أفلت. استغلّ انهمامها بالنهوض من جديد فطار إلى القمّة. تسلّق السفح مستعيناً بيديه أيضاً. أدرك الشعفة واحتمى بالجلمود النحاسي المكابر المنتصب كصنمٍ قديم. تفقّدها وهو يلتقط أنفاسه فإذا بها تتطاول في الحجارة الشرسة التي تكسو السفح في طريقها إليه. أيقن لحظتها أنها قرّرت أن تقطع حبل السرّة لتتحرّر إلى الأبد. قرّرت أن تتخلّص منه لأنها تدري أنّه صار في طريق استرداد الوطن العقبة الوحيدة. أدرك لحظتها شيئاً آخر: إذا قرّرت أن تتخلّص منه هو فلن يقف في طريقها شيء. وإذا لم يقف في طريقها شيء، فإن الوطن أقوى من كل شيء!

2 ــ دسّينا

تذكّر سيرة القيد. تعجّب كيف نسي أنه هو، لا أيّ شيء آخر، أوّل قيد في دنياها، وآخر قيد أيضاً. وهو أمّ المهد، وحميم الطفولة، وقرين العمر كلّه. يستطيع أن يؤكّد أيضاً أنه هو الوطن أيضاً. فليكن وطناً في الحجم المصغّر، ولكنّه في كل حال وطن. لا يستطيع أن يدّعي أنه الوطن الأكبر ما لم يستطع أن يفكّك أحجية الأوطان، وليس عليها أن تستسلم لنوباتها الجنونية إلى الحدّ الذي ينسيها أنه وطنها أيضاً. لا ينسى كيف حامت حوله الأمّ قبل رحيلها لتستدرجه بامرأة. كانت تواجهه في الأمسيات في جلستها حول موقد النار لتتغنّى بمحاسن «تيدِت» سليلة صديقتها المقيمة بالنجع المجاور. تهرّب مراراً، ولكن الأمّ كانت تحاصره بالسيرة في كل مرّة. رأى أن يجاريها في أحد الأيام فلاذ بتلابيب الدعابة. قال لها أنّه لن يتزوّج امرأةً ما لم تكن بجمال «دسّينا». استنكرت الأمّ لتتساءل بفضول: «ومن هي دسّينا هذه؟». استهجن أن تجهل أجمل امرأة في الصحراء، بل وفي كل الصحاري. استهجن

أن تجهل جمال «دسّينا» الأسطوري. وجدها فرصة للتغنّي بجمال «دسّينا» التي لم يرها بالطبع. ولكنه استعان بالمارد الوحيد القادر على إبداع الأسطورة في أيّ شيء بما في ذلك الجمال وهو الخيال. تقمّص روح الشاعر واستنزل خصالاً سماوية في جمال «دسّينا». ثم عرّج بها إلى الأرض ليروي سيرتها مع بطل الحروب ضدّ فرنسا بداية القرن زعيم آهجّار الأسطوري موسى أج أماستان. توقّف ليسألها عمّا إذا كانت تذكر هذه الشخصيّة فانتهرته: «ومن منّا لا يعرف **موسى أج أماستان؟**». انتهز الفرصة فقال إنه يستغرب أن يعرف أهل «آير» بطولات موسى أج أماستان في مقاومة الفرنسيس ويجهلون سيرته مع «دسّينا»!

قال إن شاعراً في آهجّار رآها فجأة فسقط مغشيّاً عليه. وآخر وقع في نوبة وَجْد فركض ليرمي بنفسه من الجبل. أمّا أماستان فطلب يدها ما إن وقع بصره عليها ولكنها رفضته. لحظتها تطلّع إلى سيماء الأم من وراء ألسنة النار فرآها تشتعل بفضولٍ مجدوحٍ بإيماء كالاستنكار. فمهما كان جمال «دسّينا» خارقاً فهذا لن يعني أنها ليست امرأة. أمّا البطل فليس مجرّد رجل، ولا حتّى بفارس، ولكنه شبحٌ مجهولٌ لا يختلف عن الرسول. فما الذي يدعو «دسّينا» لأن ترفض موسى أج أماستان وهو في عزّ مجده البطولي؟

انتظر حتّى أيقن ببلوغ فيض الفضول الذروة فأوضح:

«قالت إنه ليس وسيماً بما يكفي!». تعجّبت الأمّ: «ليس وسيماً بما يكفي؟». ثم أضافت: «وهل يوجد في الرجال ما يمكن أن يفوق البطولة جمالاً؟». أجاب لحظتها: «هذا ما نظنّه نحن يا أمّاه، ولكن الحِسان أمثال دسّينا لا يكنّ حساناً بدون غرابة أطوار، فهل تدرين بماذا أجاب موسى أج أماستان على هذه الإهانة؟». تلبّسها الفضول فمالت نحوه حتّى كاد وجهها يقتحم ألسنة النار فعجّل: «أقسم ألّا يمسّ امرأة من سلالات النبلاء، ليتّخذ أمَةً من قبائل بامبارا زوجةً له!». تمتمت الأمّ: «هذا يليق ببطل في مقام موسى أج أماستان حقّاً!». ولكنه أضاف قائلاً إنها تزوّجت رجلاً لا يمتّ للبطولة بصلة أنجبت منه ولداً ثم طلّقته أيضاً فما كان منه إلّا أن حذا حذو أج أماستان فحرّم نساء آهجّار ليتزوّج إحدى إمائه أيضاً!

رمقته الأمّ بوجوم قبل أن تنطق بالإدانة:

- بمثل حماقات أمثال هؤلاء ضلّل أكابر القبائل حقيقة القبائل!

توضّحها باستفهام فأضافت:

- ترفض الحسناء البلهاء البطل بسبب غبيّ كالسّيماء، فيرتمي البطل في أحضان الإماء لينتقم، فتكون الخطيئة في حقّ السلالة التي ستضلّ السبيل لتدفع الأجيال اللاحقة الثمن. أليس هذا ما حدث مع أمّة الصحراء منذ الأزل وما الموقف بين الزعيم أماستان والبلهاء دسّينا سوى الدليل الذي يكرّر السيرة؟

تطلّع إليها بفضول. أدهشه أن تكتشف الأمّ عُقدة في السيرة التي رواها من باب الطرفة. تساءل مازحاً:

ـ ولكن بماذا نفسّر انقياد زوجها الذي طلّقته لمغامرة موسى أج أماستان بارتمائه أيضاً في أحضان الإماء؟

فرّت بعينيها إلى الخلاء الخالي، العنيد في فراره إلى العدم، كعادتها عندما تعاند سِيَر الأوائل فتحلّ فيها روح الكاهنة. قالت:

ـ الناس على دين دهاتها. إذا كان أماستان المهيب هو من فعل ذلك فالكلّ يؤمن بأنه لم يفعل ما فعل بلا حكمة، وليس على الجيل إلّا أن يحذو حذوه مهما تبدّى الفعل حُمْقاً!

ابتسم. اشتعل الفضول. تمتم:

ـ هذا يعني أنّ الظمأ إلى الانتقام هو السبب؟

أجابت بيقين:

ـ الانتقام وباء! هل تدري لماذا؟

زفرت بسخاء. أضافت:

ـ الانتقام وباء لا يكتفي بأن يقتل الخصوم، ولكنه يسمّم حياة الأجيال كلّها.

ثمّ عادت من رحلة العدم فجأة لتحاصره بنظرة. دمدمت بوعيد:

ـ إيّاك أن تنتقم أبداً!

عاد يبتسم ثمّ تشبّث بتلابيب «دسّينا» من جديد:

ـ ولكن علينا أن نعترف لأسلافنا بخصلة مفقودة هذه الأيّام. . .

سكت فحدجته بتحدٍّ. أكمل:

ـ عبادة الجمال!

استجارت بالخلاء من جديد. اعترفت:

ـ هذا حقّ!

ثمّ استدركت:

ـ ولكن الجمال، كما هو الحال مع دسّينا، ليس سعادة، بل فتنة. والفتنة علّة كل لعنة. وسيرة دسّينا نفسها دليل على هذا، لأن لا أحد نجا من اللعنة بما في ذلك دسّينا نفسها! أراهن أنّها ماتت بغصّة!

هيمن صمت قبل أن يزفّ لها نبوءة فوزه بالحسناء الوحيدة الجديرة بلقب حسناء هذه الأيام ولا ينوي أن يخذلها. استفهمت بعينيها عن هذه الحسناء التي اصطفاها وفضّلها على ابنة جارتها، ولكنه تجاهلها، ولم يعترف إلّا بعد أن قرأ كآبة في سيمائها:

ـ تابلالت!

حدجته بشكّ قبل أن تستفهم:

ـ ومن هي «تابلالت» هذه أيُّها الشقيّ؟

تأمّلها مليّاً. في مقلتيه قرأت سعادة حقّاً قبل أن يجيب بغموض مشيراً إلى الخلوة خارج الخباء:

ـ ومن تكون غير «دسّينا» هذا الزمان الجاثمة أمامك هناك في المربد؟

حدّقت باستنكار، ثمّ تأفّفت قبل أن تشيح عنه بوجهها محذّرةً:

ـ احترس أن تفعل بك «دسّينا» هذه ما فعلته دسّينا الأجيال بزعماء الأجيال!

كانت تلك المرّة الأخيرة التي عرّجت فيها الأمّ على سيرة النساء قبل أن تصرعها الحمّى لتلفظ أنفاسها بتلك العلّة المجهولة التي لا تنزل النجوع إلّا وتحصد أبرياء لا ذنب لهم إلّا لأنّهم آثروا أن يموتوا أحراراً في الصحراء على أن يحيوا في الواحات لينالوا عناية الأطبّاء!

3 ــ المِيْتة

بعد ذلك النزاع صار يترصّدها خفيةً، لأنه لاحظ أنها تترصّده خفيةً أيضاً. بل اكتشف أنها كانت إلى الترصّد أسبق. تتظاهر بالانحناء لالتقام الحشائش، ولكنها تختلس نحوه نظرة أينما حلّت. ظلّت ترقبه بمكر بحثاً عن الفرصة المناسبة لاستغفاله. أحسن بها الظنّ، ولكنها لم تبادله حسن الظنون أبداً. يأتي ليناجيها، كما اعتاد أن يفعل منذ عهد المهد، فتستجيب لمناجاته، أو تتظاهر بالاستجابة مجاملةً. تستدرجه كي تكتسب ثقته حتّى إذا اطمأنّ وضعت نواياها موضع التنفيذ. يتصرّف بسجيّة في علاقته بها، ولكنها تدفع له مكراً بالمقابل كحال أي أنثى. ولهذا السبب تعمّد هذه المرّة أن يشعرها بدوره كحارس حتّى وهي في الوضع الحرج، حتّى وهي في وضع العقال. ولكن رفاق المراعي هم مَن خذله هذه المرّة. الاسترخاء كان السبب. الاسترخاء عدوّ أوّل في ناموس سليل الصحراء. الاسترخاء ليس نومة، أو غفوة، ولكنه غفلة. الاسترخاء سلسلة إغواء لا تبدأ بالحلقة حول

النار في سهرة المساء، ولا تنتهي بالاستسلام لنومة أشبه بميتة لأنها تستمرّ حتّى مطلع الشمس. الاسترخاء متاع ملفّق من حطام مشفوع بعشبة الليل التي يتّخذها ضعاف النفوس عقاراً يتناولونه ليتحوّل في حياتهم إلى ما يسمّيه تجّار القوافل أفيوناً. لسان النار في هذه التكيّة وحده دعوة لا تختلف عن إغراء الطائر الذهبي الذي يستدرج الصغار إلى الضياع المسمّى في لغة القوم «سخرك إيبراضن» أي «طعْم التّيه»!

كانت تلك ليلة هيمن فيها الربيع وأشرفت على فصولها أسحار قمرٍ يستوي بدراً. السكون أيضاً اشترك في حَبْك خيوط المؤامرة تلك الليلة. السكون أيضاً قوت استرخاء. السكون يوقظ الأشجان ويدغدغ الوجد الذي لا يستقيم بدون غناء.

فإذا استولى على الجلسة سلطان الغناء فذاك غياب اليقظة، بل وغياب الصحراء من دنيا الصحراء. اللحون في تلك الليلة كانت الشرك الذي أنساهم أنفسهم، وغيّبهم عن المكان، بل وعن الأمر الجلل الذي لم يولدوا إلّا من أجله والمسمّى في لغة الدهاة واجباً!

والسهر لم يكن ليحلو لولا وجود الوقود كما هم خلّان الدنيا الذين لا يقنعون بأن يختلسوا منّا الوقت، ولكنّهم يأبون إلّا أن يسرقوا منّا النجاح أيضاً مثلهم مثل أغيار الناس تماماً. وهم لا يفلحون في هذه السرقة ما لم يثنونا عن الانضباط

بتزيين الاسترخاء. وهو ما يعني أن أولئك الذين نحسبهم رفاقاً، أو خلّاناً، ما هم في الواقع سوى الأعداء! الأعداء الذين يتنكّرون في أجرام الأخلّاء. فأن يكونوا زينة الحياة الدنيا، كما النساء، فهم لصوص الحياة الدنيا، كما النساء. إنّهم العُقار المنوّم الذي يشغلنا بالدنيا عن الحياة في سيرة الدنيا. لأن اللّهو إذا كان المتعة التي تستهوي في رحلة الدنيا، فإن أداء الواجب هو ضمان السعادة التي لا نجنيها بدون انضباط. وها هو يصحو بعد سمر تلك الليلة بعد الشروق فلا يرتكب خطيئة في حقّ الواجب فقط، ولكنه يقترف إثماً في حقّ ربّ الواجب أيضاً. فالاستيقاظ بعد طلوع الشمس إذا كان هو ما لا يُغتفر في عرف الصحراء، فإنه فعل النحس الذي حذّره منه الأبوان منذ كان في المهد صبيّاً.

والواقع أن الأبوين لم يكونا في حاجة إلى تلقينه هذا الدرس، لأنه شرعٌ ترعرع معه الكلّ، فسرى في الشرايين كما يسري الدم حتّى صار الإخلال به، في يقين الكلّ، خيانة لأقدس ما من شأنه أن يصيب الدنيا كلّها بالعطل. وهو ما يستوجب توقّع القصاص. وها هو يجني هذا القصاص.

لم تشرد لقيته وحدها بفضل تلك الغفلة، ولكن القطيع الذي تركوه في عهدته أمانةً شرد أيضاً. فتشاءم ما إن أبصر قرص الشمس وقد طلّق الأفق ليقطع في رحلة الخلود مسافة مدهشة. طاف الخلاء العاري فلم يبصر الاستواء القاسي،

الممتدّ إلى كلّ الأركان، المغطَّى بقطع الحجارة الرمادية كأنها تطريز متقن في فرشة سجّاد مستجلبة من واحة «توات». فوق هذا البساط الفخم دبّت ذيول سراب مبكّر، مبشّرةً بنهار يعد بالسعير.

4 ـ الزعيم

اقتفى أثر البعير. لم يتخيّل أن يقطع القطيع مسافة بعيدة في ليلة، ولكن الآثار المبعثرة في البداية ما لبث أن شقّت بأخفافها، في عراء الحمادة المدكوك، وسماً جليّاً لتستقيم في مسرب محدّد ينحرف غرباً.

جدّ وراء المسرب مسافة حتّى حلول الظهيرة فاستجار من القيظ بشجرة رتم. قيظ أغرق المكان بسيول السراب كأنّ السماء قرّرت أن تتخلّص من كل ما في جعبتها من قيظ دفعة واحدة. تناول جرعة من زمزمية الماء. أدهشه كيف لم يخطر ببال الرفاق أن يوقظوه قبل انطلاقهم، وربّما أوقظوه ولم يمتثل، أو لم يفعلوا لأنّهم انطلقوا أبكر ممّا يجب، وفي كل الأحوال ليس له أن يلوم أحداً، لأن مَنْ لم يتعلّم من إمام المعلّمين الصحراء لن ينتظر أن يتلقّى تعليماً من أحد. لو لم ينزل «ساهو» إلى الواحة لاستجلاب التموين لما وجد نفسه وحيداً في هذه الورطة. ورطة، ولكنّها الورطة التي عليه أن يتحمّل وزرها وحده. لم يؤلمه أن يفقد عملاً، أو يدخل

سجناً، أو يُجلد سياطاً (لأن من فقد وطناً لن يفجعه أن يفقد قُوتاً أو أن يدخل سجناً أو حتّى أن يفقد رأسه)، ولكن ما آلمه هو أن يخذل الزعيم الذي آمنه من خوف وأطعمه من جوع، في ذلك اليوم الذي دخل فيه «غات» هارباً من قنّاصة العصابة. استجار بالجامع ككلّ الغرباء فاستضافه الأخيار بصنوف الطعوم ثلاثة أيام قبل أن يأتي أحدهم ليسأله عن هويّته. سرد عليه مقتطفاً زهيداً من أجناس البلايا التي أحاقت بأمم الجنوب الصحراوي، فذهب به إلى الشيخ **الحسيني** زعيم آزجر. استنسبه فنسب له. ساءله عن الأحوال فحدّثه عن آخر الفصول. اعتدل في جلسته واستمع للرواية بفضول. فضول حاول أن يخفيه باللثام. كان يهرع ليتحصّن بهذه القشّة مع كلّ فصل في **حملة الأقنعة** التي لا تُصدَّق. طأطأ الشيخ فتوقّف هو عن السّرد. شيّع رأسه المتوّج بلثام مهيب مجبول بقطعة «تجولموست» الزرقاء ثمّ تكلّم فقال: «يدهشني أن يتآمر من قاتلنا الاحتلال بالإنابة عنهم بالأمس فيكافئونا بإعلان الحرب عن أهلنا هناك بالنيابة عن عدوّ الأمس! على بعد بضعة أمتار من هنا تقع **سيّن** التي قصفها الفرنسيس بالطائرات في عام 1957 أثناء حرب التحرير، واقتحمها الجيش الفرنسي ليستشهد فيها أحد أبنائي، وأبناء أهل هذا المكان الذين هم أيضاً أبنائي. كان ذاك عدواناً على دولة مستقلّة هي ليبيا، تمّ من باب الانتقام منّا لأنّنا أجرنا في ديارنا أبطال المقاومة ولم نبخل عليهم لا بالمال ولا بالرجال. ولكن ماذا نفعل إذا

كانت سُنّة الدنيا هي التي قضت بأن ننال النكران جزاء الإحسان، ويخذلنا الذين يحكمون، لأنهم ليسوا هم المقاتلين الذين عرفناهم بالأمس! أرجو ألّا تحسن الظنّ ببلادنا أيضاً فتحسب أن من يحكمون هنا اليوم هم أبطال الأمس الذين حاربوا الطليان!».

تذكّر ما حدّثه به أحدهم أيام المقام في الجامع عن سيرة قرار الحكومة في حقّ الزعيم. فقد تلقّى خطاباً ممهوراً بتوقيع رئيس الحكومة ينبّه فيه بإحالته إلى التقاعد بحكم بلوغه السنّ القانونيّة، فما كان من الشيخ إلّا أن حرّر خطاباً مضادّاً موجّهاً إلى رئيس الحكومة تساءل فيه عمّا إذا كانت الحكومة قد أصدرت قراراً مماثلاً في حقّ الملك إدريس الذي يكبره بعشر سنوات على الأقلّ! لم يكتفِ بهذا، ولكنّه أضاف سؤالاً آخر إلى حضرة رئيس الحكومة يستفهم عمّا إذا كان قد تولّى المكانة التي يشغلها بموجب قرار سابق صادر من الحكومة!

محدّثه أضاف قائلاً إن هذه السيرة طافت كل أركان المملكة ووجدها الخبثاء فرصة للنيل من غباء تلك الحكومة إلى أن بلغت أعتاب بلاط الملك إدريس الذي لم يملك إلّا أن يتضامن مع الزعيم في الخصومة.

هذا الرجل هو مَنْ آمنه في ذلك اللقاء ومنحه ثقته عندما نصّبه وصيّاً على أحبّ المخلوقات لإنسان الصحراء: الإبل!

5 ـ الفردوس المُستعاد

بلغ الهجير الذروة فتمادى في الخلاء السراب.

تلاعب السراب بالحجارة فشيّعها ليشيّد بها في الآفاق أنصاباً. داعب أشجار الطلح وحَبَكَ منها بيوتاً تسبح في الغمر السخيّ اللانهائيّ. بلغت سخريّته حدّاً لم يستحِ فيه أن ينفخ في الدبابة من أنفاسه الجنونيّة ليصنع من جرمها التافه مارداً يصارع الموج العنيد الذي يتدفّق ويتدفّق ويتدفّق بلا توقّف عبر بيداء اللانهاية حتّى يغمر الأفق في اللانهاية. لا يتردّد هذا اللئيم في أن يسطو على الخيال ليستعير من خزنته أشباحاً يروقه أن يلهو بها ليطرحها على الأرض إنساناً!

بلى! لقد عاند ذاك الخيال أمواج الغمر طويلاً قبل أن ينتصب قبالته إنساناً...

كان عابراً ميمّماً صوب الشرق. تبادلا التحيّة وركن إلى جواره تحت شجرة الرتم الهرمة الجاثمة في أخدودٍ هزيلٍ مغمورٍ بسيفٍ رمليّ وضيع. اقتسم مع العابر الماء، وتلقّى من يديه كسرة خبز. العابر أفاد برؤية القطيع في وادي «فرطس»،

وأكّد أنه لن يستطيع أن يدركه قبل بلوغ بئر «هركات» الواقعة في شقّ الحمادة الغربي. ثمّ أضاف: «الإبل تحجّ إلى آبار المياه ما أن يلوح الحرّ في الأفق كما تعلم». تفحّصه مليّاً بعدها كأنه يتأهّب ليضيف شيئاً، ولكنه أحجم ليستبدل العبارة ببسمة غامضة. لم يستغرق اللقاء إلّا ساعة. افترقا كما التقيا، لأن المهاجرين الأبديّين لا يلتقون، ولكنّهم يتقاطعون. لا يتجاورون، ولكنّهم يتلامحون. وحتّى إذا التقوا فإنهم لا يجتمعون. لأن الصحراء هي الحسناء التي تستدرج كلّ قطب لكي يسابق، لكي يطارد. لأن العابر لا يعبر إن لم يطارد. ولا يطارد إن لم يوجد ما يطارد وإلّا من أين له أن يفوز بلقب جليل كـ«المهاجر» إن لم يجد ما يطارد، أو إذا لم يختلق ما يطارد؟ ذلك أن دراويش الطرق الصوفيّة الذين يظنّهم البلهاء يهيمون على وجوههم في الصحراء بلا غاية إنّما يطاردون برغم أنهم يخفون ما يطاردون. إنهم يطاردون لغزاً يسمّونه وَجْدَاً من باب التمويه، لأنّهم لا يجرؤون أن يسمّوه باسمه فيقولون إنه اللّه! ذلك أن اللّه هو الاسم المحرّم الذي لا تجري به عضلة اللسان إلّا ليغترب فيه المعنى ليتحوّل إلى مدلول آخر. فالعبور الأبدي أو الهجرة، لا تجلب الحرية، أو ما يسمّيه الدهاة سعادة، ما لم تختلق طُعماً يلوّح به الأفق.

ولهذا هلّل أهل الصحراء وتمتموا بآي الامتنان للمعبود يوم بعث إلى رحابهم ناقة اللّه لتكون لهم ولأخلافهم من بعدهم الطريدة التي تفرّ بالفحوى، لأن الفحوى التي لم تُؤتَ قدرة

على الفرار ليست في حمّى السباق فحوى، ولكنها صنم أخرس. والناقة وحدها هبة اللّه، وفي مطاردتها يجري البحث عن اللّه. في مطاردتها يستعر الأمل باستعادة اللّه. فالزعيم مثالاً لا يجني من الاحتفاظ بالإبل مالاً، ولا يأكل من ورائها قوتاً، ولا يتذوّق لها حليباً، ولا يملأ عينيه بجمالها كل يوم كما ينعم الرحّل أو الرعاة، ولكنه على الرغم من هذا يتشبّث بالإبل لا ليطمئن بامتلاكها، ولكن لأنها في حياته **تعويذة**. لأنها الشهادة على هويّة. لأنها حبل السرّة الوحيد المتبقّي الذي يشدّه إلى مسقط الرأس، إلى حرم الأمّ الكبرى: الصحراء. ولهذا رآه كيف ينفق الأموال على سلالة الإبل بدل أن يجني منها شيئاً، لأن هذه الهبة المبثوثة في أعطاف ناقة اللّه لم تنزل الصحراء لننتفع بها، أو لنمتلكها، ولكن لكي نطاردها. ولهذا لا يستشعر في موقفه ذاك ندماً بقدر ما يستشعر فرحاً، لأن وجود الإبل إذا كان مطاردةً، فإن شرودها مطاردة مرّتين. فإذا كان وجودها تحدّياً، فإن شرودها إمعانٌ في التحدّي. والإمعان في التحدّي إيغالٌ في المطاردة. والإيغال في المطاردة إيغالٌ في الحرية. والإيغال في الحرية هو الإيغال في ما يسمّيه الدهاة سعادةً. أوَلن يكون الإيغال في السعادة هو ما يسمّيه فقهاء القبائل بـ«الفردوس المفقود» ليصير بهذا الإيغال فردوساً مستعاداً، بدل الفردوس المفقود الذي يتغنّى به هؤلاء؟

6 ـ الحَدَس

لم يدرك الطريدة إلّا ساعة أدرك البئر، كما ارتأى شريكه في العبور تماماً.

ولكن المفاجأة كانت في غياب طريدة الزمان. كان في غياب ناقة اللّه من المحفل. فهل ختلته لتشرد في موقع المبيت، أم رافقت القافلة مسافة قبل أن تنفصل عنها لتنحدر نحو الجنوب؟

لم يكن ليجيب عن السؤال دون تتبّع الأثر. وحمّى المطاردة أنسته تفقّد الأثر، لأن أثر ناقة ربّ السماوات والأرض، هو ما لا يُخفى عنه، ويستطيع أن يميّزه حتّى لو تستّر بألف خفّ. ولكن ما هوّن عليه هو يقينه بسلطان العقال في عرقلة مسيرها، دون أن يعني ذلك الاطمئنان إلى أي سلطان إذا تعلّق الأمر بما من شانه أن يطفئ نار حنينها!

قام بسقي القطيع على عجل. ثم طارده عائداً، مقتفياً المسرب الحميم الذي اختطّته الطرائد على الأرض البتول

في حمّى حجّها الجماعي نحو قِبلة الكائنات الفانية، التي يسمّيها الأغراب بئراً، في حين يفضّل أهل الصحراء (المهووسون بالاستعارة ككلّ الشعراء) أن يسمّوها: حَلَمَة الأرض؛ لأن الفحوى التي تسكن الحلمة، لأن العصارة التي تتخفّى في مجهول القاع، هي السرّ الذي يوحّد السماء بالأرض، فلا ترده الكائنات التي تسرح في الصحراء لكي ترتوي من الظمأ إلى الماء، ولكن لتستعيد البُعْد المفقود الخبيء في برزخٍ مّا بين هذين القطبين. وقطرة الماء ما هي إلّا التجسيد الذي لا غنى عنه للحلم الغائب الذي لا نناله إلّا إيماءً، تماماً كما المعزوفة الشجنيّة هي الحيلة الوحيدة للتعبير عن الحنين إلى اللّه، بل والحيلة الوحيدة للتدليل على وجود اللّه!

في منتصف الطريق التقى «ساهو» العائد من رحلة جلب المؤونة من الواحات، برفقته ضيف جديد أفلت من حدّ السكّين لم يكن في حاجة لأن يتفحّصه طويلاً كي يعرف فيه الرفيق القديم «بكّة». احتواه بين ذراعيه بحرارة، ولكنه لم يلبث أن استأذنهما لمواصلة المطاردة قبل أن يفوت الأوان وتقع الطريدة بين أيدي القتلة الذين يكتمون أنفاس الحدود.

سرّج مهريّاً على عجل ثم انطلق لمطاردة المسرب المبثوث في متن القرطاس المدكوك. لم يقطع مسافة نائية عندما اهتدى إلى البقعة التي اختارتها ناقة اللّه منعطفاً

للانحراف جنوباً والفرار نحو الفردوس المفقود المسمّى وطناً بمشيئة الخطأ!

لقد تعمّدت مرافقة القافلة مسافة كافية لاستكمال شروط التمويه، ثم اختارت الرقعة التي تجهّمت فيها الأرض لتستبدل جلدها المتسامح، المكسوّ بحبيبات الحصباء، بجلدةٍ أخرى اكتسحتها حجارة كئيبة، محروقة بفعل براكين الأزل، رقيقة الأحجام، مشذّبة الأجرام، فتبدو في ذلك الاستواء الصارم، كفرشةٍ محبوكةٍ بلحاء شجر طلح، مما يجعل من الاهتداء إلى الأثر عملاً يحتاج إلى مواهب السحرة. وهي تدري أنه هو وحده الساحر الذي لا تستطيع أن تنطلي عليه حيلها، لا لأنه الوسيط الذي نفخ فيها من روحه ليبعث الحياة في العظم الرميم، ولكن لأنه الأمّ التي ربّتها أيضاً إلى جانب هويّته كأبّ. فهو لن يخطئ في الاهتداء إلى الأثر بسبب بصمة الخفّ المائلة دوماً ما إن تنطبع على الأرض، لأن خلل الولادة خلّف في الساق استرخاءً، أو هشاشة، أورثتها عوجاً ضئيلاً، ولكنه بالنسبة له علامة فارقة كافية لاكتشافها أينما حلّت. أمّا فرشة اللحاء التي استجارت بها لتخفيها عن الأنظار فأخفقت أيضاً، لأن العبء الذي تحمله في جوفها خذلها، فكان بساط الحجارة يهوي برغم صمود طبقة الطين المدكوك. يهوي باستحياء بالطبع، ولكن وقع الخفّ لن يغيب عن عين مَن خَبَر الصحراء طويلاً فتماهى مع الصحراء، لتصير

أتفه نأمة، أو لمسة، نأمة في جسده هو، ولمسة يحسّها في لحمه، فلا تلبث أن تسري في دمه لتتحوّل وسوسةً، بل وحدساً. فكيف تراهن ناقة اللّه على خداعه إذا كان الحدس في دنيا الصحراء هو دليله؟

7 ـ السلاح

«بولّا» في ذلك اليوم هو الذي نبّه بوجوب انتهاز الفرصة والفرار من كل الواحات أو الأمكنة المأهولة قبل أن يستشري في جسم الصحراء المرض الخبيث!

كانوا قد التأموا في الليل لتبادل الرأي قبل فوات الأوان بعد أن أيقنوا أن ما حدث ليس كابوساً في أضغاث أحلام. عرّجوا على الزمان الذي لم تخلُ جعبته يوماً من مفاجآت، كما عبّر أحدهم، ليجمعوا على ضرورة الخروج من «بيلما» تحت جنح الظلام. استعانوا ببشرة سليل قبائل السنغاي «بركة» وسخّروا من كنوز «باخي» المدسوسة في جوف الحزام، في ابتياع جملين للاستعانة بهما في الفرار من المكان صوب أيّ مكان.

لا يذكر من اقترح شراء السلاح للدفاع عن النفس، ولكن امتلاك السلاح في تلك الفترة كان أقسى جريمة بحكم قوانين دول الاستقلال الثلاث التي استصدرت اللوائح القاضية بوجوب تسليم السلاح إلى السلطات، ولم تقنع بهذا الإجراء

فأطلقت سراح الجند ليطوفوا الصحراء في الحملة المعروفة باسم **حملة تقليم الأظافر** التي لم تشمل الاستيلاء على البنادق العتيقة التي ترجع إلى زمن مقاومة الدخيل الفرنسي في حروب بداية القرن، ولكنها لم تستثنِ السيوف والسكاكين وكلّ نصل مسنّن أو مشذّب، تجريداً للضحيّة من أي فرصة للنجاة، واستعداداً لميعاد نحر القرابين. ولكنه يذكر أن «بولّا» هو مَنْ اعترض على اقتناء السلاح. تحجّج في البداية بضآلة المبلغ المالي المتبقّي من شراء الجملين الذي لن يكفي لشراء أكثر من بندقية واحدة أو بندقيّتين. بل ولم يقتنع بالحصول على السلاح حتّى عندما كشف «باخي» عن جيبٍ خفيّ آخر في حزامه الجلديّ المنيع ليستخرج نصيباً كافياً من المال تعبيراً عن استعداده لتمويل الصفقة، ممّا أفقد «بكّة» صوابه فهبّ في وجه «بولّا» باحتجاج: «هل تريدنا أن نتركهم ينحروننا ككباش العيد؟».

ولكن «بولّا» طأطأ بحزن قبل أن يجيب: «أن نموت مسالمين أفضل من أن نموت مهزومين، لأن البنادق لن تنال من الغول المسمّى دبّابةً حتّى لو وُجدت!».

كانت الأنحاء قد تناقلت الأنباء التي تتحدّث عن استخدام السلطات لهذه المسوخ المنكرة لسحق احتجاجات في تينبكتو وأجاديز سقط فيها عشرات القتلى.

خيّم وجوم الحداد قبل أن يستنكر باخي: «حتّى أسيادهم

الذين لقّنوهم الكفر لم يجرؤوا على إدخال هذا السلاح الفظيع إلى ساحات القتال سنوات حروبهم مع الأسلاف!». ولكن «بولّا» خيّب ظنّه بتسامح الدخيل عندما قال إن الفرنسيس لم يستخدموا هذا السلاح ضدّ الأجداد لأنه لم يُخترع بعد في مطلع القرن. ثمّ أضاف قائلاً إن وضعهم الآن كأخلاف لا يختلف عن وضع الأسلاف إذا تعلّق الأمر بالسلاح، لأن استخدام السيوف في مواجهة فوّهات البنادق بالأمس، لا يختلف في الحمق عن استخدام فوّهات البنادق اليوم لمواجهة أجرام أسطوريّة كالدبّابات، لأن هذين الفعلين ليسا بطولة، ولكنّهما انتحار في الحالين. ثمّ سرد سيرة الضحايا السخيّة التي سقطت في الشطر الشرقي من الصحراء الجنوبية، وفي شطرها الغربي، وفي آهجّار، وفي آزجر، طوال الغزو الوحشي الفرنسي الذي أباد فرساناً كانوا عَصَب الأمّة الصحراوية الشقيّة لتنكسر شوكة الأمّة منذ ذلك التاريخ بسبب عبادة البطولة التي لم تكن لتكون سوى روح الانتحار التي جُبلت عليها الأجيال منذ الأزل وكانت السبب الوئيد الذي زعزع الكيان كلّه ليشرف على الزوال من رحاب الصحراء، لا لشيء إلّا لأن عقلاء الزمان لم يحسنوا استخدام العقل بقدر ما أحسنوا استخدام الذراع. لم يكتفوا بهذا، ولكنهم جنوا علينا نحن أيضاً فصيّرونا بهذه العقلية جيلاً ضائعاً وإلّا لما وجدنا أنفسنا في مثل هذا اليوم العصيب نقف مكتوفي الأيدي!

تخاطفوا النظرات تحت سماء مرصّعة لعناقيد النجوم ففزّ هو ليطرح عليه سؤالاً: «ماذا كنت ستفعل لو كنت مكان الأسلاف الذين تتهمهم اليوم بأنهم هم من جعل منّا جيلاً ضائعاً مكتوف الأيدي؟».

ما زال يستشعر حرارة الأنفاس التي نفثها «بولّا» في وجهه بزفرة أليمة قبل أن يستشير متون الناموس المفقود: «ليس لمن ضلّ إلّا أن يحتكم إلى «آنهي» كما يقول الأوائل. وما يقوله الكتاب بكلمة واحدة هو ما يعجزنا أن نناله بالسيف نستطيع أن نناله بالسّلم! ألَا نستطيع أن نروّض إنساناً حتّى لو كان مجنوناً، إذا كنّا نستطيع أن نروّض أسوداً؟!».

سكت برهة ثمّ أضاف: «علّمونا أن نتغنّى بالبطولة، وغاب عنّا أن البطولة الجديرة حقّاً بلقب بطولة هي أن نركن إلى السلم لنتفاهم بالتي هي أحسن، لأن السّلم مهما كان سيّئاً، فهو أفضل من حرب حتّى لو توّجت بغلبة!».

هيمن صمت، ولكن باخي ما لبث أن عبّر عن شكوك: «ولكن ما أخشاه الآن أنّنا نفحص أمراً جللاً، ولكن بعد فوات الأوان!».

8 ـ المنكر

بدأت الأرض تهوي حتى تواصلت في وعثاء الصحراء الرملية الوسطى. انطبعت آثارها على لميس الأرض بوضوح شديد، ولكن خطر فقدانها كان في هذه الربوع أشدّ من احتمال فقدان السبيل إليها في المرتفعات الشمالية، لأن الريح هنا هي الخصم. وفضاء السماء، وسكون الكون الموجع لم يكن في هذه البقاع يوماً ضماناً. ولهذا أناخ البعير وقفز إلى العراء ليصلّي. صلّى ركعتين على عجل لكي يفعل المجهول ما بوسعه لمنع انطلاق الريح، ثم تمتم للأولياء بنذر قبل أن يواصل مسيره مشياً. كانت أخفافها محفورةً في الوعوثة بعمق بسبب الحمل الذي تخفيه في بطنها. أمّا خطواتها فكانت تتباعد حيناً وتتقارب أحياناً، لأن المسير في أوحال الرمال أعسر من السير في يبيس الطين المدكوك كما في الحمادة الغربية. أمّا في حال تنكّبت الدّابة الأحمال، الجوفيّة منها والخارجيّة، فإن الحركة سوف تتبلبل أكثر، وانتزاع الخفّ من الوعوثة سيغدو أعسر. في المسافات التالية حيث تعالت

هامات الكثبان، لاحظ كيف تضعضعت حركتها وهي تحاول كسر عناد العوارض الطبيعية بالالتفاف حولها، ولكن الالتفاف كان يستدعي قطع مسافات أطول، كما يلتهم وقتاً أكثر. وهو ما لم تكن تنتوي أن تضحّي به كما اتّضح في مسافات تالية قرّرت فيها أن تحتال على العقبات احتيالاً. بدأت تقتحم الجبال، في نيّة لابتسار المسافة بأيّ ثمن، فتصعد السفح بضع خطوات، قبل أن تنحرف يميناً مرّةً، ويساراً مرّة، حسب وضع الجبال الرمليّة، لتسلك في الخطو إلى أعلى، الجانب المتسامح في الارتفاع، إلى أن تبلغ الشعفة، لتسلك ذات السبيل في النزول إلى الجانب الآخر.

لاحظ أيضاً أن هذه الحيلة لم تكن عونها الوحيد، ولكنها استعانت أيضاً بالمثابرة. ظلّت تستعين على قهر اللانهاية في فرار الصحراء بالخطو الحثيث، بل بالخطو المستميت إن لم يكن المميت. فقد اكتشف في مسافات أخرى كيف حرصت على اجتناب إغواء الأعشاب البريّة في أرضٍ اعشوشبت بسخاء بفعل سحابة شتوية عابرة. أعشاب تسلّقت سفوح الجبال الرملية متباعدةً حيناً، ومتكاثفة حيناً آخر، ولكنها تتحوّل إلى بسط خضراء متوّجة بزهور دقيقة الحجم متعدّدة الألوان في المنحدرات السفلى حيث تتجمّع الأمطار بين قمم الكثبان الهائلة. تعترض سبيلها الرياض في كلّ مرّة، فتقبل نحوها، ولكنها لا تلبث أن تحجم لتنعطف ناحيةً، ليقينها بأن

الطعوم المغرية التي ستلتهمها لن تلتهم وقتها وحسب، ولكنها سوف تضيف لها ثقلاً جديداً بالإضافة إلى ثقل الجنين الذي تحمله في جوفها، فتسترخي لتستسلم للأرض بدل أن تواصل الفرار من الأرض!

الفرار من الأرض؟

الفرار من الأرض هو السيرة التي لا يستطيع أن يستعيدها إلّا مجبولةً بالحمّى، بنوعٍ فريدٍ من الوَجْد. حدث ذلك بعد أن استفحل الوضع، وبلغ الأمر الجلل الذروة. أحكم ثالوث المكيدة، الملفّق من حكومات دول الجوار، قبضته على الحدود لتتحوّل أعظم ساحة حريّة في الدنيا إلى أكبر حبس في الدنيا، بين ليلةٍ وضحاها، ضماناً لمحو أمّة اللثام من الخارطة. صدرت الأوامر من مكانٍ مّا وراء البحور، فاستجاب الوكلاء المحلّيون للنّداء بقفل الحدود إيذاناً بدخول مكيدة التقسيم حيّز التنفيذ. أضحت المطالبة بالهويّة الثبوتيّة من أناسٍ كانوا منذ الأزل أطيافاً في أكبر أوطان الأرض مساحةً ذريعة للإيقاع بالقوافل، وسبباً قانونيّاً لإيداع أصحابها في السجون بعد مصادرة أرزاقهم. نشر الأجناد على الحدود، المثيرة للسّخرية، ضَمَنَ أيضاً الانفراد بالأفراد وعزل أعضاء العائلة الواحدة بعضهم عن بعض استهدافاً لموطن القوّة الكامنة في وحدة الصفّ، وإبطال مفعول إمكان التكتّل لمواجهة العنف.

كانت حكومة الممسوس موديبوكيتا أوّل من قام بسحق العزّل بالدبّابات، وأطلق العنان لعناصر جيشه المدفوعة بالحقد نحو العرق الأبيض، بل ونحو كلّ ما متّ بصِلَة للبياض، ليشعلوا الحريق في ركن الصحراء، فكانوا ككلاب مسعورة هشّها صاحبها للتنكيل بطرائد وديعة لا تملك سبيلاً لا للهرب ولا للدفاع عن النفس. أضرموا النيران في أخبية النجوع. فجّروا الآبار بأصابع الديناميت. حصدوا القطعان بالبنادق الرشّاشة. سمّموا منابع المياه. استولوا على بضائع القوافل. سجنوا الرجال في معسكرات الاعتقال. شرّدوا الأشياخ والنساء والأطفال. منعوا ارتداء اللثام بوصفه تنكّراً للقيام بأعمال تخريبيّة ضدّ السلطات. ثم افتتحوا المذابح بحشد طابور الأكابر وتوقيفهم في العملية التي عُرفت بـ«قنص السبعين دمية» حيث اقتحم الجنود نجوعاً اعتقلوا فيها سبعين رجلاً من أخيار القوم. أوقفوهم في صفٍّ واحد أمام أبنائهم الصغار الذين قالوا لهم إنهم سيقومون بلعبة وعليهم أن يصفّقوا كلّما سقطت في الصفّ دمية. فكان الأبرياء يصفّقون كلّما هوى رجلٌ برصاص الجند، ظنّاً منهم أن الأمر لعبة وسوف ينهض الآباء بمجرّد انتهاء اللعب، ولم يدرك الأشقياء حقيقة ما حدث إلّا بعد غياب الآباء من حياتهم إلى الأبد!

تزامنت المذابح مع تلك الفترة التي أعقبت صدور فرمان سلطات الاحتلال القاضي بإزالة إمارة تينبكتو من الوجود كأنّ

هذا الكيان العريق مجرّد دمية يمكن التخلّص منها بمزحة سمجة من طفلٍ يعاني خللاً عقليّاً! وكان الشيخ **محمد علي الأنصاري** أمير **تينبكتو** قد لجأ إلى الجارة الشمالية فراراً من أشباح كيتا مع عدد من الأعيان، فما كان من سلطات إخوة الأمس في حرب التحرير إلّا أن ألقوا القبض عليه، بوحيٍ من الأشباح الأخرى التي تقبع في مدن ماوراء البحار، ليجري تسليمه مع رفاقه إلى السفّاح كيتا الذي حكم على الزعماء بالإعدام.

أمّا في الشطر الشرقي للصحراء فإنّ سكّين الحقد لم تستثنِ من نصلها أحداً أيضاً. هناك حملت الأنباء كيف تعرّض الناس إلى الشرور ذاتها مع فرقٍ بسيط هو بقاء منفذ «آزجر» الحدودي مفتوحاً لوجوده في نطاق سلطة أخرى مختلفة لم تكن طرفاً في الحلف الثلاثي هي سلطة مملكة ليبيا. ولكن وجود منفذ مفتوح لم ينقذ الأغلبيّة من حملة اصطياد الأقنعة. وها هو زعيم آجاديز وأعيان قبائل «آير» يأتلفون ليحرّروا خطاباً إلى الجنرال **ديغول** احتجّوا فيه على جريمة تنازل فرنسا عن وطن الملثّمين الذي لا تملكه ليكون جزءاً من دويلة ملفّقة من قبائل «فلّان» التي لم تحلم يوماً بامتلاك ما يؤهّلها لتكون دولةً!

ولكن الخطاب وقع في أيدي سلطات «نيامي» كما وقع الزعيم ورفاقه في قبضة السلطات ليُودعوا السجون، فيقضوا نحبهم هناك بسبب التعذيب!

تشتّت شمل القبائل جرّاء الحملة، وانقطعت أوصال

العوائل بسبب إغلاق الحدود بدوريّات الجيوش التي تطلق النار على كل عابر سبيل يحاول اجتياز طرق القوافل من منطقة إلى أخرى.

أمّا هو فقد اعتصم بالجبال يتسقّط الأخبار من بعض الفارّين من هذا الطرف أو ذاك عن الحفلات الجماعية لاصطياد كل من تجرّأ وتقنّع بلثام. روى هؤلاء قصصاً لا تصدّق علّ أصغرها فقيه نجعهم الشقيّ الذي وقع في قبضة مفرزة يقودها ضابط ممسوس مارس في حقّ الفقيه صنوف التنكيل لا لذنب إلّا بسبب لون الجلد وتهمة إخفاء كنوز مزعومة.

ففي أحد الأيام انضمّ إلى سجنه الجبلي خلّ الزمان «بسّا»، لأنه خبر المكان أيام السلام التي لم يتخيّلوا يوماً أنها يمكن أن تنقلب فجأة كابوساً.

لم يطمع فترة اعتزاله أن يلتقي أحداً ينتمي إلى زمن ما قبل الشتات، فكيف بالتقاء إنسانٍ ينتمي إلى القبيلة أيضاً وجمعهما نجعٌ واحد، بل وكان في المراهقة قريناً؟

«بسّا» حدّثه عن ظاهرة جديدة في نكبة الصحراء وهي جيوش المفقودين الذين لا يعرف أحد عمّا إذا كانوا أحياءً أم أمواتاً. والواقع أن ذوي قربى هؤلاء هم من اخترع هذا الاسم لكي يوهموا أنفسهم بأنّ مفقوديهم ما زالوا أحياء في مكانٍ مّا يرزقون، في حين يعلمون، كما يعلم الأغيار، أنهم إمّا

مخطوفون، أو معتقلون، أو مدفونون في بقعةٍ مّا، وهو ما يعني في كل الأحوال أنهم فانون!

«بسّا» لم يرحمه أيضاً عندما أخبره بانضمام الإنسان الذي كان له بمثابة الأبّ، وهو العمّ، إلى صحيفة المفقودين. أمّا الفقيه المسكين فقد روى عنه الخبر اليقين أن أوباش السفّاح (الذي وضع القوم تحريماً على اسمه بعد الكبائر التي اقترفها) فقد مارسوا في حقّه أبشع أنواع التعذيب كي ينتزعوا منه اعترافاً عن كنوز خرافيّة قيل إن جدّه خبّأها في مكانٍ مّا في الصحراء قبل أن يغادر إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ، ولكنه لم يعد ومات هناك، وهو الوريث الوحيد الذي يعلم بوجود الكنوز وموقع الكنوز!

استنكر الفقيه ونفى علمه بأمر الكنوز ووصف السيرة كلّها بالخرافة، ولكنهم لم يصدّقوه. عندها استخرج الرجل من جرابه المصحف القديم ووجّه لهم سؤالاً:

«ألستم مسلمين مثلنا كما تقولون؟». تبادلوا نظرات ساخرة، ولكنه لم يمهلهم. تناول المصحف القديم، المحشور في غلاف جلديّ تهرّأ بفعل الاستخدام الطويل، ثم طبع عليه قبلة قبل أن يؤدّي القسم الذي نفى فيه علمه بسيرة الكنوز. ولكن الضابط المسعور انتزع الكتاب من بين يديه ورمى به بعيداً. لفظت الجلدة قسماً من الأوراق الصفراء فتناثرت في المكان. لاحقها أحد الأجناد وفعل بها المنكر...

توقّف «بسّا» عن سرد السيرة وأشاح بوجهه. لاحقه يومئذٍ بفضول، ولكنه تهرّب. توضّحه قبل أن يحاصره بسؤال: «ماذا فعل عليه اللعنة؟». عاند قبل أن يعترف: «أستحي أن أقول...». ولكنه لم يرحمه: «ماذا يمكن أن يفعل هذا الوغد بالمصحف؟». لمّح بخجل: «فعل ما يمكن أن يفعله أمثاله من الهمج...».

لم يعد في حاجة إلى أيّ إيضاح. طأطأ هو أيضاً. لاذ بتلابيب الصّمت، كأنّ الصمت هو الحرم الوحيد القادر أن يطهّرهما من الآثام المقترفة في حقّ الكتاب. رفع رأسه ليحثّه على مواصلة السرد: «فهمنا ما حدث مع الكتاب، فماذا حدث مع خازن الكتاب؟». استعاد «بسّا» حضوره. عاد يروي. قال إن الضابط المسعور نعت القوم بالغزاة الذين أتوا إلى بلادهم ليستعبدوهم بالكتاب الذي لم يؤمنوا به يوماً، لأنه كان مجرّد حجّة لسرقة كنوزهم!

لم يحتمل هذا التجديف فتدخّل ليخاطب «بسّا»: «هذا ليس لسانهم! هذا ما لقّنهم به أسيادهم لكي يفتنوا بيننا وبينهم!». ولكن «بسّا» لم يستجب لأنه تلبّس روح السيرة المحزنة. واصل روايته فقال إن الفقيه حاول أن يقنعهم بأن اللون الذي يحاولون أن يثأروا له هو باطل لأننا كلّنا من آدم وآدم من تراب. وإذا كانوا ينكرون عليه هذه البشرة فليعلموا أنه سليل أمّ تنتمي إلى قبائل «فلّان»، وما الجلدة سوى قشرة

تخبّئ دماً أسود! عند عبارة الدم الأسود هذه توقّف الأوغاد. قرّروا أن يعبثوا هذه المرة أيضاً كما عاثوا في دنيا الصحراء فساداً. قالوا إنهم يريدون أن يقطعوا الشكّ باليقين في شأن السواد الكامن وراء الجلدة إذا أراد أن يواصل السكوت في شأن الكنوز. بعدها فعلوا به المنكر الذي تحدّثت به الألسن كما حدّثتني الإنسانة الوحيدة التي كانت شاهد عيان وهي الأمَة!. سكت «بسّا» في حين استفهم هو عن المنكر الذي تحدّثت به الألسن، ولكن «بسّا» أشاح بوجهه كما فعل عند الحديث عن المنكر الذي ألحقه السفلة بالكتاب. تمتم بعد لحظات بعبارة: «لا أستطيع أن أقول...» فصمت هو أيضاً إكباراً لصمته. ففي الصمت دوماً ملاذ. الصمت دوماً لغة. في الصمت دوماً تسكن اللغة الأخرى، النقيّة، الحقيقيّة، التي لا تُبتذل بسبب العضلة المسمومة، ولا تفقد العذريّة بسبب الإثم المبثوث في العضلة المشؤومة، فلا نتكلّمها نحن لئلّا ندنّسها، ولكنها هي التي تتكلّمنا لكي تجيرنا من الإثم الذي يسكننا. ولهذا لا نقول بالعضلة ما نريد أن نقول أبداً، لأن اللعنة تصيب المعنى، والذنب المبهم يضلّل السبيل، فلا تغترب الفحوى وحدها، ولا تغيب الحقيقة في الفحوى وحسب، ولكننا نحن من يغترب. ولهذا السبب اللسان يفسد، لهذا السبب اللسان يقتل. و«بسّا» أجار نفسه من الدنس عندما أحجم عن قول الحقيقة عن المنكر الذي حدث. لم يغترب

فيقول أن الأوباش سلخوا جلد الفقيه كما جرى على ألسنة الأغيار!

ذهب «بسّا» بعد أيام ليتفقّد أحوال المفقودين فلم يعد. وكان عليه أن ينتظر أياماً كي يعلم من أحد الفارّين أنه انضمّ هو أيضاً إلى قافلة المفقودين!

9 ـ الحريّةُ دِيْنٌ

هيهات أن ينسى الزلزال الذي هدّه بعد هذا اللقاء.

لقد ظلّ يعزّي نفسه بمناجاة حميمته العجماء طوال تلك الأيام التي استجار فيها بغيران الجبال طلباً لأبسط حقّ في هذه الصحراء الجاحدة: الأمان!

يخرج تحت جنح الظلمات في الليالي، ويختفي عن الأنظار في النهارات كالودّان، أو كالذئاب، أو بالأصح، كالفئران!

في السماء العارية ينتصب القمر حقّاً، وتتناثر النجوم كحبّات الجوهر، ويتنزّل أعمق سكون في الصحراء، فلا يملك إلّا أن يتحدّث بنعمة ربّه حقّاً. السكون وحده هبة لا تقدّر بثمن، فكيف إذا أُضيف لها القمر وكنوز الأنجم، بالمجّان؟ ليس هذا وحسب، ولكن وجد على جدران الكهوف وصايا الأوائل مرسومةً بعناية كأنّها موجّهة له شخصيّاً ليتأمّلها، ويعجب بها، ويستنتج منها الدرس. تلك كانت هبة أخرى، في عزلة الدنيا، مجّانية أيضاً. ففي الملاذ نال نعمة أخرى هي

ترويض اللحون، بل ومعاندة الأشعار، على نحوٍ مجّاني أيضاً. عليه أن يعترف أنه لم يعدم الأنس أيضاً، لأن الخفاء بعث له رسلاً من دنياه المجهولة مراراً كي يلقّنوه الحكمة ويهوّنوا عليه البليّة. ما ضرّ إذا كان الناس يسمّونهم أشباحاً، أو يخلعون عليهم ألقاباً أخرى، كالجنّ مثلاً، إذا كانوا ألطف أطياف، وأشعر المخلوقات وأكثرهم قدرةً على الغناء؟

يعترف أن هذه نعمة أخرى مجّانيّة أيضاً.

ولكن ما لم يجد له تفسيراً هو عدالة السماء!

إذا كان اللّه عادلاً، كما يقول الفقيه المسكين، فكيف يسمح بذبح الأبرياء؟ إذا كان اللّه قاهراً لماذا لا يفعل ما من شأنه أن يردع العدوان؟ إذا كان اللّه عالماً فلماذا لا يوحي لنا بالعلم الذي يشفي الغليل؟ أيعقل أن يقف اللّه موقف المتفرّج وهو يرى الأبرياء يُنحرون كما تُنحر ضحايا العيد؟ أم أن اللّه يستطيب القرابين البشرية كما تستطيبها آلهة الزور في دين عبدة الأوثان الذين يتحدّث عنهم فقيه النجع الشقيّ؟ هل يكفر إذا تساءل عن سرّ خصام اللّه مع الأبرياء، مقابل تسامحه مع الأشرار لمجرّد أنهم أقوياء؟

ألم يخذل اللّه الفقيه أيضاً ويكافئه بسلخ الجلد لقاء الإيمان، بل ولقاء الدعوة لإعلاء شأن الإيمان؟ أم أننا ندفع ثمن خطايا لا ذنب لنا فيها لمجرّد أن أسلافاً ارتكبوها يوماً مّا وعلينا تسوية الدَّيْن؟ وإذا كان الأمر كذلك فما مصير الآية التي

لم يملّ الفقيه من ترديدها حتّى حفظها الكلّ عن ظهر قلب: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»؟ فهل عدل اللّه أن تُساق القبائل إلى المذابح لشراء ذنوب مجهولة دون علم بحقيقة الذنوب، فلا يبقى الجلّاد بدون عقاب فقط، ولكنه يسرح في أرضه طليقاً إلى أن يموت على فراش وثير بعد عمر طويل؟

أيُّ عدلٍ هذا الذي ينجو به السفّاح بجلده، في حين يُقاد الأبرياء لينالوا القصاص بالإنابة عنه؟ ثمّ... ثمّ بأي حقّ تجازي العدالة الإلهيّة أناساً كل ذنبهم أنّهم أحبّوا اللّه وفرّوا به من السواحل، ومن الواحات، ومن الممالك كلّها، إلى أقسى صحاري الدنيا، ليختلوا باللّه في البريّة ليعبدوه في الحرية، لأن أيّ ربّ هو يمكن أن يكون إن لم يكن حريّةً، وهو ما يعني أنهم لم يفعلوا ما فعلوه بأنفسهم إلّا حبّاً للحريّة، وإيماناً بربّ لا يعترف بغير الحرية ديناً؟

كم آلمه غياب الفقيه الذي تمنّى لو بقي على قيد الحياة كي يذهب يوماً ليطرح عليه هذه الأسئلة هنا، في هذه الدنيا، لا في دنيا الغيوب الموعودة، علّه يهرع لنجدته بما يشفي الغليل!

فهو على يقين أنه لن يبقى غريباً فحسب في هذا المخبأ إذا لم يلهمه اللّه بالجواب، ولكنه سينضمّ أيضاً إلى قافلة المفقودين. سينضمّ حتّى لو لم يذهب بقدميه ليسلّم زمام أمره لأبالسة السكّين!

10 ـ جمالٌ اسمه الموت

لم يذهب بقدميه ليسلّم زمام الأمر لأبالسة السكّين، ولكن الأبالسة هم الذين ذهبوا إليه في عقر داره لكي يجرّوا على نحره نصل السكّين!

إنها السيرة التي لا يستعيدها إلّا وتتلبّسه القشعريرة وتنتابه رجّة وَجْد، لا لأنّ الموت تنازل عن استكباره وشرّفه بالزيارة متنكّراً في أجرام حفنة الأبالسة، ولكن لأنه اشتمّ في الزيارة رائحة ما هو أسوأ من الموت: **الخيانة!**

كان قد اختار جحره الجبلي بعناية فائقة منذ الأحداث. اختاره لأنه كان قد اهتدى إليه قبل بدء الأحداث بزمنٍ طويل. حدث ذلك مصادفةً، لا بفضل دهاء أو موهبة. كان يقتفي أثر طريدة في وادٍ يشقّ الجبل المهيب نصفين متلاصقين على نحوٍ حميم يقطع فيه المشاهد عن بُعْد بامتناع السبيل، ولكن الفجوة التي قاد إليها أثر الودّان أفضت إلى شقٍّ ضيّق تسلّل منه بعسر قبل أن يجد نفسه، بعد أن قطع مسافة أخرى، في مسرب يتخلّل فسحة غنيّة بجلاميد صخريّة تنتصب على الجانبين

كأشباح خرافيّة تحرس المداخل السرّية التي ما لبثت أن بدأت تتشعّب وتتداخل منفرجةً تارةً، ومنكسرةً تارات أخرى لتخترق مغارات على الجانبين تستلقي في أحاضيضها مياه الأمطار المستعارة من الأعالي لتتجمّع في مستنقعات سخيّة كأنهار بحيرات حقيقيّة.

قطع مسافة أخرى فتشعّب المسرب ليغيب في دهاليز مسقوفة كأنها أنفاق، ثم لم يلبث أن تحرّر من السقوف لتسطع الشمس في سماء زرقاء لا تبخل بالفتنة في لونها فتجود بها على المياه النقيّة في البحيرات. في امتداد القاع المكتوم، المتعرّج، نبتت أعشاب البرّ أيضاً لتتسلّق في مسافات تالية السفوح الصارمة المكسوّة بحجارة رمادية مسكونة بروح الأجيال، تتضاءل حيناً وتتواصل أحياناً في جلاميد مهيبة الحجم، أو الواح صلصالية منبسطة، تروي أيضاً نصيباً آخر من ملحمة الأبد التي يتنفّسها المكان، فتحيله حرماً خفيّاً الحضور فيه وحده صلاة!

في أعالي السفوح، في المواقع الأسطورية التي يتخلّى فيها الارتفاع في الرحلة نحو السماء، عن السفوح ليستوي صلداً عنيداً ينتصب مكابراً، وحيداً، مرتدياً مسوح الحداد في الهجرة نحو الفضاء المجهول المغسول أبداً بشعاع الشمس، تخترق جرم الصلد كهوف تبدو من أسفل كأنها أفواه لمخلوقات خرافيّة تتكتّم على أسرار إضافية في كيانٍ عظيمٍ كلّ ركنٍ فيه محبوكٌ من روح الأسرار.

لم يتوقّف المسرب الضئيل عن اختراق هذا الوطن المجهول، ولكنه تمدّد إلى الأمام ملتوياً حيناً، ومستقيماً حيناً آخر، فتستجيب قامات الجبال للنداء على الجانبين لتطرح في السبيل المزيد: الغيران، الأنفاق، البحيرات، الودّان، النبوت، وحتى أشجار الطلح التي تتشبّث بالأسافل حيناً، وتتسلّق السفوح حيناً آخر. على السفوح، وعلى جانبي المسرب الهزيل، شاهد الضِّبَاب تنتصب فوق أنصاب الحجارة المشيّعة في مداخل جحورها باستعلاء كأنها تستغرق في صلاة. والحقّ أن كل شيء في هذا الوطن الجليل ينطق بالصمت ويستغرق في صلاة. الوطن يستغرق في الصلاة، بل الوطن يغذّي الإحساس بأنه لم يكن ليوجد لو لم يولد من رحم الصلاة!

هذا هو الوطن المولود من رحم الصلاة الذي أهدته له الأقدار، كي يصير له المأوى الذي أجاره تالياً من الأشرار، ولم يستضف فيه مخلوقاً واحداً باستثناء إنسان واحد هو: «بسّا»!

فهل يُعقل أن يكون القرين القديم والشريك في المسرّة وفي الألم هو لا سواه من يفشي سرّ وطن الأسرار ويقود إلى الحرم حفنة الأشرار؟

يذكر كيف احتال على الفجوة أيضاً وسدّ فتحتها بلوحٍ حجريّ فقطع بذلك السبيل إلى وطن الصلاة إلى الأبد. فعل

هذا بعد بداية المذابح في نيّة لعزل المكان عن دنيا الصحراء بعد أن دنّستها أقدام القتلة ورووا ترابها الحميم بسيول الدم. استجار بالشقّ فقاده الشقّ إلى الوطن الذي لم يكفل له النجاة من أشباح الشرّ وحسب، ولكن لم يبخل عليه بالقُوت أيضاً. كان يقتات الأعشاب، ويصطاد الضِّباب، ولم يستشعر الحاجة للإيقاع بتيوس الودّان أبداً. لم يكتفِ وطن الصلاة بهذا الجود، ولكن وفّر الغذاء أيضاً للحميمة التي لم يكن ليحتمل الفردوس الموعود نفسه فيما لو بخل عليها الفردوس بالقوت. كانت ناقة اللّه ترتع في أعشاب القيعان، وتتطاول في السفوح أيضاً لتلتقم أعراف الطلح. كان يستطيع أن يمكث في هذه الجنّة إلى الأبد لولا جرثومة الفضول التي تسري في الدم، وكانت السبب في طرد السلف يوماً من وطن الجنان. إنها جرثومة الحنين. حنين الإنسان لملاقاة الإنسان لأخيه الإنسان. الحنين لاستعمال اللسان الذي دفعه للخروج طوعاً، لا غصباً. خرج من جحره إلى الصحراء ظنّاً منه أنها ما زالت صحراء اللّه. ولم يكن ليعترف أنها فقدت بكارتها ولم تعد أرض اللّه منذ اجتاحتها الأفواج الجديدة من أجناد الغزاة. استجاب لوسوسة الفضول فخرج بحثاً عن الجديد في دنيا لم تجُد يوماً بجديد باستثناء جديد البليّة التي لم تأتِ لمن سمعها يوماً إلّا بما لا تُحمد عقباه. تسقّط الأخبار في مراعي الوديان المجاورة لسلسلة الجبال المنيعة التي اعتاد أن يرتادها مع

الأقران زمن الطمأنينة، ولكن هيهات أن يلتقي الرعيان أو يفوز بوجود الأقران في زمنٍ يُصطاد فيه الرجال كما تُصطاد الغزلان. خرج من جحره مراراً، ولكنه لم يصادف في المراعي أناساً، بل أشباحاً. مهاجرون يندفعون كالأطياف في عبورهم إلى المجهول فلا يتوقّفون ولا يلتفتون خوفاً من الأشباح التي تطارد الجميع لا في اليقظة فقط، ولكن في المنام أيضاً. أمّا في الأسفار فصارت الكابوس الذي يرافق الكلّ حتّى أنّهم لا يصدّقون أنهم نجوا من السكّين وبلغوا برّ الأمان. لقد اعترض سبيل هؤلاء مراراً ليسائلهم عن آخر الأنباء، ولكن الأغلبيّة فرّت منه كأنها تفرّ من وباء. والقلّة هي التي بادلته عبارات مقتضبة على عجل قبل أن تواصل فرارها الأبديّ. من هذه القلّة علم بسيرة المفقودين أوّل مرّة. استمرّ في مطاردة الأطياف إلى أن جاء اليوم الذي بعثت له فيه الأقدار بـ«بسّا».

كان ذلك اليوم عيداً بالطبع أفقده صوابه من فرط السعادة إلى حدّ ارتكب فيه الخطأ الذي لا يُغتفر فذهب به ليفتح في وجهه الطلسم الجاثم على مدخل وطن الصلاة، لأنه لم يقرأ حساب الفساد الذي أصاب الزمان فحتّم أن يقع المسكين في أيدي الأبالسة الذين مارسوا في حقّه صنوف التعذيب كي يقودهم إليه. لم يقدهم إلى الفجوة الخفيّة لأنه هو نفسه أضاع السبيل إليها لأنه أدخله ليلاً وخرج به من الحرم فجراً، ولكنه

قادهم إلى المكان كما علم فيما بعد. قادهم إلى مدخل جُحر الضبّ. فرابطوا هناك إلى أن أطلّ برأسه كما يطلّ الضبّ. فألقوا عليه القبض. سلسلوه في الحديد وطرحوه أمام المسخ الكريه الذي أقبلوا في جوفه. كانوا ثلاثة أشباح. أشباح حقيقيّة تصلح بعبعاً لإفزاع الأطفال وحتّى النساء. أكبرهم سنّاً في العقد الخامس أو السادس، نحيل البُنية، عظيم الأنف، شفته السفلى أكبر حجماً من العليا. تتدلّى حتّى تلتهم الذقن الهزيل. يرتدي بزّة عسكريّة باهتة، برأسٍ حاسر مفلفل ومقلة قانية. أمّا البشرة فتلتمع كجلدة الضبّ الهرم من فرط السواد. الأصغر يبدو في العقد الرابع، ضئيل الرأس، قصير القامة، أفطس الأنف، بمنخرين مجوّفين كفوّهتين، ومقلتين مستديرتين محمرّتين أيضاً. الثالث كان بسحنة غريبة، منكرة لعطب في الفم المطبق يتواصل في الأسفل مع الذّقن ليكون منه جزءاً لا يتجزّأ. أمّا الشفة العليا فضئيلة على نحوٍ موجع تلتحق رأساً بالجبين فيبدو الفم كلّه شقّاً ناتئاً منتصباً إلى الأمام كأنه يحاكي هيئة قرد ينوي أن يلتثم في قبلة. سلالات أصيلة لقبائل بامبارا الأشدّ جنوناً في العداء لكل ما متّ للبياض بصلة، لفظتهم أدغال ماوراء نهر «كوكو» بتشجيع من إمام الحقد الفرنسي لكي يقطعوا دابر العرق الأبيض من رحاب قارّة محميّته السوداء.

وقف فوق رأسه كبيرهم صاحب جلد الضبّ. خاطب صاحب الشفة الملزوزة برطانة ليقوم الأخير بدور الترجمان:

- لا نريد أن نضيّع وقتنا ولا ننوي تضييع وقتك أيضاً إن كان لوقت الراعي قيمة. كل ما نريد أن نناله منك هو معلومة لن تكلّفك شيئاً إذا أصدقتنا القول: أين أخفى الوغد ثروتنا التي سرقها قبل أن يذهب إلى الحجّ ليغسل الآثام التي ارتكبها في حقّنا؟

استمع باهتمام، وعندما انتهى صاحب الشفة المضمومة من الترجمة، لم يعرف ما سيفعله بما سمع، لأنه لم يسمع في أذنيه سوى أُحجية حقيقيّة حتى كاد يطلق ضحكة. ولكنه كتم ضحكته لينفي بصريح العبارة علمه بالكنوز وبهويّة الوغد الذي أخفى الكنوز قبل أن يفرّ إلى الحجّ كي يتطهّر من الآثام الناجمة عن جرم الاستيلاء على الكنوز.

لا يعرف لماذا تبدّت له سحنة كبيرهم بأنفه الجسيم، وشفته السفلى المعلّقة كجحفلة البعير، خيالاً لفظه قبر. كان يشبه الموتى على نحوٍ مدهش. حدّق فيه طويلاً بعينيه الداميتين قبل أن يلتفت إلى الشبح الثالث، الأصغر، الأقصر قامة، ليرطن في وجهه بعبارة. وثب الشبح الأصغر نحو المطيّة المسخ التي أقبلوا على متنها ليستخرج من جوفها بندقية قصيرة، سوداء، فتّاكة يقيناً، قدّمها لكبيرهم الذي تناولها ليقدّمها بدوره إلى رفيقهما الثالث مشفوعةً برطانة مجهولة. تناول الثالث البندقية الشرهة وتراجع خطوات. ركع باليمنى، في حين اتّكأ بالمرفق على ركبته اليسرى ليصوّب. صوّب في

وقتٍ كانت فيه الشمس قد استقرّت عالياً في سماءٍ مغسولة من السحب كأنّ العراء من الغيم كان في ناموسها رسالة عهد. فرآها في تلك اللحظة كما لم يرها أبداً. رآها فاتنة، حميمة، وديعة، رؤوم، متسامحة، و... بهيّة! بهيّة على نحوٍ أليم؛ فاشتعل بإحساس طاغٍ، ليس حنيناً، ليس عشقاً، ليس وَجْدَاً، ليس توقاً، ليس شيئاً ممّا يمكن التعبير عنه. خليط من ندم، ومن حاجة لغفران، ومن رغبة في نصيب ولو ضئيل من أَجَلٍ يتيح له فرصة استبقاء التجلّي الذي كشف له في تلك اللحظة عن وجود معجزة في الدنيا لم يهتدِ لها إلّا في تلك اللحظة: معجزة وجود شمس هي سبيكة ذهب، تتصدّر سماء عميقة، زرقاء، ذات بيان لم يقف له على معنى إلّا في تلك اللحظة. كان...

كان كما لم يكن في دنياه يوماً. كان سعيداً كما لم يكن يوماً. كان يحلّق ليلتحق في الطريق نحو السماء بالبُعْد الذي لم يدركه يوماً. فهل يُعقل أن يكون الموت بهذا الجمال؟ هل يُعقل أن يحقّق الموت المحال؟

ولكن..

ولكن حبل المحال انقطع فجأة فهوَى. هوى إلى الأرض لأن الطلقة التي انتظرها لتحرّره فيتماهى مع الحلم المفقود، فيتماهى مع البعد المفقود، لم تنطلق. استشعر خيبة استفزّت في مقلته دمعة. دمعة حارّة، بل حارقة، اكتوت بنارها المقلة.

هوى أرضاً فسمع لغواً. كان شبح القبور يلوك في فمه رطانة. وكان الترجمان يتولّى نقل الأمانة:

ـ هل تنكر أنّك كنت أقرب الناس إلى الفقيه؟

ابتسم. كان يضحك بقلبه عندما ابتسم. استنكر:

ـ وهل يعترف الفقهاء بقرب الناس إليهم، أو قربهم من الناس، إذا كان اللّه هو قريبهم الأقرب من كل قريب؟

لفظ سليل القبور الكلمة كبصقة ليتولّى الترجمان نقلها كبصقة:

ـ لا تتفقّه!

لا يعرف لماذا استثارته هذه البصقة فقرّر أن يسخر من الأوغاد كما سخر منه الأوغاد. البصقة أحيَت فيه روح السخرية، لأن ما يليق بالوضع كبصقة هو استخدام البصقة. إذا كان قد عاش الأوهام التي لم تكن في دنياه سوى بصقة، وإلّا لما انتهت إلى هذه البصقة، متجاهلاً وجود سماء زرقاء ووجود شمس صفراء في المدى، فلن يلومه أحد الآن إذا عالج الأمر ببصقة ما دام الأمر من البداية إلى النهاية ما هو إلّا بصقة في بصقة!

استعاد حضوره في حضيض البصقة ودحرج في فمه اللعاب استعداداً للفظ البصقة:

ـ سأعترف الآن. . .

قام الترجمان بنقل الرسالة فهلّل شبح القبور وبرطم برطانة لم ينتظر ترجمتها. أضاف:

ـ سأدلّكم على موقع الذهب الذي حدّثني به الفقيه!

نقل الترجمان العبارة فحرّروا يديه. نهض واقفاً وسار بهم نحو الخندق. نحو الفجوة المفضية إلى المتاهة. تعجّبوا وهم يلجون ذلك الشقّ الذي يستحيل ملاحظته عن بُعد. عَبَرَ بهم المسارب، ثمّ الأنفاق، ثمّ الغيران، فاطمأنّوا إلى المكان وقالوا إنه المستودع المناسب حقّاً لإخفاء الكنوز ولا شكّ أن حاج النّحس كان يتعامل مع الجنّ وإلّا لما استطاع أن يهتدي إلى هذا المكان، كما نقل له الترجمان حرفياً. كانوا سعداء لأن جلال المكان الذي لم يكن سوى الكنز الحقيقي أوْحَى لهم بوجود الكنز المزعوم يقيناً، لأنه إن لم يوجد هنا، فلن يوجد في أيّ مكان. سلك بهم المسارب الملتوية، وصعد السفوح الوعرة، وعبر الأنفاق الخرافيّة في مسيرة استغرقت زمناً فقدوا فيه الإحساس بالزمن، في طبيعة لا تعترف بالزمن بدليل استواء الليل والنهار في رحابها. عَبَرَ وعَبَرَ وعَبَر مستغلّاً المسّ الذي يسكن كل إنسان مهووس بالكنوز فيصاب بعماء البصيرة إلى جانب عماء البصر. هيمنت الظلمات، ولكن حبل السرّة لم ينقطع. انقطعت في صدورهم الأنفاس، ولكن حبل السبيل لم ينقطع. استودعهم أحد الكهوف وانحرف في ركنٍ ليقضي حاجته.

وكان ذلك الركن آخر عهده بهم، أو بالأصحّ، آخر عهدهم به!

انسلّ من هناك عائداً إلى أن بلغ موقع ناقة اللّه في قاع أحد المسارب السرّية. توّجها بالزمام وقادها عبر المسارب. أعانها في عبور المضيق المعجز مع اختطاط الفجر لآيته في قوس الأفق.

ربت على صدغيها بحنان كما اعتاد أن يفعل كلّما أراد أن يناجيها. التمسيد على الوجه كلمة السرّ في ترجمة النوايا الخبيئة. اللمسات التي تنتهي باحتواء الوجه بين الذراعين لإسماعها البلاغ الذي تتحدّث به دقّات القلب! إنها اللغة الوحيدة لاستدعاء روح المعبودة التي نصّبت ناقة اللّه التي لا تُدرك إذا انطلقت في رحلة الخلاص، لأنها حينئذٍ فقط تستطيع أن تستعير أجنحةً خرافيّةً خفيّة تعينها على السباحة بين السماء والأرض بسرعة الشُّهُب التي تخترق الفضاء، من حدوده القصوى حتّى حدوده الدنيا، في غمضة!

القسم الثالث

1 ـ الطّلَب

كان مضحكاً كيف كانت تجتنب العشب: تعترض سبيلها المساحات الخضراء كلّما هَوَت الأرض سواء في الأخاديد المنحدرة من السفوح الرمليّة التي تسلكها مياه الأمطار، أو القيعان السفلى حيث تستقرّ المياه قبل أن تبتلعها الوعوثة، فتكون هذه البقع حقولاً خصبة للنّبوت في الربيع الخاطف المحكوم بمشيئة طبيعة شحيحة متقلّبة المزاج، في حين يتسامح مناخ المكان مع أشجار الطلح وحدها التي تتناثر في كل أركان الصحراء، لا تعترف بأحكام الفصول في احتفاظها بنضارة خارقة، خالدة. وكلّ ما تغتنمه من هبات الطبيعة في المواسم التي تجود فيها بالأمطار العابرة هو الزهور التي تتوّج أعرافها المكابرة الصامدة في وجه الجفاف الأبدي الذي لا يلين ليجود بقطرات إلّا استثناءً. في مواجهة هذا البذخ المغري في أشجارِ الطلح كانت الجنّية تحجم في مسيرها فجأة وتتوقّف على بُعد خطوات. تتجمع آثار أخفافها على الأرض لتصارع الشهوة. الشهوة لا إلى الأوراق اليانعة، أو للزهور

الفاتنة، ولكن الشهوة الطاغية إلى الصمغ المعسول الألذ من كل شيء في حشائش الصحراء الذي ينفثه الطلح وحده من بين كل الأشجار. ومقاومة هذا الإغواء في تلك الرحلة هو البطولة التي عليه أن يعترف لها بها إلى جانب كل المآثر الأخرى. ففي المواقع المعشوشبة كانت تنحرف من مسافة مناسبة إلى الناحية الأخرى كأنها تشيح بوجهها عن الغنيمة في عفافٍ تلقائي، ولكن الوقفات في حضرة الشهد المترف المعلّق في أعراف الطلح هو التحدّي الذي لا تتخلّى عنه بدون صراع، بدون تضحيات، لأن نداء الواجب فيها كان ينتصر. لأن نداء الوطن الذي يوسوس في الوجدان كان أقوى، لأن السباق مع الزمن جلّادٌ لا يرحم بالنسبة لمخلوقٍ يدري أنه مطارد، وعليه أن يستغلّ كل غمضة في سيرة الفرار المحموم، وإلّا فإن القيد سوف يوقعه في الأسر من جديد ليعيده إلى الوراء، إلى نقطة البدء التي انطلق منها، ليغدو الوطن حلماً بعيد المنال كما كان.

قصص كثيرة ردّدها رواة القبائل عن طباع الإبل في الحنين إلى الوطن، ولكنّه لم يتخيّل هذا الجنون إلّا يوم تنكّرت له على مشارف الحمادة عندما حاول أن يعيدها إلى صوابها، فهاجمته في نيّة لسحقه تحت الكلكل. وعليه أن يعترف أنها لقّنته درساً في التوق إلى الوطن وهو الذي تغنّى بهذا المعبود المبهم حتّى في الزمن الذي لم يُحرم فيه هذا الفردوس،

فكيف في زمن المحنة التي فَقَد بسببها هذا الفردوس الذي لم يعلم أنه فردوس إلّا بعد إضاعة الفردوس، كما هي الحال دوماً مع كل فردوس؟

فالوطن هو الأحجية العصيّة التي لم يجد لها تفسيراً. فالأرض هنا أيضاً صحراء. الأرض هنا أيضاً تربة حميمة، والامتداد يُغنِّي في فراره إلى كل الأركان. الفرار الذي ينفي في طريقه كل شيء ولا يعترف في تفانيه بغير الامتلاء. امتلاء مجدوح بالإيحاء، ليوقظ فينا، بهذه الصفقة الغامضة، الإحساس الحميم، الإحساس الحكيم، الإحساس الأليم، الذي لم يجد الدهاة ما يسمّونه به سوى الحريّة. ليس هذا وحسب، ولكن السماء هنا ايضاً تحاكي معشوقتها الصحراء فتتعرّى، تماماً كما في صحاري «آير» أو «آضاغ»، أو في البرزخ الواقع بينهما، حيث لفظه المجهول ولقّنه كلمة السرّ قائلاً بلغة المجهول: «هذا وطنك! جسدك مشدودٌ إلى جسده، لأنه ملفّق من جسده؛ وروحك مشدودة إلى روحه، لأنها مستعارة من روحه! فالويل ثم الويل لمن سوّلت له نفسه أن يتنكّر لوطنه!».

استوعب الدرس وأخلص للوصيّة إلى أن جاء القتلة الذين بخلوا على الحكيم «بولّا» بوطنٍ اسمه «تينبكتو» لمجرّد أن الغزاة ذوي العيون الزرق شطبوا تينبكتو من خرائطهم المشؤومة فشطبها أخلافهم من سلالات الأدغال من ذاكرة

الأجيال ظنّاً منهم أن الوطن هو ما يمكن أن يُستعار أو ما يمكن أن يوهب بالمجّان.

فالسماء هنا أيضاً زرقاء. السماء هنا ممهورة ببصمة سبيكة الأعجوبة. السماء هنا أيضاً صفاءٌ في النهار بقدر ما هي احتفاء بالليل. خطاب صموت، ولكنه ناطق بقدر ما هو صموت. الليل محفل المجهول الذي تتحاور فيه كائنات البعد المفقود ببيان الإيماء المبثوث في حرف النور. السماء هنا أيضاً عمق بلا قاع تماماً كما في صحاري الجنوب.

عمقٌ محتجب عادةً، ولكن فوهة البندقية في تلك المرّة مزّقت هذا الحجاب فانطلق ليرتاد أعماق ذلك القاع حتّى وقف قاب قوسين أو أدنى من الطلسم الذي أحسّه دوماً، ولكنه لم يفهمه أبداً. شعرة فقط حالت بينه وبين السرّ، ولكن الغلالة لم تنقشع نهائياً لأن الرصاصة في الفوهة لم تنطلق. كان على يقين أن الغلالة ستتلاشى فيما لو انطلقت الطلقة. كم تمنّى لحظتها أن تكمل الفوهة معروفها فتلفظ الرصاصة من جوفها. غياب الرصاصة خلّف في الروح مرارة، خيبة، بهجة لم تكتمل. حتّى أنه لا يستطيع أن يصفها كلّما تذكّرها إلّا بأنها ردّة!

كانت اللحظة وقفة أمام باب الخلاص. أمام الفرار. أمام بوابة الجنّة التي يتحدّث عنها الفقيه آناء الليل وأطراف النهار. ولكن خيبة الفوهة أفسدت كل شيء. خيبة الفوهة كانت ردّة.

ولكن العمق المخفي وراء الأحجبة هو المشكلة في هوية الصحاري. فدوماً يبقى البعد المفقود في صفقة الصحاري سيّداً. دوماً يوجد الوسواس الذي لا يملّ عادة من أن يذكّر بحرف الوصيّة: «هنا وطنك! جسدك مشدود إلى جسده، لأنه ملفّق من جسده! وروحك مشدودة إلى روحه، لأنها مستعارة من روحه! فالويل ثمّ الويل لمن سوّلت له نفسه أن يتنكّر لوطنه!». فكلّ ذرّة تراب تلهج في أذن الغريب بهذه الأهزوجة، وكل إيماءة في نجوم الليل تتغنّى بهذه الأنشودة. ذرّة تراب الوطن تتغنّى لتستدعي، وإيماءة النجوم في ليل الأغراب تتغنّى لتطرد. فكيف يلوم المسكينة إذا قطّعت الأغلال فتهبّ لتلبية النّداء وهو الذي احترق، كما احترقت، بهذا الدّاء؟

الواقع أنه هو المذنب في كل ما حدث. فهو مَن انشغل عنها فلم يناجِها بما يكفي ليعزّيها في محنتهما المشتركة، وليشرح لها أنهما لم يفرّا من الوطن لمجرّد طلب النجاة من بلاء الوطن، ولكن لإنقاذ الوطن. فالمهاجرون لا يهجرون الأوطان لكي يتنكّروا للأوطان، ولكنهم يغتربون لكي يجيروا الأوطان. يغتربون لكي يخلّصوا الأوطان.

هو على يقين أنها ستجد له مبرّراً فيما لو وجد الوقت الكافي كي يفهمها باللغة التي تفهمها. بلغة القلب. بلغة الوشوشة التي تختلط فيها العبارة باللمسة. بلغة الهدهدة التي

تتقاطع فيها اللحون مع الشجون. فمتى آخر مرّة رتّلا صلاتهما معاً؟ متى غنّى لها آخر مرّة؟ بل متى داعبها آخر مرّة؟

ليس له إلّا أن يعترف بأن القطعان والأقران وشؤون كل يوم هو ما شغله عنها فأجرم في حقّها. بل لماذا لا يعترف بالحقيقة فيقول ببساطة أنّه... هجرها؟

بلى! لقد هجرها. هجرها فأضاف همّاً آخر إلى همّ غياب الوطن. وعليه الآن أن يبحث عن سبيل لاستعادة ثقتها. عن سبيل لنيل غفرانها.

نذر أن يعزّيها ما إن يظفر بها!

2 ـ المخاض

قُبيل المساء في مسيرة اليوم الثاني أدرك أثراً بكراً لم تخترقه آثار كائنات الليل كالخنافس أو الفئران، كما في المراحل السالفة. هنا خلّفت وراءها بعراً طريّاً أيضاً. قبيل حلول غيهب الغروب عثر على أثر الحفيرة حيث جثمت لتقضي ليلتها بجوار شجرة بريّة يابسة تتشبّث بحضيض سيف رمليّ هزيل، يضع حدّاً للمتاهة الرمليّة العنيدة الواقعة بين الصحراء الشمالية الحجريّة ومثيلتها في الجنوب، ليشرف على سهل فسيح يستلقي كشريط خرافي سخيّ ينتهي بمشهد خرافيّ: في الامتداد المزموم المتّجه جنوباً تبدّت القمم الجبليّة المسطّحة الشعاف بلونها النحاسي الحميم، مقنّعةً بغلالة شفّافة، تستنزل الصحراء ستورها دوماً لتستزرع فتنةً خفيّة في الصلد ليتحوّل، عن بعد، أغنية شجن!

أناخ بعيره واستنزل متاعه أيضاً ناوياً المبيت في ذات الموقع الذي اختارته لقضاء ليلتها، أو ربّما شطراً من ليلتها، لأن عجلتها لا تنبئ بقدرتها على احتمال البقاء ليلة كاملة رهن

المكان حتّى لو نال منها السباق الجنوني مع نفسها برغم ثقل الوزر الذي تحمله في بطنها.

تناول بضع حبات تمر، وقَدَرَاً من الماء، ثم هجع. ناشد النجوم لحظات، كما اعتاد دوماً، قبل أن يستسلم للسكون المميت ليجد نفسه، بعد قليل، امتداداً للسكون، فلم يعِ كيف سكنه السكون ليسري في التراب اللميس، أو يسري فيه التراب اللميس، فيمتطي صهوة المعراج ليقطف النجوم...

استيقظ في قلب الظلام فحمّل الجمل متاعه المتواضع وانطلق يقود الجمل حافياً ليستقي من الأرض أكبر نصيب من ذخيرة الليل. من الإلهام. من السلام. مِنْ ما لا سبيل للتعبير عنه، لأنه... لا اسم له...

تتبّع الأثر مؤمّلاً قرب الميعاد. ولولا آثار البارحة لما اطمأنّ ولما بات الليل. ذلك أن المنفذ المؤدّي إلى الحدود لم يعد ببعيد. ليلة أخرى ونصف ليلة كفيلة بعبورها الحدّ والوقوع فريسة في فوّهات الأبالسة التي ترابط هناك.

توقّف فجأة. انحنى فوق الأثر. توضّح المكان ليكتشف كيف جثمت من جديد. وهو في وضعها عجب. كم استغرقت وقعتها تلك؟ هل لالتقاط الأنفاس؟ أي أنفاس إذا كانت قد قضت ليلتها على بُعد خطوات؟ أم... أم أن السبب ليس الأنفاس، ولكنه... النّفاس؟

هل داهمها المخاض؟

لم يقطع مسافة طويلة في أثرها حتّى أيقن بأنه المخاض حقّاً. كانت تجرّ السيقان على الأرض جرّاً. وهو ما يعني أنها لم تركن إلى الأرض البارحة لتقضي ليلاً، ولكن بسبب المخاض.

المسكينةَ!

أراد أن يُعينها على بليّتها فارتكب في حقّها آثاماً. استجاب لوصيّة شبح الفيافي في شأن العِقال، فخان العهد المبرم معها بدم الروح لا بدم الجسد ليزيدها بليّة إلى جانب البليّة. لماذا لا يعترف الآن أن ما فعله من أجلها لم يفعله من أجلها هي، ولكن من أجله هو؟ لماذا لا يقرّ بأنّه كان يمارس تدليساً معيباً في كل ما فعله لاستبقائها لا خوفاً عليها من بنادق الأبالسة، أو أنصال السكاكين، ولكن لأنه لا يقدر على فراقها. لأن الوطن المفقود لم يصبح وطناً مستعاداً إلّا بوجودها، لأنها هي التجسيد لروح الوطن، بقدر ما هي التجسيد للبلاء الذي أحاق بالوطن؟ ألَا يعني هذا أنه لا يحبّ ناقة اللّه كما يجب أن يفعل، ولكنه إنّما يحبّ نفسه في ناقة اللّه؟

3 ـ نزيف الروح

قبل انقضاء الوعوثة وابتداء الفضاء المسطّح، الفاصل بين الصحراء الرملية والسلسلة الجبلية، لفظت من جوفها العبء. في الموقع الذي انكسر فيه استكبار السيوف الرملية لتنساب الأرض نحو الوادي السمح، الشاسع، كأنه سهل مخنوق الأنفاس بين الامتدادين المرتفعين فيبدوان كخصمين خالدين، في هذا البرزخ الموسوم بالتجاعيد التي اختطّتها الرياح بروح الفكاهة، ركعت الشقيّة بساقيها الأماميّتين وشرعت تزحف زحفاً. زحفت مسافة شاقّة وهي تعارك الذريّة التي تتململ في بطنها كي تعلن عن نفسها، وبين الحريق الذي يدفع لأن تفرّ لا من الأرض وحدها، ولكن من نفسها أيضاً!

حرثت الأرض. شقّت في الغضون سبيلاً في عراكها مع الوزر الذي كان يجب أن يكون لها خلاصاً، كما ادّعى العابر، فإذا به يتحوّل وتداً لا تملك الحيلة فتذعن له، ولم تؤتَ الإرادة فتضحّي في سبيله بالنداء.

كان العناد المترجم في حرف الزحف نزيفاً؛ نزيفاً يهون إلى جانبه نزيف المخاض الذي ارتوى منه التراب، لأنه نزيف

جسد. النزيف المبثوث في الاستماتة كان النزيف الذي لم يكن ليخفى عنه. كان نزيف المكلومين الذين لا يملكون للخلاص من الكابوس سبيلاً. نزيف المغدورين الذين لا يملكون للقصاص الظالم دفعاً. نزيف المغلوبين المحكوم عليهم مسبقاً، بل وغيابياً، بتهمة مجهولة، بتهمة غيابية، وعليهم أن يمتثلوا ويسيروا إلى المقصلة معصوبي الأعين، مكمّمي الأفواه، لئلّا يوجّهوا السؤال الذي سيحرج القدر عن سبب الحكم الجائر الذي يبيح حرمان الأبرياء من شيء لا يختلف عن حقّ استنشاق الهواء وهو: المقام في جنّة اسمها الوطن!

إنه نزيف الروح؛ لأن الحنين إلى الوطن وحده لا يعترف بغير الروح نصيراً، ولا بغير الأناشيد عزاءً. ولولا لحون الأشجان التي اعتاد أن يترنّم بها ليهوّن عليها مصابهما المشترك للفظ هو نفسه الأنفاس، قبل أن تلفظ هي بين يديه الأنفاس. وها هو الآن يستميت لالتقاط الأنفاس وهو يقرأ في آثارها كيف تحشرج لالتقاط الأنفاس في عراكها مع الجرثومة اللعينة التي تتململ في بطنها، فلا يستطيع أن يغفر لنفسه ارتكابه لإثم استيداعها في بطنها. وها هو الآن يختنق بالغصّة أيضاً وينزف نزيف الروح الأدهى من كل نزيف، لأن ترياقه لا من عين رأت، ولا من أذن سمعت، ولا ممّا يخطر بقلب بشر، لأنه الحريّة التي لا يكون فيها الوطن فردوساً إلّا لأنه المعراج الذي يقود إلى وطن اللّه.

4 ــ القربان

لفظت العبء أخيراً. آثار الدم على التراب وخيوط المخاط تختطّ في أرض اللّه الواسعة آية الميلاد. آية الخلاص. آية خلاص لقطب، وآية شرك لقطب. ولكن المسيرة التالية دلّلت على وجود أحجية جديدة في سيرة الميلاد. فالأمّ التي لفظت الجنين بعد استبسال كي تنال الخلاص ما لبثت أن وجدت نفسها مغلولة بالتحرّر من العبء أكثر ممّا كانت مغلولةً بالجنين عندما كان دسيسةً في جوفها، لأن الميلاد كان انقساماً إلى شطرين ليسا منفصلين تماماً، ولكنهما مشدودان بوثاق سرّي أقوى من حبل السرّة بما لا يقاس، وورطتهما لا تضعف بالانشطار، الذي يجب أن يكون خلاصاً من حِمْل، ولكنها تضاعف الشراكة بين القطبين بحبل الغيوب الأمتن من أغلال الحديد: **حبل الأمومة!**

هذا ما كشفت عنه آثار الرحلة في مرحلتها التالية، وهو ما أفقد الأمّ الشقيّة صوابها وهي التي راهنت على صفقة تنال بموجبها الحرية مقابل أن تدفع المولود إلى الوجود، لتكتشف

أن الغيوب خدعتها، لأن الكائن الهشّ الذي احتلّ لنفسه مكاناً في الصحراء، لم يكن كياناً منفصلاً عنها، ولكنه الجزء الذي لا يتجزّأ منها: فأي لغز هذا الذي تتخلّص فيه من عبء لتجد أن التخلّص من هذا العبء أوقعها في أوحال عبء أسوأ؟

في البداية حامت حول الوليد المتعثّر، الذي ورث الوهن عن الأمّ كما قرأ في صحف الأثر. يخطو خطوة، خطوتين، ثم يترنّح ويسقط كما سجّل قلم الأثر. وكانت تحوم حوله بجنون المخلوق الذي يتوثّب للفرار بفعل الحريق، كما كشف الأثر أيضاً. استمر هذا العراك طوال الرقعة الرمليّة وتواصل في البرزخ الذي استلمت فيه الصحراء الطينية المدكوكة زمام الأمر. في السهل المحصور بين المملكتين الصحراويتين (الرمليّة والحجريّة) انتصبت أشجار الطلح هنا وهناك. تحت شجرة تقع في حرف البرزخ توقّف لتجيره من قسوة الشمس، كما خمّن. كان الأثر جليّاً وبريئاً من انتهاكات كائنات الليل ممّا يقطع بأن المسافة التي تفصله عنها قد ضاقت ليوم فقط، أو يوم ونصف اليوم. وهو ما يعني أن العبء الذي أخفق في أن يكون للممسوسة عقالاً وهو في بطنها، قد استطاع أن يعرقل مسيرها ليكون لها عقالاً بانفصاله عنها!

كان طوال المطاردة يعتصم بترديد التعاويذ الموروثة التي تعلّمها من الأم ضدّ أعدى أعداء الأثر في الصحراء: الريح!

وها هو يهتمل بها هذه المرّة أيضاً كي لا يفسد في غمضة ما حقّقه في مسيرة أيام.

لم يقطع مسافة طويلة تالياً عندما جُنَّ جنون الأمّ. كانت تحاول تعجيل خُطى الوليد ليلتحق بركابها، ولكن هيهات! تقطع مسافة ثم تعود على عقبيها لتحثّ الحوار على المشي. وكان المسكين يجاهد للحاق بها، ولكن الهشاشة كانت في البُنْيَة أقوى. ها هي الآثار تروي سيرة السقوط المكرور. وسيرة محاولات الأمّ المستميتة في دفعه بالقوّة، لأن النداء الأليم فيها كان أقوى حتى من نداء الأمومة. استمرّ الكرّ والفرّ تالياً. بلغ الذروة في قلب السهل، لأن الآثار على الأرض صوّرت موقع مربد حقيقي. كفاح محموم لتحدّي الطبيعة. كفاح جنوني لانتزاع معجزة.

انتابته قشعريرة تشاءم منها. ولكن الحدس كان أعظم شأناً من الإحساس، لأن الغريزة أقوى من المنطق... ففي المسافة التالية وجد البرهان مجسّداً. كان الحوار الهشّ مطروحاً على أرض مفروشة بالحصباء، مهشّماً، دامياً، بفم مفتوح يسيل منه لعاب لزج، وبعينين وديعتين ناطقتين بإيماء كأنه استفهام موجّه إلى السماء، أو إلى القرص الذهبي الذي كان معبود الأوائل المهيمن في قلب السماء.

بدأ يرتجف. كان ينزف عندما تفقّد البدن الهشّ، المهشّم الأطراف، فلم يصدّق: لقد دكّته على الطين المدكوك دكّاً.

سحقته بلا رحمة كي تصنع القطيعة وتقطع حبل الذلّ الأقوى ألف ألف مرّة من حبل السرّة.

ركع فوق القربان، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بيديه الممدودتين، الراجفتين، المعلّقتين فوق الجثمان الهزيل. أطلق شهقة موجعة قبل أن يرفع رأسه ليلاحق الأفق المزموم، القاسي، الممدود إلى الأبد، فيبصر شبحاً تتلاعب به لجج السراب، فيبدو معلّقاً في برزخ بين السماء والأرض، كأنّه حقّاً طائر يخترق الفضاء، مرفرفاً بجناحين خرافيّين!

القسم الرابع

1 ـ القارعة

لم يعد أسيس من تلك الرحلة كما ذهب. لم يعد من تلك الرحلة كما عاد من أيّ رحلة. لم يعد من تلك الرحلة كما ذهب حتى إلى رحلة الميلاد الثاني عندما وقف أمام بوّابة المحال، لحظة مواجهة الفوّهة. . . فوهة البندقيّة!

ففي بُعْدٍ مّا، بُعْدٍ مجهول، ليس القلب، وليس الوجدان، وليس أي شيء له اسم، انكسر جوهر نفيس، ليقرع في هذا البُعد البعيد، ناقوس الخطر.

لن ينسى كيف لاحقها، ولا كيف أدركها قبل أن تنفذ من منفذ الحدود المشؤوم حيث يرابط الأبالسة، ولا كيف استعادها قبل أن تقع بين أيديهم، ولا المباراة الحامية بينهما وهي تلفظ الزَّبَد، وتتحمّم بالعرق، وترفس بأرجلها، وتنوح، لأنها لم تعد تطيق الحريق الذي يشتعل في قلبها. بذل جهداً بطوليّاً لترويضها؛ جهداً لم يكن ليكلّل بالفوز لو لم يستعن باللحون. بلى! صبّ في أذنها لحوناً شجنيّة. لحوناً شجيّة،

من النوع المسخّر لمداواة داء الأدواء كلّها الملقّب في لغة القوم بـ: الحنين!

اللحون هوّنت الوجع، ولكنها لم تقطع دابر الدّاء. هدأت ولكن عينيها سالتا بدمعٍ سخيّ. ظلّت تبكي طوال طريق العودة وتدمدم بذلك الصوت الذي لا يُطاق. الصوت الذي لا يسمعه دون أن ينزف في البعد المفقود، فينفّس الغصص أيضاً بالدمع الغزير دون أن يدري. في طريق تلك العودة شاء أن يطفئ لهيبها بسيرة؛ سيرة كان قد وعدها بسردها منذ زمن، ولكنه كان يرجيء السرد كل مرّة منتحلاً لنفسه أعذاراً لم يعدمها يوماً. ولكن هول الحدث هذه المرّة كان صاحب الفضل في استجواب الذاكرة لتلملم أطراف السيرة المروية يوماً بلسان العمّ المفقود. العمّ الذي لم يكن ليكون مفقوداً، لو لم يغدُ في الواقع فقيداً. وما كلمة «مفقود» التي اختلقتها سلطات القتلة، سوى كلمة «فقيد» في واقع أناسٍ ظامئين لتعزيةٍ تكون عوناً لاحتمال البليّة.

ما انكسر في تلك الرحلة لم يكن جوهراً مجهولاً وحسب، ولكنّه كان انقطاعاً فاجعاً للوتر المزموم. كان انقطاعاً للوتر الذي لا يفلح الوجدان بدون عونه في إطلاق عنان المعزوفة؛ المعزوفة التي قارعها طوال المحنة، بل وقبل حلول المحنة، لتكون له ترياق الحنين. ذلك أن الحنين لم يكن منزلة وحيدة في أنشودة السلالة، ولكنه كان **منازل**.

فالمنزلة الأولى كانت جرثومة سرت في الدم ليستشعرها وسوسةً خفيّةً بقدر ما هي حقيقية دون أن يدرك لها سبباً. والمنزلة الثانية غنيمة الوجدان التي تسكن بعيداً فتستعر بسلطان الألحان. أمّا المنزلة الأخيرة فهي الأكثر عصياناً، لأن الحرمان من الأوطان هو إمام البلايا الذي لا يملك المحرومين له ترياقاً. غصص مركّب في سلسلة بثلاث عقد تتدافع في أعماق بئرٍ بلا قاع.

في طريق العودة توقّف في قلب الوادي المنثور بالطلح وهو ما زال يغالب نزيفه. أناخ البعير وحرّره من المتاع، ولكن حسناء الزمان ترفّعت باستكبار. حام حولها كطفل يعاند دمية. يمسّد جيدها الضامر كأنه جيد غزالة، ويداعب الساقين بلمسات مسكونة حناناً، يحتضن الرأس المستنفر المحموم بالهمّ، إلى أن يختتم المناجاة بترنيمة شجن. كان كل شيء ما زال مبلبلاً ومزموماً، ولكن البلبال لم يَحُل دون أن يحتفي. يحتفي بعودة السليلة الضالّة من المنفى. عودة السليلة الضالّة من المنفى إلى المنفى! جاس في أصول الطلح ليقتلع الحطب. أشعل ناراً فاتنة، ثم عاث في المتاع بحثاً عن المؤونة. عجن دقيقاً ودسّه في أحشاء التراب المفروش بالجمر. قام إلى المتاع ليستخرج من الجراب حفنة شعير. ذهب بها إلى حسناء الزمان المنتصبة بالجوار وهي تتوثّب توقاً إلى الحُلم. حاول أن يطعمها حفنة الشعير من يديه، ولكنها

استكبرت وأشاحت عنه بوجهها في استنكار. لم يكن عسيراً أن يلاحظ كيف كانت ترتجف برغم ستور الظلمات الزاحفة على الدنيا. قارعها بالتمتمات المبهمة كأنها تراتيل جنونيّة مجهولة، كما اعتاد أن يفعل ليهوّن عليها كلّما داهمتها نوبة كآبة زمن السّلْم السعيد. عاد يعاند فيها العناد حتّى أناخها بجوار النار. فلا جوار بلا نار، ولا حوار بلا جوار. فكم هي خائبة تلك الرحلة التي لا تنتهي بالتئامٍ حول النار. فالكلّ فراشات إذا تعلّق الأمر باللهفة إلى النار!

انتعش لسان النار باللهفة إلى النار! فركن إلى الأرض مستسلماً لإغواء النار. ربت على جرم الشقيّة المسكونة بالأشجان. المسكونة بالأحزان. استدرج رقبتها بحذر إلى أن تنازلت فسلّمته رأسها، كأنها انتوت أخيراً أن تسلّمه زمام أمرها كلّه. في مقلتيها الحجلاوين الهائلتين نَطَقَ الهمُّ. هَمهَمَ بلحنٍ شجنيّ قديم دون أن تتوقّف أنامله عن العزف على وجنتيها. كان النّغم المكتوم مجرّد حيلة لاقتحام بوّابة السيرة الثقيلة الخالية من الأشعار.

كانت الشقيّة ما تزال تجترح آلامها بين يديه عندما طرح سؤالاً:

«هل تتوهّمين، أيّتها الحمقاء، أنني أعترض سبيلك خوفاً من بنادق الأوباش التي ترابط على الحدود، أو سكاكين الأشباح التي تسرح في صحرائنا المفقودة؟ هل تحسبين أنّنا

فررنا من القيامة بتلك الأعجوبة للقيام في صحراء الشمال بنزهة كما فعلنا مراراً بين صحاري آهجّار وآير، أو بين آير وآضاغ، سنوات السلم التي ظنّنا أنها ستدوم إلى الأبد؟ هل تظنّين أن الأهوال التي أحاقت بنا هي كل شيء في البليّة التي حلّت بنا؟ هل تظنّين أن مسوخ الزواحف التي داهمت مراعي الجوار في أحد الأيام لتسحق قطعان الإبل هي كل شيء؟ هل تتوهّمين أن مشهد الجمل الجميل الذي يتوثّب بساقيه الأماميّتين مغالباً البطن المبقورة التي تلفظ الأمعاء بفعل سلاسل الآلة الزاحفة هو كل شيء في المهزلة الوحشية؟ أم أنكِ تتخيّلين أن الأبقار القتيلة ببنادق الأجناد، وأشلاء بقيّة الأنعام المطروحة في الخلوات بفعل متفجّرات الشرّ هي كل شيء في اللعب الشرّير؟ أم أنك على يقين أن اصطياد أهل الصحراء في الخلوات ومطاردتهم كالطرائد بالنار، أو القبض على الصغار والنساء وحشرهم في قماقم الحبوس، هو المزحة الجنونية الوحيدة في حقّ أبناء النجوع الأبرياء؟ كلّا، ثمّ كلّا! في صحرائنا المنكوبة وُجِدَ ما هو اسوأ من البنادق، ومن السكاكين، ومن زواحف المسوخ، ومن جنون الأشباح، أيّتها الحمقاء! من حقّكِ بالطبع أن تظنّي أن ما حدث هو كل البلاء، ولكن الأنباء التي هبّت على أرباعنا من آهجّار حملت لنا شرّاً أسوأ ألف مرّة من الشرور التي كنّا لها في ديارنا شهود عيان أيتها البلهاء! إنها الزلزلة المريبة التي تهامست بها الألسن

في البداية همساً، قبل أن تصرّح بها القبائل جهراً في النهاية. ففي «إينيكير» استيقظت القبائل هناك على هزّة خرافية لم تعرف لها الصحراء مثيلاً. هزّة لم تتزعزع فيها الأرض ككل زلزلة، ولكن وقعها الخفيّ في نفوس الناس كان أسوأ من مفعولها في الأرض كأنّ الخطر فيها كان رسالة موجّهة للغز المخفيّ فينا المسمّى روحاً، لا رسالة موجّهة إلى المكان الواقع في الصحراء المسمّى «إينيكير». توهّم الناس قصفاً مميتاً حاق بمعسكر الفرنسيس الواقع شمال الموقع، لأن لا أحد يجرؤ على تحدّي الرعود الجنونيّة فيتفوّق عليها سوى ملّة «آسناي» التي ترابط بكتيبة في الأراضي المجاورة. لم يمضِ وقت طويل حتى تراءى في الأفق شبحٌ مهيب لسحابٍ مريب كغبارٍ كثيف ظلّ معلّقاً متشبّثاً بالأفق طويلاً قبل أن ينقشع. بعد زمن، وقبل أن ينقشع السحاب المريب، عصفت على النجع عاصفة أخرى مكوّنة من كبكبة عربات من النوع المكشوف الذي اعتادت جحافل الدخيل أن تستخدمها في تنقّلاتها عبر الصحراء طوال العقود الأخيرة. كانت العربات هذه المرّة تتناهب الأرض بسرعة جنونية، منتشرةً في الخلاء على نحوٍ فوضوي، لا متتابعة في طابور كما اعتاد أهل الصحراء أن يروها في الماضي. إلى أن جاء اليوم التالي الذي نعى فيه الرعاة الضحايا. القائمة الأولى من ضحايا زلزلة الغيب: قيّامة سرّية، شرّيرة، لم تقضِ على الأنام فقط، ولكن حصدت

الأنعام أيضاً، بل وحرقت الشجر والحجر، ولم تستثنِ من قصاصها شيئاً.

البعض أفاد بالعثور على جثث جنود الفرنسيس أيضاً.

ثم... ثمّ تتالى طابور الضحايا: هلك كلّ من كان بالأمس شاهد عيان، كأنّ الغيوب نفسها قررت القضاء على شهود العيان، محواً للأثر. ثم بدأ سكّان الأراضي الأبعد يتساقطون بأمراض مفاجئة مجهولة قالوا في البداية إنها وباء. نوعٌ من الوباء، ولكن الدهاة قالوا إنه الوباء الذي لم تعرفه الصحراء يوماً، لأنه ليس ككل وباء، لأن وباء الصحراء فقط له ترياق، أمّا وباء الغيوب الأخير فهو أشرّ من كل وباء، لأنه خالد، وبلا ترياق. ترياقه الوحيدة هو الفرار من الصحراء. الفرار ثم الفرار ثمّ الفرار، إلى أي مكان، باستثناء المكان الوحيد الذي كان للأجيال أرجوحةً، ولأبنائها جنّةً وهو: الصحراء! فالكلّ يخاطب الكلّ بعد تلك الزلزلة المشؤومة في الصحراء قائلاً: اذهبوا! ابتعدوا! فرّوا إلى أي مكان، لأن الصحراء بعد اليوم لم تعد صحراء! فهل تريديننا أيّتها البلهاء أن نذهب إلى حيث تتنفّس الكائنات سُحب الموت فتطلب النجاة بالفرار إلى أبعد مكان؟ وأنتِ؟ وأنت تأبين إلّا أن تقودينا من أنوفنا إلى هناك حيث يهاجر كلِ من امتلك للهجرة سبيلاً، ولم يبقَ سوى الحجر؟ ألَا تستطيعين أن تمهلينا قليلاً حتّى تنقشع الزوبعة لنعلم يقيناً أي وصيّة تتخفّى وراء القارعة؟».

سكت، ولكن راحة الكفّ لم تتوقّف عن العزف على خدّها. زفر بعمق فنمّ عن حنجرتها صوتٌ مكتوم. في السكون الموجع، كأنّه شهادة بوفاة الدنيا، حشرج الجمل وهو يجترّ. خبأ وميض النار في الأرَة فتمادى ضياء النجوم. عاد يعزف بأنامله على وتر الوجدان الجريح في محاولة لإيقاف النزيف. غالب غصّة خانقة عندما أضاف: «أتقولين أن هذا يعني خيانة؟ أتظنّين أنّنا لن نقوى على أن نحيا في أيّ مكان إذا كان الوطن قد هاجر من الوطن؟ لماذا لا نتخيّل أن كل مكانٍ في دنيانا هو وطن؟ لماذا لا نقنع أنفسنا أن الوطن فينا، وليس في المكان، أو أيّ مكان؟».

كان يلهث عندما كفّ، كأنّه قطع الصحراء كلّها ركضاً. من أرة النار فاحت رائحة الرغيف وهو يحترق. ولكنّه لم يستيقظ من غيبوبة الوَجْد، بل ارتقى في السلّم المجهول درجةً أخرى. من صدره انفلت أنينٌ فاجعٌ كأنّه لا ينطلق من أيّ موضع في الجسد، ولكنه ينبثق من بُعْدٍ مجهول. أنين شجن، ولكنه شجيّ، ولكنّه... مميت.

ويبدو أنّه مسّ في وجدانها وتراً مجهولاً أيضاً فاستجابت بنغمٍ غامضٍ، موجع، كأنّها تلبّي نداءً.

في السماء هوى نجمٌ ساطع مختطّاً، في الفراغ المرصوص، بأنجم وضيئة كأنّها جواهر خرافيّة، سبيلاً كأنه ذيلٌ من نار!

2 ـ اللّحون

الأشجان وباء الشعراء، وأهل الصحراء كلّهم شعراء. الأشجان لغة الغرباء الذين هجروا أوطانهم، ولكن الأشجان لعنة الغرباء أيضاً. الأشجان سوس الممسوسين، وأهل الصحراء كلّهم ممسوسون. والأوطان مرض الممسوسين. ولكن الأوطان كلّها أوطان، ولكن أوطان ملل الصحراء أوطانٌ ليست ككلّ الأوطان، لأن حضورها ليس في المكان ككل الأوطان، ولكن حضورها في بعدٍ مفقود لأنها ظلٌّ لوطنٍ مفقود. ظلٌّ للوطن الملقّب في لسان القوم بـ«أساهاغ»، وفي لسان قبائل أخرى «أساهو» الذي بلغ التّوق إليه حدّاً جعلهم يشقّون في بطون اللحون نسقاً مميتاً خصّيصاً لكي يبقى محفوراً في وجدان كل سليل من أجيال الأمّة الضائعة. لم يكتفوا بهذه المأثرة الجليلة في وسطٍ لا يقدّس شيئاً في دنياه كما يقدّس الألحان، ولكن دُهاة الأسلاف سنّوا عرفاً صارماً، صار جزءاً لا يتجزّأ من الناموس الضائع «آنهي» تالياً، ينصّ على تحريم المساس بهذا النسق الغنائي أو تغييره لأنه من بين كل الأنساق

هو الإلهيّ. والويل، ثم الويل، لضالٍّ سوّلت له نفسه العبث بلحن «أساهو»، لأنه الصلة الوحيدة الباقية التي تشدّ القوم إلى وطنهم الأصليّ، وطنهم الضائع، لأن تحويره، أو إدخال أيّ تعديل هو تجديفٌ في حقّ قدس أقداس، بل وتضييعٌ لأثر السبيل المؤدّي إلى الوطن الأصلي، لاسيّما بالنسبة لأمّة لم تعترف لنفسها يوماً بالانتماء إلى هويّةٍ أرضيّة.

لقد كابر طوال القيّامة السالفة. كابر في كلّ شيء لينتهي به المطاف بأن كابر على الوطن الأمّ الذي لم يكن له الوطن الأرضي سوى ظلّ، ولكنه الظلّ الذي لا غنى عنه للوصول إلى الوطن الأمّ، إلى الوطن الضائع الذي لا يزيده الضياع إلّا فتنةً، بل لا يزيده الضياع إلّا حضوراً.

لم يدرِ أن هذه الجرثومة التي تسري في الدم هو ما لا سبيل لإنكاره، لأنه الداء الذي لا ترياق له ولا شفاء منه. يستطيع أن يتجاهله، يستطيع أن ينكره، يستطيع أن يمارس في حقّه صنوف القمع، ولكن هيهات أن يقهره. لقد قاوم توق المسكينة إلى الوطن ببسالة، ولم يكتشف أن الدّاء فيه كان يتململ كلّما نهاها أو دعاها للإقلاع عن إدمان الداء كأنّه المخدّر المبثوث في عشبة «آفلهلاه» اللئيمة.

مضى يتظاهر، ويناور، ويتنكّر إلى اليوم الذي وقف فيه على الجنين الوليد المحطّم كأنّه قربانٌ جسيم طرحته الجنيّة في سبيل الوطن، دون أن تدري (وربّما تدري جيّداً) أنها ترمي في

وجهه البرهان الذي تحوّل طعنةً أيقظت فيه المارد الذي أراد له أن ينام طوال القيامة. ولهذا السبب عاد من الرحلة كسيراً، مبلبلاً، غائباً، مستعيناً على البلبال بترويض اللحون، ولكن اللحون لم تطفئ يوماً نار الوَجْد، ولكنها كانت دوماً وقوداً لنار الوَجْد.

3 ـ اللّثام

في الحمادة احتفى بعودته الرفاق: ساهو، وبكّة، وبعض رعاة إبل القبائل أيضاً. ساهو أتقن صنع فخّ اصطاد به على شرفه غزالاً، في حين أقبل رعيان قطعان القبائل بالأجبان واللحوم المجفّفة. أوقدوا في إحدى الليالي ناراً التأموا حولها في حلقة ليختلسوا فرحاً ولو مرّة من حمّى السباق الذي لا ينتهي. في مثل هذه الأمسيات تنحلّ عُقد الألسن ما أن تنعقد حركة الأرجل، عكس ما يحدث في النهارات، فتسترخي الأعضاء ويدبّ النشاط في البال. طافوا باللسان الأركان إلى أن انتهوا إلى القيّامة المشتعلة في أوطان الجنوب. أمّا هو فكان الحاضر بدناً، الغائب بالاً طوال الوقت، ولم يستيقظ إلّا في اللحظة التي سمع فيها «بكّة» يروي تفاصيل جديدة في سيرة «السبعين دمية» المشؤومة.

والواقع أنه لم يفق تماماً من غفوته أثناء سرد رفيقه القديم للسيرة إلّا في اللحظة التي ورد فيها اسم «بولّا». انتابته رعدة وهو يستوقف الرجل بسؤال:

ـ هل تريد أن تقول أنّ «بولّا» كان أحد أعضاء المحفل في ذلك اليوم؟

كان يتشبّث بكمّ ثوب «بكّة» كأنّه يخشى أن يفلت من بين يديه قبل أن يجيب. انتبه الأقران أيضاً إلى يقظته المفاجئة فاشرأبّوا بأعناقهم انتظاراً لما سيفضي إليه الحوار. أمّا «بكّة» فتململ قليلاً كأنّه فوجئ بجهله في حقّ حميم الترحال القديم، ولكنه لم يجد مفرّاً من أن يعترف:

ـ بولّا من ضمن السبعين بالطبع، بل كان على رأسهم!

هيمن وجوم لم تخدش فيه الحياء سوى ألسنة النار وهي تلتهم أعواد الحطب، فسأل وهو ما يزال يتشبّث بجلباب بكّة:

ـ ولكن ما علمته آنذاك أن بولّا استطاع أن يفلت من «أشباح كيتا» بالفرار إلى تامنغست!

زفر بكّة أنفاساً كالفحيح قبل أن يخيّب فيه حسن الظنّ:

ـ ولكن أبطال الاستقلال المزعوم هناك خذلوه كما خذلوا الكثيرين، لأنهم هم مَن وضع في يديه الحديد واقتادوه ليسلّموه إلى الأشباح!

تمادى الصمت ليتواصل في السكون المميت الذي ينصبّ من الصحراء دوماً شاهداً على الكبائر، فتبدو في حلفها مع السماء العارية الممهورة بالفصوص السرّية المنوّرة، كرقيبٍ خفيّ ينهمك في تدوين كل ما يحدث من وراء حجاب.

لم يجد تعقيباً أنسب من تمتمة محزنة:

ـ لا يُصدَّق!

تدخّل «ساهو»:

ـ ولماذا لا نصدّق إذا كانوا قد اعتقلوا قبلها المواطن الذي يحمل هويّة الوطن الذي انتموا إليه ليقدّموه قرباناً لترضية حلفائهم هؤلاء؟

بادله ساهو نظرة استفهام، فلم يملك إلّا أن يستنكر:

ـ هل تريد أن تقول...

لم يكمل، لأنه اختنق بغصّة، فهرع ساهو لنجدته:

ـ بلى! بلى! اعتقلوا باخي الأنصاري أيضاً بعد عودته إلى «توات» ولفّقوا له تهمة التهريب ليستودعوه الحبوس لكي يموت هناك...

ابتلع ريقه بعسر قبل أن يضيف:

ـ يُقال أن موته كان بسبب التعذيب!

عاد السكون بطل المكان. الرعاة أيضاً استجاروا بتلابيب الملاذ الوحيد الآمن في ظلّ الموقف المزموم. إلى أن انتهك الصمت صوت بكّة:

ـ ما لم يجد له أحد تفسيراً هو سرّ إصرار سادة نوميديا الجدد على مكافأتنا على دورنا في استعادة هذا الوطن من

براثن عدوّنا وعدوّهم، ثم يتسابقون بتبنّي حقد هذا العدوّ علينا، فينكّلوا بنا بالنيابة عنه كما لم يجرؤ هو أن ينكّل بنا يوماً!

علّق ساهو:

ـ يقال أن جريمة «إينيكير» لم تحدث لولا مباركة سادة نوميديا الجدد الواردة كأحد البنود السريّة في اتفاقيّات الاستقلال!

هتف أحد الرعاة كأنه ينطق بوصية لقّنتها له قوى الغيوب التي تراقب من وراء حجاب:

ـ يا له من استقلال!

عاد السكون يهيمن ليعود الإحساس الطاغي بحضور الحكم المخوّل من الغيب ليدوّن الوقائع في لوحه المحفوظ، إلى أن أذِنَ باستبدال الشهود، ليحيل الكلمة إلى شاهد عيان آخر هو بكّة:

ـ يُقال أنّهم لم يفتكوا بالشهيد باخي إلّا بسبب الشعار!

حدّق في سيماء الرفيق القديم قبل أن يستنكر:

ـ الشعار؟ أيّ شعار؟

اقتنص انكساراً في نبرة الرفيق عندما أجاب:

ـ اللثام!

تبادل الكل نظرات الاستنكار، ولكن بكّة أضاف بلكنة تنزف دماً:

ـ الكلّ يردّد أنهم لا يريدون أن يقع بصرهم في الصحراء على مخلوق يرتدي لثاماً بعد اليوم!

4 ـ الخلوة

تذكّر كيف عارض «بولّا» اقتناء السلاح إيماناً منه بأن القتلة سوف يتّخذون اكتساب السلاح ذريعةً للبطش بأناسٍ عزّل. وها هو يدفع حياته ثمناً لحسن النوايا في واقع تلك الأيام الذي لم يعترف بالمنطق، فكيف يعترف بحسن النوايا؟

تذكّر ليؤمن كم كان الأسلاف على حقّ عندما امتشقوا سيوفهم ورماحهم وهبّوا لمقاومة الفرنسيس المدجّجين بأخبث الأسلحة وأكثرها فتكاً وأقلّها فروسيّةً، لأن السلاح الذي يصيب الخصم عن بُعد هو سلاح الجبناء وليس سلاح الفرسان. والفرنسيّون لم يوهموا إلّا شعوبهم بفروسيّتهم تلك، ولكنهم لم يملكوا إلّا أن يخفوا فظائعهم ضدّ أناس مسالمين، ويغطّوا فظائعهم (المهينة في العرف الفروسي) التي مُنيوا بها في مواجهة رجال يقتنصونهم عن أبعد بُعْد، ولكنهم لا يستسلمون، لأن الفارس الذي سقط برصاص الجبن لا يلبث أن يخلفه في الموقع فارس آخر يدري أنه سيسقط أيضاً، ولكنه لن يتراجع لأنه لم يمتشق سلاحاً إلّا ليغلب أو يموت.

وبرغم كل المآسي التي لم تكن في الواقع سوى مذابح، لم يستسلموا، ولم ينهزموا، واستطاعوا أن ينزلوا أبشع الهزائم بجيوش هذه الإمبراطورية الغازية، في كل مكان، في آهجّار، في آزجر، في آير، في آضاغ، طوال عشرات السنين. فالمقاومة في عُرفهم واجب لا يختلف عن الصلاة. وإذا استشهدوا فذاك واجبٌ أيضاً؛ المهم أنهم لم ينتظروا أن يُنحروا كما تُنحر الأغنام كما حدث أخيراً.

هام في الخلاء وحيداً بعد جلسة تلك الليلة. ترك إبل الزعيم في عهدة «ساهو» و«بكّة» وساح في البريّة الغربية بمعيّة الجنّية. كان يقتفي أثرها حيناً، أو يسبق هو مسافةً لتقتفي هي أثره. كل ذلك ليرتوي من الخلوة.

الخلوة صارت هي الحلم منذ العودة من رحلة الجنين المهشّم. فالخلوة مع الإحساس بوجود الخلاء لا تشفي الغليل. الخلوة التي هفا إليها هي خلوة الانقطاع التي عرفها سنوات التيه في صحاري الجنوب. الخلوة التي تنفي احتمال (مجرّد احتمال) أن يلتقيه أحد، أو أن يلتقي أحداً.

ماذا لو انقطع الخلق من الصحراء ومن كل الدنيا؟ هو على يقين أن هذه الصحراء لن تبالي، ولا أي مكان في الدنيا يمكن أن يبالي. الليل سيعقبه النهار، والشمس سوف تشرق ثم تغيب، الريح سوف تهبّ، والأمطار سوف تهطل في مواسمها. الأرض سوف تزهر، والشجر سوف يثمر،

والخريف سوف يبيد ما أزهرت الأرض، وسوف يندثر ما أثمر الشجر. ستهنأ الأنعام بغياب الإنسان، وسينعم كل ما طار بجناح، وكل ما زحف على الأرض، وكل ما دبّ دبيب الدواب، بالسلام الأبدي، لأن عرق المكيدة انقطع من رحاب اليابسة، ولن يقوم القتلة بسفك دم الحكيم «بولّا» الذي لم تكن الحكمة لتخذله لو لم يفضّل أن يموت مظلوماً على أن يحيا ظالماً!

لقد ارتضى طوعاً قدر الضحيّة، على أن ينعم بنجاةٍ يحيا فيها جلّاداً!

5 ـ النّداء

في أيّام الخلوة بادلته شكّاً بشكّ.

تظاهر باليقين وهو يترصّد مسلكها عن بُعْد. تظاهر بتصديقها في استعادة العافية.

استنزل لامبالاةً في السيماء إمعاناً في تشييد قناطر الثقة المفقودة، أو لاسترداد قناطر الثقة المفقودة لإيمانه العميق بأن الثقة هو ما لا يُشترى إلّا بالثقة مثلها مثل الحبّ تماماً. ولكن النزيف كان أقوى من قناطر الثقة، كما اكتشف تالياً، لأن الجرح كان أعمق من التوق إلى الخلاص المخفي وراء قناع سكينةٍ كاذبة. وهو ما زعزع قناطر الثقة المزيّفة، وغذّى بذور الشكوك في مسلكها، فتبادله قناعاً بقناع، ولامبالاةً بلا مبالاة، وافتعالاً بافتعال. كانت تتظاهر أيضاً فتستنزل في السيماء الأقنعة. قناع استعادة العافية. قناع البلاهة. قناع الدّابة. تتنحّى جانباً لتلتقم عشبةً. تمضغ العشبة بكسل ميمّمة صوب الجنوب. تخفي وميض الوجع المميت في مقلتيها بأن تغمض عينيها النجلاوين، متظاهرةً بعودتها إلى حلبة البهتان،

لأنها تدري أنه يترصّدها وتريد أن تبرهن له أنها عادت عضواً تائباً في موكب الدواب، في موكب البهتان، ككل الدواب، أو أمثال الفئة التي اختارت أن تتشبّه بالدواب! تتبلّد لتؤكّد توبتها. تتبلّد لتنفي تهمة الانتماء إلى أمّة الأحزان التي لا ترتضي بغير الحنين ديناً. تكذّب قلبها. تخون سجيّتها. تكشف عن فحواها مصدّقةً لعبتها. تعرّي مقلتيها فيخذلها الإيماء في مقلتيها. يدلي الإيماء بالبيان. ينطق الإيماء بالشهادة فتنشلّ في وقفتها. تتسلّل الكآبة لتقتحم كل السيماء. يعجز الفكّان عن طحن العشبة. يعجز البلعوم أيضاً عن استيعاب اللقمة. البلعوم ينسدّ انسداداً. البدن كلّه ينشلّ فتتبدّى نصباً مكابراً مشدوداً نحو الجنوب: في المقلتين الخرافيّتين يخبو الإيماء ليخلفه الدمع. في البدن تسري رعدة منذرةً بقرب النوبة. تنهار أعمدة اللعب وتلتهم نار الوجد القناع، فلا يملك إلّا أن يهرع لنجدتها... يهرع لنجدتها فلا يجد ترياقاً يجدي لمداواة أشجانها سوى الألحان. يغنّي، ويغنّي، ويغنّي ليكتشف في النهاية أنه لا يغنّي لكي يجيرها من الجنون، ولكن يغنّي لكي يجير نفسه من الجنون!

يكتشف أن اللعبة التي تبادل فيها الشكّ واليقين الأدوار لم يخترعها ليخدعها، ولكنه اخترعها ليخدع نفسه. اكتشف أن كل الأشراك التي نصبها، وكل الحيَل التي ابتدعها، إنّما خلقها ليلجم الجنون في نفسه، لا لكي يلجم الجنون في نفسها، لأن

جنونها في الحقّ لم يكن إلّا الترجمان الأمين لجنونه. ترجمانٌ لجنونه الدفين. ترجمانٌ لجنونه الذي يرفض الاعتراف به لأنه نقطة ضعفه. ونقاط الضعف هي العار الذي لا يعترف به عرف الصحراء. والأسوأ من كل شيء هو يقينه بأنها كانت تعرف. كانت تعرف بفضل الحاسّة الأقوى من كل شيء وهي الغريزة. كانت تعرف أنها لم تستجب لصلواته، وأبَتْ في كل مرّة إلّا أن تطلق العنان للتوق، وتهبّ لتلبية النداء.

ولا يعرف لماذا انتابته غضبة بسبب الاكتشاف. اختنق بالشطر الأخير من لحن الشجن معانداً الانقباض. حشرج بأنينٍ أليمٍ قبل أن يتوعّد المجهول:

ـ لن أذهب صوب الجنوب!

كان يرتجف عندما أضاف في الخطاب الموجّه للمجهول:

ـ لن أسلّم القتَلة نحري!

انطلق ميمّماً صوب الأفق الممهور بزرقة سماء عارية. قطع مسافة في الفدفد المسطّح، المعاند في امتداده الملزوز كأنه وتر «إيمزاد» المزموم، قبل أن يرتدّ فجأة ليعود على عقبيه كدرويشٍ ممسوس.

انتصب في مواجهتها. كان ما زال يرتعش عندما لوّح في وجهها بسؤالٍ:

ـ أيرضيك أن يجرّوا السكّين على نحري كأنّي أضحية العيد؟

ارتدّت أيضاً. تخلّت عن مطاردة أفقٍ تبلبل بفلول السراب. اضطرب في المقلتين الإيماء المميت قبل أن تنحني نحوه. جاست بشفتيها عبر اللثام إلى أن اهتدت إلى الوجنتين اللتين انحسر عنهما القناع. لثمت الوجنتين. لثمت الوجنتين بوجل. شيّع نحوها عينين شقيّتين. كان يلهث عندما احتوى رأسها بين ذراعيه. ارتجّ بعنف قبل أن ينفّس بخوارٍ كأنّه إجهاشة.

6 ـ الملل

في السهول الشمالية، مع حلول الظهيرة، أقبل عليه «ساهو» ليزفّ له بشارة تقول أن سليل الفقد «بسّا» أفلت من غلّ الضياع أيضاً ليلتحق بركاب اللاجئين أخيراً.

كانت الفلول ترى في وصول كل قادم جديد عيداً حقيقيّاً، لأن هؤلاء لم يكونوا بالنسبة لمن سبقهم إلى برّ الأمان سوى رسلاً يحملون في أعطافهم الأمل في بقاء القبائل على قيد الوجود رغم أنف القيّامة التي حاقت بهم. لهذا السبب كانوا يهرعون كالأطفال لملاقاة القادم الجديد ليتبرّكوا بتلابيبه، ويشمّوا رائحة الوطن المفقود في أعطافه، ويدفنوا حنينهم في صدره فتنقلب الآية ليغدو هو برّ الأمان، وما هم في حضرته سوى مجرّد ظلال تهرع لملاقاة القادم الجديد لتلوذ به بدل أن تكون للشقيّ مجيراً من ذلك الضياع الفاجع الذي صار للكلّ قدراً.

هو أيضاً لم يكن في أمانٍ من الدّاء الذي صار تلك الأيام وباء الجميع. وها هو يهلّل فرحاً بالبشرى ويهرع إلى الموقع

ليدفن همّه في أحضان القرين القديم بحثاً عن الزمان الضائع في رحاب الوطن الضائع. انضمّ إلى المحفل الظامئ لسماع السيرة كلّها: سيرة المفقودين، سيرة مخيّمات اللاجئين، سيرة الطاعون المجبول بخيوط المكيدة، سيرة كلّ ما متّ للوطن بصِلَة بدايةً بحال المراعي، ونهايةً بنكبة الجفاف التي حاقت بالمراعي، كأنّ الشرّ استطاع أن يسخّر السماء أيضاً لتنضمّ إلى الموكب الذي وطّد أركان المكيدة. ولكن قسوة الظمأ لم تُفقدهم الصواب إلى الحدّ الذي يجعلهم يقترفون خطيئة في حقّ الناموس الذي لن يملّوا من ترديد نعته بلقب «الضائع»، على الرغم من يقينهم بأن حضور هذا المعبود في يومهم، لا يقارن إلّا بحضور ربّ الأرباب في دنياهم. ولولا هذا السلطان لما استطاع أيّ منهم أن يردع في نفسه فضولاً هو خصلة الدهماء في عرف القوم، فيحاصروا السليل الجريح بالأسئلة بوصفه شاهد العيان الوحيد العائد من رحلة يوم القيّامة.

لجمهم الناموس لأمدٍ لم يستغرق أكثر من ثلاثة أيام، ثمّ انطلقوا.

أمّا هو فأمهل القرين أمداً أطول قبل أن يختلي به في أحد الأيام ليستفهم بدوره عن المفقودين قبل كل شيء، ولكنّه فوجئ بوجود إنسانٍ آخر في الإنسان الذي يحمل اسم «بسّا» لم يعرفه يوماً، وربّما لم يعرف في الرجل الإنسان القديم أيضاً، لأن القيّامة الأخيرة كشفت له أن الإنسان هو المستودع

الذي لا سبيل إليه، وسوف نظلّ على جهلنا به مهما توهّمنا أننا خبرناه، لأننا لا نملك الحقّ في أن ندّعي أننا عرفناه إذا كان هو نفسه كثيراً ما يفاجئنا بالاعتراف الذي يقول إنه هو نفسه لا يستطيع أن يعرف نفسه! وها هو يجيبه عن سؤاله حول المفقودين قائلاً:

ـ في النهاية كلّنا مفقودون شئنا أم أبينا!

استفهم عن معنى الأحجية فأجابه:

ـ يدهشني أن تنسوا أنكم هنا أنتم المفقودون، وليس أولئك الذين نحسبهم مفقودين!

تطلّع إلى القرين القديم الذي لم يعد قريناً، لأن القيّامة أماتت فيه القرين لتحيي فيه إنساناً آخر لا يختلف في غرابة الأطوار عن أمم الجنّ الذين نزلوا عليه أضيافاً مراراً متنكّرين في أبدان المهاجرين.

همّ أن يستفهم عن العمّ المفقود، ولكن «بسّا» ما لبث أن أضاف:

ـ الكلّ اليوم يتحدّث عن الفقد وعن المفقودين، كأنّنا لم نكن قبل اليوم مفقودين!

تطلّع إليه خلسةً في جولة ذلك العشيّ عبر المدى الذي ينتهب الأرض انتهاباً، كأنه يستجيب لنداء رفيق الطريق ليستنزل قصاص الفقد بحقّ كلّ ما دبّ على سطح الترباء ليجعله عدماً معدوماً!

وجد نفسه يتمتم بعبارة كأنّه يتلو تعويذة:

ـ لم نرد يوماً إلّا أن نحيا في سلام!

هبّ الرجل:

ـ في هذه القناعة تتستّر خطيئتنا الكبرى. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر منه جواباً، فأضاف:

ـ لأن الطمع في أن نحيا في سلام يعني أن نحيا أحراراً، وهذا وحده سببٌ كافٍ لكسب عداوة كل الأمم، لأن ما لا يُطاق في عُرف الناس هو وجود إنسان يأبَى إلّا أن يحيا في دنيا الناس حرّاً!

توقّف. حدّق في وجه «بسّا» مستفهماً، ولكن سيماء الرجل لم تفضح سوى الإيماء الموجع المبثوث في مقلة كل شاهد عيان في رحلة العودة من القيّامة كأنه ختمٌ مستعارٌ من دنيا الغيوب، فأضاف شاهد العيان:

ـ نحن مَن جنَى على أنفسنا يوم اخترنا الحرية ديناً، وليس لنا أن نلوم الأمم إذا ناصبتنا العداء، لأن احتراف الحرية هو ما لا يُغتفر، وليس لنا إلّا أن ندخل في دينهم إذا شئنا أن ننجو بأنفسنا!

لم يجد مفرّاً إلّا أن يستنكر:

ـ ندخل في دينهم؟

لم يتردّد «بسّا» كأنّه كان ينتظر هذا الاستنكار:

ـ بلى! نتخلّى عن الفرار ونذهب إلى الواحات لنمزّق بطن أمّنا الأرض بالفؤوس لننتزع منها القُوْت بقوّة الحديد، أو نمارس تطويع معدن النحوس هذا في أفران النار، ثمّ نذهب لنكفّر عن خطايانا بتلاوة الصلوات في معابد الأوثان تحت سقوف العمران!

بعد بيان المنكر اعترضه ليواجهه مجابهةً كأنّه انتوى أن يمسك بخناقه. حشرج:

ـ إيّاك أن تقول إنّك تؤمن بهذا!

ولكن رسول القيامة استجار بالبرود:

ـ ما أؤمن به لن يعني شيئاً، لأن لا سبيل إلّا الاستسلام أو ارتضاء قدر الفقْد!

ـ لقد ارتضينا الفقد، ولكن أن نرتضي الفقد لن يعني أن نقبل بالحراب التي تنتهك محراب الفقْد!

في عين «بسّا» ارتسمت سيماء ابتسامة غامضة قبل أن يعترض:

ـ أن نرتضي الفقد لا يعني أن يرتضينا الفقد. وما الحراب إلّا مكوس الفقد!

تبادلا في وقفتهما نظرة دامت طويلاً. في المقلة قرأ إيماءً ما لبث أن استقام في خاطرٍ لجوجٍ كأنّه نفحة إلهام. بذل جهداً كي يترجم نفحة الإلهام في صيغة البيان:

ـ هل هذه شهادة بتبرئة الجناة من الآثام التي اقترفوها في حقّ الأبرياء؟

عادت مقلة طريد القيامة تومض بابتسامة، ولكنّها كانت ابتسامة استخفاف هذه المرّة. زفر أنفاساً سخيّة قبل أن يدلي بإيضاح:

ـ هذه ليست شهادة لتبرئة أحد! كل ما هنالك أنّي أحاول أن أفهم، تماماً كما تحاول أنت أن تفهم!

اختلس نحوه نظرة قبل أن ينتفض فيه وسواس ماكر ليباغت الرفيق القديم بسؤال:

ـ ألم تكن أنت من دلّهم على معقلي في ذلك اليوم؟!

اختفى الوميض في مقلة الرفيق ليحلّ في المقلة إيماءٌ كئيب. هيمن صمتٌ مزموم قبل أن يتساءل «بسّا» مستنكراً:

ـ كيف أدلّهم على معقلك إذا كان معقلك هو ملاذي؟

تطلّع إليه بدهشة قبل أن يستسلم:

ـ قالوا لي إنّك دللتهم على مكاني قبل أن يطلقوا سراحك!

هزّ الرجل رأسه استهجاناً قبل أن يصرّح:

ـ وهل يطلق هؤلاء سراح أحد بمقابل؟ لقد تمكّنوا منّي حقّاً، ولكنّي استغفلتهم أثناء انهمامهم بقطعان الإبل، ففررت منهم، ولم أكن لأنجو لو لم ينجدني المعقل!

حدّق في عينيه مهلة قبل أن يتعجّب:

ـ هل يُعقل أن تكون قد تحصّنت بالمعقل طوال هذا الزمن؟

سطعت بسمة في مقلة الرجل قبل أن يعلن:

ـ ولماذا لا أستطيع أن أمكث هناك كل هذا الزمن إذا كان المعقل يجود بالقوت في الأعشاب وبالمياه في مستنقعات الغيران؟

انطلق في مسيرة المدى المتوثّب لانتهاب كلّ شيء ليسوقه غنيمةً لإله الفقد، فسار إلى جواره خطوات قبل أن يسمعه وهو يدلي باعتراف:

ـ ولكن غولاً هزمني فأخرجني...

انتظر أن يكمل، ولكن الرجل لاذ بالصمت. حدجه مستفهماً، ولكنّه لم يمتثل إلّا بعد حين:

ـ الملل!

فاستنكر في الحال:

ـ الملل؟

ـ ما يعجز إنسان الفقد هو أن يتصالح مع الملل. لو استطعنا أن نبرم مع الملل عهداً ليكون لنا في ضياعنا حليفاً لما تمكّن منّا الأعداء!

الملل؟ أن يكون الملل سبباً لبلاء هو ما لم يخطر له يوماً

على بال. ولكن ما دام «بسّا» قد تتلمذ في المعقل على يد دهاة الجنّ، فلن يعدم وجود سرّ في الملل. قال:

ـ الملل هو ما لم أقرأ له حساباً!

توقّف المريد الذي تتلمذ على يد عتاة الجنّ ليواجهه لأوّل مرّة بسؤال:

ـ كيف لم يقرأ للملل حساباً ذلك الإنسان الذي صدّع الملأ في كل الصحراء وهو يتغنّى بحب ناقة؟

حدجه بدهشة ثم حشرج:

ـ الحق أنّي لم أفهم ماذا تريد أن تقول!

توضّحه سليل علوم الجنّ بفضول قبل أن يفصح:

ـ أردت أن أقول أنّك ما كنت لتضع قلبك رهين الناقة بدل أن ترهنه لدى ربّ النّاقة، لولا الآفة الآثمة التي أطلقتُ عليها اسم الملل!

تطلّع إليه بدهشة، ولكن القرين القديم قرّر أن يهوّن عليه عندما أضاف:

ـ يجب ألّا تستهين بسلطان الملل إذا كان هذا الفارس هو ما هزم سلفنا يوماً ليكون سبب طرده من رحاب «أساهو»!

7 ـ الأشباح

توغّل الليل في رحلته، فتضاعف السكون في عمقه. مضى يتطلّع إلى فصوص النور التي تنمنم الثوب الخرافي بالفتنة. يستند إلى رقبتها الهزيلة مرّة، ويهجع على الفرشة المكسوّة بصفوف الحجارة مرّة أخرى. خلاء. خلاء. خلاء في الأرض، وخلاء في السماء. عدم! عدم! جنّة بجدرانٍ من عدم! نعيمٌ محاط بسياج من حرية. فماذا يريد؟ الزاد؟ اللعنة على الزاد إذا توفّر الماء. الأمان من شبح السكّين؟ لن يبالي حتّى بشبح السكّين إذا ضمن لها النجاة. لن يندم على فراق أي شيء إذا ضمن وجود الصحراء، ووجود اللحون التي تتغنّى بالعدم الجليل في الصحراء، ووجود ناقة اللّه ترتع في مراعي وطن اللّه كما سمع الفقيه يتلو مراراً في قراءاته من المصحف. كل ما يريده ألّا يُحرم يوماً من الغناء. كل ما يريده أن يموت وهو يغنّي. ما يريده أيضاً أن يموت وهو يستلقي في جنّاته التي يسمّيها بلهاء الأغراب عدماً، دون أن يدري هؤلاء ما هو هذا العدم الذي يعيّرون به الصحراء،

ودون أن يدروا أيضاً ما هي الصحراء. ما يريده أيضاً أن يموت وهو يحتوي السكون في قلبه ويلتهم فتنة الفصوص السماوية بعينه!

تنهّد وهو يلتحم بفرشة الحجارة، بلحمة الأرض. تنهّد من فرط السعادة وهو يتماهى بالمدى الأبديّ المنطلق إلى كل مكان بما في ذلك الركن الخامس في الصحراء: السماء!

تماهى أيضاً، فاستشعر فصوص النور وهي تشعّ فيه، فيمتلئ.

يمتلئ نوراً حتى يفيض فيه النور كأنه سيول. كان معلّقاً في بُعْدٍ مجهول، بُعْدٍ مفقود ليس بسماء ولا بأرض، ولا بما بين القطبين. فهل هذا هو ما ينعته دراويش الطريقة القادرية بالوَجْد!

كان شفّافاً. كان طيفاً. كان ضيفاً في بلاط الحلم عندما وقف فوق رأسه الأبالسة كأنهم زبانية القصاص.

كانوا ثالوثاً، تماماً كما كانوا يوم الشَّرَك، بالسيماء المنكرة ذاتها، وبالعيون الحمراء الموسومة بالكراهة والوسوسة والجشع ذاتها. كل ما هنالك أنهم تخلّوا لأمرٍ مّا هذه المرّة عن القبّعات الغبية التي توّجت رؤوسهم في المرة الفائتة.

سحق الجلف الأعظم أنفاً والأطول شفةً أصابع قدمه بحذائه الفظيع فندّت عنه آهةُ وجع. زمجر بحشرجة منكرة كأنها فحيح الحية:

ـ هل ظننت أنّك ستنجو منّي أيّها الثعلبان؟

أدهشه أن يخاطبه الوغد بلغة القوم ممّا يعني أنه كان يتظاهر لسببٍ مّا في المرة الماضية عندما استخدم زميله كترجمان.

همّ بأن يجيب الوغد، ولكن الخلل أصاب اللسان. لم يمهلوه كي يجد حيلة لمعالجة العضلة اللعينة، لأن الجلف ما لبث أن أضاف ملوّحاً بنصل السكّين في الهواء:

ـ سأسلخ جلدك سلخاً إذا لم تردّ لي كنوز أجدادي!

بذل جهداً بطوليّاً كي يجيب، ولكن اللسان خذله تماماً كأنه أُصيب بشلل.

في هذه اللحظة لاحظ كيف اقترح صاحب قامة القزم قائلاً:

ـ أليس الأفضل أن نبدأ بالمطيّة؟ ألم تقل إن روح الثعلبان مخبّأة في جوف المطيّة؟

عاد يتعجّب كيف يخاطب بعضهما بعضاً بلغته هو، لا بلغتهم هم. حاول أن يستنكر النيّة الشرّيرة المبيّنة ضدّ المطيّة. وكم أفزعه أن يسمع استحسان الوغد للاقتراح. بذل جهداً بطوليّاً جديداً فانحلّت عقدة اللسان فصرخ بأعلى صوت:

ـ ذهبكم هنا، في جوفي أنا، وما تخفيه المطيّة في جوفها هو ذهبي أنا، لا ذهبكم أنتم، فابقروا بطني أنا إذا شئتم أن تجدوا ذهبكم!

هبّ واقفاً بقفزة استنكرتها المطيّة بانتفاضة. كان الشطر الأخير من العبارة مازال يجري به اللسان عندما انتصب واقفاً ليجد أن ثالوث الأشباح قد تلاشى!

8 ـ الحلم

هَدهد المخلوق النبيل الذي لم يكن في عُرفهم سوى مطيّة حتى استعادت هدوءها.

جلس بعدها يشاهد الخلاء الملفوف في سكونٍ لم يخدشه حتى اجترار ناقة اللّه للعشب، كأنها تبرهن على الانتماء إلى هوية السماء بالامتناع عن التقام العشب. كان ما زال يعاند الحلم دون أن يصدّق أنه كان ضحيّة كابوس. كانوا حقيقيّين لأنه على يقين أن سِنَة النوم لم تأخذه عندما وقفوا فوق رأسه. كان على يقين أيضاً أنه رآهم وهو ينتصبون في وقفتهم حتى بعد أن استيقظ وهبّ واقفاً. استعاد الحلم. استعاد حلم اليقظة. أم أنه لم يكن حلم أضغاث الأحلام، ولم يكن حلم يقظة، ولكنه حلم النبوءة؟

انكبّ على الأرض ليستعيد العبارة: «ذهبكم هنا، في جوفي أنا، وما تخفيه المطيّة في جوفها هو ذهبي أنا، لا ذهبكم أنتم، فابقروا بطني إذا شئتم أن تجدوا ذهبكم!»، فما

معنى هذه الأحجية؟ أَلَا يجتهد دهاة القبيلة في قراءة الأحلام ليقينهم بأن الطلسمات فيها نبوءات، وليست عبثاً؟

ولكن هل كانت الواقعة عملاً من قبيل الأحلام حقّاً؟

استلقى مرّة أخرى. هتمل لنفسه:

ـ ذهبكم هنا، في جوفي أنا...

التفت نحو كنزه الحقّ. نحو هبة اللّه. نحو ناقة اللّه. لامس جيدها الطويل النحيل الذي يكاد ينقطع من فرط الهزال، ومن فرط الطول. مسّد على جيد الحسناء بحنان. برطم مرّة أخرى:

ـ ما تخفيه المطيّة في جوفها هو ذهبي أنا... هَمْ!

راقب فصوص الفتنة المبثوثة في نسيج الثوب الخرافي. تعجّب مراراً وهو يبحث عن مفتاح لتأويل الرؤيا. تساءل عمّا إذا كان سيتذكّر هذا البيان عند حلول الصبح. لا يعرف لماذا تمحو أشعّة الشمس الأحلام في رأسه في كل مرّة فتنقشع تفاصيل أكثر أحلامه وضوحاً. استعاد الرؤيا. تشبّث بالتفاصيل، تشبّث بمنطوق العبارة حرفياً كي ينقشه في الذاكرة نقشاً علّ إلهاماً سيتنزّل في الصباح فيفلح في تأويل الأحجية!

9 ـ الشِّرْك باللّه

في الصباح هبّ كاللّديغ. هبّ واقفاً ليكتشف أن أشعّة الشمس قد لدغته حقّاً. ولكن لدغة الشمس كانت هيّنة بالمقارنة مع لدغة أخرى أسوأ من لدغ الشمس، وربّما أسوأ من لدغ الحيّة أيضاً. المعبودة!

لا وجود في الخلاء لأيّ شيء سوى... العدم!

طاف الخلاء بنظرة مشوّشة بآثار سبات ثقيل فلم يعثر في الخلاء على الناقة.

انحنى على الزمزمية. غمر عينيه بقطرات ماء وفركهما بعناد. عاد يتفقّد الخلاء، فلم يلُح في السبسب سوى الامتداد المكابر الذي يعتصر المجهول لينجب من أبعاده المفقودة سراباً. لقد استغفلته. تركته حتّى اطمأنّ فانسلّت. وربّما لم تستغفله، ولكنها استسلمت لمشيئته مخلصةً، ولكن الحريق الذي يحتدم في قلبها هو ما خذلها كما في كل مرة. خذلها لأنه كان أقوى. خذلها لأن مَنْ جرّب داء الحنين إلى الأوطان

وحده يدري طبيعة الجنون ويستطيع أن يتسامح فيغفر الجنون. فالوفاء هو الخصلة التي لا يملك الحقّ في أن يطعن فيها. الحبّ فيها معبودٌ فوق الشكوك. الحبّ هو الساحر الذي لا يُخفى. كل ما هنالك أن الحنين كان في حياتها الساحر الأدهى. الحنين فتنة الشعراء. الحنين أفيون النفوس التي وجدت نفسها في الصحراء بلا حول، لأنها لم تنتمِ يوماً إلى جنس الخليقة التي تدبّ في الصحراء. الحنين لغة الغرباء الظامئين إلى الوطن المفقود، ولكنّهم لا يملكون إلّا أن يسقطوا هذا الظمأ على أوطان الوجود تعبيراً عن يأسهم في العثور على الوطن المنشود. الحنين آفة الممسوسين. آفة الموسوسين الذين لم يولدوا، ولكنّهم بُعثوا، ولو خُيّروا لما وُلدوا، فلا يملكون إلّا أن يتشبّثوا بتلابيب الحنين إلى الأوطان، لا لكي يسكنوا فيها، ولكن لكي يعبروا منها. يعبروا منها إلى البرّ الوحيد الآمن. يعبروا منها إلى الوطن المفقود دوماً، لأنه لم يكن ليكون وطن اللّه لو لم يكن مفقوداً.

ورم الوجدان هذا هو ما أفقدها صوابها في كل مرة فتفرّ كأنّها تتنكّر لنفسها. تفرّ وتفرّ وتفرّ، ولكنها تتهاون ما أن يستيقظ الإحساس الآخر في قلبها. يحتضر فيها الحماس لأن الوفاء أيضاً داء. الوفاء أيضاً آفة. ليس الوفاء، ولكنّه الحبّ. الوفاء فرع في الصفقة، ولكن الحبّ أصل. الوفاء يدين بدين

الواجب. الوفاء يدين بدين الدَّيْن، ولكن الحب مارد المرَدَة الذي لا يدين بدين، لأنه هو الدَّيْن، وهو الدِّيْن معاً. هذا المارد هو الذي يهدّ فيها الحيل، ويخفّف من غلواء الحريق، فتنحل عقدة الزّمّ المميتة ليتنزّل الوهن في البدن المزموم. تسترخي في كل مرّة لتتيح له فرصة اللحاق بركابها علّه يتساهل أيضاً فيرافقها في حجّها. يرافقها في هجرتها إلى الوطن، إلى الكعبة الوحيدة القادرة على تحقيق المعراج. المعراج الذي يحرّر العبيد لينفذوا إلى رحاب الأفق المفقود. ولكن...

ولكنّه كان يخيّب ظنّها في كل مرّة. كانت تسفّه مواهبها من أجله. كانت تستهين بقدرتها في اختراق الآفاق بسلطان الألف جناح، وتتظاهر بالعجز، لكي تنتظره! تنتظره لا شفقةً عليه، ولكن شفقةً على نفسها من أن تحقّق خلاصاً لن يكتمل أبداً ما لم يكن فيه شريكاً، واستنكاراً لأن تطأ الوطن المنشود دون أن يكون في رحابه نزيلاً، لأن الوطن آنذاك لن يكون وطناً منشوداً، ولكنه سينقلب وطناً مفقوداً. ولكنه كان يخذلها في كل مرّة. كان يعتقلها ليقودها إلى الوراء بدعوى الخوف عليها من أشباح السبيل وسكاكين الليل، لأنه يجهل معامع الأشباح التي تتقاتل فيها، ويستخفّ بالسكاكين التي تمزّق أحشاءها. يقودها إلى الوراء ظنّاً منه أنه يعيدها إلى برّ الأمان، ولا يدري أنها سوف تفرّ من صحاري الشمال جوعاً، إن اعترض سبيلها ولم يسمح لها بأن تفرّ عَدْوَاً.

الآن فقط بدأ يدرك حقيقة الشِّرَك. الآن فقط بدأ يفهم معنى أن يعشق الإنسان إنساناً يبدو في نظر الناس حيواناً، أو أن يعشق الإنسان حيواناً له قلب إنسان. بلى! فهم... فهم بعد فوات الأوان كم هو ضلال أن يعشق الإنسان إنساناً، أو كائناً يخفي في عُبّه إنساناً يراه الناس حيواناً، بعد أن ظنّ طوال الوقت أن هذا الجنس من العشق هو كلمة السرّ الوحيدة في عشق ربّ الإنسان. والآن فقط اكتشف أن أيّ حبٍّ غير حبّ اللّه هو شِرْك باللّه، وليس القربان في حبّ اللّه!

والقصاص المستوجب عن هذه الخطيئة لا يستثني القطب العاشق من القطب المعشوق، لأنهما بالاقتران بهتان، وما غرّبهما بالعشق، هو وحده ما ينفيهما بالإثم. وهو ما يجعل من الصحراء آيةً جليلةً لأنها منفى أصيل. ولهذا فإن سيرة العدم (التي لا تتجلّى في شيء كما تتجلّى في الصحراء) إغواءٌ لا يُقاوَم، لأن ما هو هذا العدم، الذي يتشدّق به البلهاء دون أن يفقهوا له معنى، إن لم يكن الحقّ المنزّه عن الباطل، برغم أنه يبدو الباطل المنزّه عن الحقّ؟

10 ــ العدم لا يجيب بشيء

الأثر قاد إلى ما يجب أن يقود إليه. الأثر قاد إلى القِبْلة الوحيدة التي يمّمت صوبها دوماً. الأثر قاد نحو الجنوب. لاحظ كيف لاذت في البداية بتلابيب الامتداد الحجري الأقسى من باب التضليل. ولكن وقع الخفّ بصمة لم يفلح في إخفائها حتّى البساط الأقوى.

بصمة الخفّ قد تفلح في إخفاء الوطأة، ولكن هيهات أن تفلح في إخفاء أثر الحجارة الذي يخلّفه ارتطام ظلف الخفّ فيبدو في جسد المدى كجرح لم يلتئم إلّا للتوّ. لزمت السبيل الصلب لتحتال عليه، ولكنه احتال عليها بما لا سبيل للاحتيال عليه: الطبيعة!

فهي بالجرم بعير وإن أخفت في عبّها إنساناً، والبعير دابّة لا تدبّ في الأرض بخفّ ما لم تقتحم أنصاب الحجارة اقتحاماً.

تقتحم أنصاب الحجارة مهما تضاءلت في الطول وهزلت

في الحجم. بل كثيراً ما تختطّ على الأرض أوسمةً إذا لم تعترضها الأجرام التي تصلح دميةً تتدحرج، كأنّ البعير في سعيه يلهو دون أن يدري! فكم هي بلهاء عندما تتوهّم أن حِيَلها تستطيع أن تنطلي عليه وهو الذي احتضنها في صدره، وشاركها دقّات قلبه، ونفث فيها أنفاس الحياة من روحه، قبل أن يخرجها إلى صحراء الناس من صُلبه!

في المسافة التالية بدأت الأرض تلين في انكسار مسيرها نحو الجنوب، فتطلّع إلى المدى بحثاً عن طيف يصارع في البُعد ذيول السّراب، ولكن عبثاً!

تربّع معبود الأجيال عن عرشه في الأعالي ليستعير دور الجلّاد كلّما انتصف النهار أو أشرف على الانتصاف. أنكر أن تقطع مسافة كهذه فيما لو انطلقت فجراً كما خمّن في البداية. اليقين أنها انطلقت ليلاً. انطلقت بعد عراكه مع الأشباح وسقطته في النومة الثانية التي حقّ له الآن أن يسمّيها ميتةً ثانية وإن كانت في حجمها الأصغر، لأن الاستيقاظ بعد طلوع الشمس هو المنكر الذي يمكن أن يُغتفر في حقّ الأموات، لا في حقّ الأحياء!

ليس له إلّا أن يعترف بأن تلك الميتة كانت فأل سوء في سيرة هذا السباق المجنون. الفلاة التالية تخلّت عن الخشونة في جلدتها لتستعير، في انسيابها إلى الأسافل، بُردةً موشّاةً بحبيبات الحصباء، واضعةً بذلك حجر الأساس في البرزخ

الماكر، الفاصل بين الصحراء الشمالية وحميمتها الوسطى التي ستتدفّق منذ الآن حتّى تتواصل في بحر رمالٍ يتستّر على بحر الماء، حيث هجعت في الأزل البحيرة الكبرى التي كانت المستودع الحاوي لمخزون المياه الذي غذّى القارّة كلّها قبل أن تكتم أنفاسه حملة الرمال، فلم يبقَ منه اليوم سوى العيون البخيلة التي تحيا عليها واحات «تارجا» منذ القدم.

في هذا المنعطف توقّف. توقّف لأنه أدرك أن عليه أن يقرّر هنا، لا في أيّ مكانٍ آخر، ما إذا كان عليه أن يواصل سباقه المحموم راجلاً، أم عليه أن يعود إلى المراعي ليسرّج وراءها مطيّةً: مواصلة المطاردة ركضاً مجازفة إذا لم يدركها بين عشيّة وضحاها، وهو ما لا يستطيع أن يضمنه، لأنه ليس على يقين من الميعاد الذي اختارته للإفلات. أمّا العودة إلى الوراء، نحو المراعي، لاستجلاب المطيّة فمخاطرة أخرى، لأن الوقت الذي ستستقطعه مسافة العودة من المطاردة كفيلٌ بأن يقذف بها إلى الحدود.

توقّف في منتصف الطريق ليسائل الأركان الخرساء فلم يجبه العدم بشيء. ساءل السماء أيضاً، ولكن السماء خوّلت الأمر لحدقتها القاسية التي انتهرته بلا رحمة فاستجار بالزمزميّة فزعاً ليبلّل بلعومه بجرعة. فتّش في قوس الأفق عن ظلال أمل، ولكن سراباً خبيثاً تدخّل ليغمر الأفق ويقطع الأمل، فلم يجد مفرّاً من استنطاق الذاكرة وهو يستجدي إلهاماً. ولكن

الإلهام... أيضاً استعصى. استعصى الإلهام فهَوَى أرضاً معانداً غزوة يأس. حدّق في بعبع اليأس زمناً قبل أن ينتفض. انتصب واقفاً لينطلق.

انطلق عبر المنحدر الفسيح الممتدّ نحو جنوبٍ معصوبٍ بأفقٍ قاسٍ مبلبلٍ بستور سرابٍ لئيم!

11 ـ العفاف

هَوَى الامتداد تدريجيّاً، فانحسرت فيه نمنمات الحصباء كلّما تمدّد الفدفد إلى الأمام. بدأت الصحراء تستبدل جلدتها مرتديةً قناعاً لميساً، مغموراً هنا وهناك، بأكداس حجارةٍ كثيبةٍ تتبعثر حيناً، وتلتئم حيناً، كانت يوماً أضرحة لأسلافٍ استجاروا بتخوم البحيرة في الزمن المنسيّ الذي أعجز حتى الذاكرة الأدهَى، ذاكرة الأساطير، فبخلت على القوم بالتفاصيل، ولم تزد على أن تغنّت بفتنة الممالك الخرافيّة التي قامت في هذه الأنحاء، ولكن الرمال باغتتها يوماً فطمرتها كما طمرت كل الكنوز التي يجدّ المغامرون في طلبها إلى هذا اليوم. إنها الضفاف التي كانت للخليقة أرجوحة مهدٍ في بلاط يابسةٍ صيّرها حضور المياه للسليل فردوساً قبل أن يكتم غول الجفاف أنفاس الفردوس ليحيل اليابسة يبوسةً، والأرض يبيساً طارداً شتّت شمل الأمم.

اختفت أشجار الطلح لتطلّ في الأنحاء نبوت ليست بعشبٍ ولا بشجر: نبوت كثيفة، شاحبة، تتلبّس شعاف روابٍ

ابتنتها بأتربةٍ بلّلتها بإفرازات لعابها الشحيح، فشذّبتها غزوات رياح الأعوام، لتشيّدها على الأرض أنصاباً تتخذها الأنعام في السبيل طعوماً، والهوام في سعيها بيوتاً. وها هي أخفافها تحوم حول الأنصاب، ولكنها تحجم في كل مرّة. لا تحجم بسهولة، كما كشفت آثار الطواف حول الأنصاب مراراً، لأن الجوع أيضاً ماردٌ عاتٍ، والتضحية به هو البطولة التي لا تستجير بها لتغلب الغول، ولكنّها تضحّي بها لتحقّق غلَبة على غول آخر يتخفّى في بطن الشبع، في بطن الطعوم. غول لا يكتفي بأن يجلب الوهن، ولكنه يحمل دسيسةً أسوأ حتى من الوهن، وهي الظمأ! ولهذا تحوم حول أنصاب الأعشاب المشيّعة فوق عروش الأنصاب الترابيّة طويلاً. تحوم لتستجلي طبيعة النباتات أوّلاً. تحوم لتستكشف منسوب الملح في طعوم هذه الفروة، أو تتوقّف لتستكشف منسوب الرطوبة في فروة أخرى مجاورة، لتتردّد. تتردّد لتستشير النداء الذي يسكنها، فلا تملك إلّا أن تستجيب لوصية النداء. النداء العصيّ الذي لا يوصي بغير التخلّي، ولا يعترف بغير العفاف ديناً!

تستجيب. تشيح بوجهها لتيمّم من جديد صوب الأفق المنيع، المغمور بالسراب، المشفوع بالفتنة، السخيّ بالوعود، حيث يختطّ العدم لنفسه برزخاً يستدرج فيه السماء التي تتنازل عن استعلائها لتلتحق بالحضيض في عناقٍ حميم يشيّد بروج المستحيل.

12 ـ بركة الدم

توغّل مسافة أخرى. مع حلول المغيب أدرك تخوم بحر الرمال الذي كان سبباً في طمر بحر الماء في البحيرة المفقودة التي لم تخلّف وراءها سوى العيون المبعثرة هنا وهناك. في البُعْد لاحت أشجار النخيل في ساحات تتقاطع فيها السيوف الرملية، وتتدافع كأنها تخوض حرباً حامية. تناول من الزمزمية جرعة أخرى ليفقد من الرصيد النفيس نصيباً آخر يدرك جيّداً أنه لن يعوّض. تشبّث بها لحظات كأنه يفتّش عن حيلة تجير الكنز من الفرار. تطلّع إلى قمم النخيل، الموسومة بأشعّة الغروب، وهي تطلّ برؤوسها من وراء السيوف الرملية الصارمة، مهدهداً حلماً بخلاص: كنز سخيّ تعد به وقفة الأشجار! إغواءٌ بوجود عين تتطلّع إلى السماء لتستعير منها فتنتها المبثوثة في لونٍ هو الزرقة، لكي تستنزلها في دمع الأرض، في دم الأرض لا فرق، المسمّى ماءً! ولن تكتمل اللقية بالطبع ما لم تنتصب فوق ضفّة الغمر النقيّ قامة مهضومة

الحشا كأنها غزالة! جرم غزالة بجمال غزالة، كل ما هنالك أن الجرم بحجم ناقة!

ناقة تنتظر فارساً بالطبع، لأن ما جدوى أن تتشبّه الناقة بالغزلان، وتنتحل بهاء الغزلان، إن لم تنتظر في وقفتها فارساً؟!

ابتسم، ثم انطلق. راقه أن يحلّق في رحاب الأحلام طوال الطريق. رؤى تتدافع في الخيال ناطقةً بالأماني حيناً، أو مجسّدةً أضغاث أحلام حيناً آخر، ولكنه لا يملك إلّا أن يعترف بأنها كانت له تسليةً في مسيرة العدم.

تسلّق الأثر عرقاً رملياً عالياً يشرف على هاوية فتسلّق وراء الأثر. عاند وعوثة ماكرة كأنها أشراك وليست أرضاً. استشعر ألماً وهو يتخيّل كيف استطاعت أن تنجو من أوحال الرمال بسيقانها النحيلة كأنها أعواد هزيلة. بلغ القمّة فأشرف على الموقع الذي تبدّى عن بُعد ساحة للمعارك الحربية، جنودها جيوش السيوف الرملية المتنازعة على مدى البصر مغمورةً بغياهب الغسق.

في الأسفل التأمت أشجار النخيل في التفافٍ كثيفٍ كأنّه طوق يتكتّم على سرّ. تفقّد الأثر فتبيّن كيف اتّجه صوب كوكبة النخل مستقيماً حتى ابتلعه الطوق. عاد يسلّم زمام الأمر للأثر حتّى ألقى به في أحضان الطوق، في أحضان... الحلم!

كان الطوق يتحلّق حول الماء حقّاً، ولكنّه كان خالياً من الفتنة، ومشوباً بحمرةٍ قرينةٍ بدم الأرض حقّاً. ماءٌ كئيب اللون، يستلقي في حفرة نبتت على أطرافها أعشاب مريبة، تتحصّن بجذوع الأشجار التي تلتفّ حولها كأحراسٍ حرصاً على الغمر من الرمال، ومن أشعّة الشمس، ومن. . . العين!

ولكن أين الجرم الموعود الذي سيهب اللقية معنى، وسيكمل بحضوره فصول الحلم. . . فصول الجنّة؟

فتّش في دغيل الأشجار، ولكن لا وجود للجرم. بحث عن الأثر في المكان، ولكن فوهة العين المعشوشبة قطعت الأمل في العثور على الأثر. عَبَرَ الطوق إلى الناحية الأخرى فعثر على أثر الخفّ وهو يصعد السيف الرملي المقابل. عاد على عقبيه. ركع فوق فوهة الماء. خاض في الغمر الراكد بيده ليختبر حرارة السلسبيل. كان بارداً. تناول جرعة ليستطعم الكنز. استبقى الجرعة في فمه لحظة قبل أن يبتلعها. ابتلعها ففزّ واقفاً. بصق ما تبقّى جانباً. عاند سعالاً حادّاً وهو يجاهد ليتخلّص من مرارة الطعم في الماء. مرارة حرقت الحنجرة، وتسلّل بخارها ليكتم فيه الأنفاس. مرارة ممزوجة بملوحة مركّزة تفوق حدّة أيّ ملح ذاق له طعماً في أيّ يوم.

انهار بالجوار يعاند السعال ويلتقط الأنفاس قبل أن يستشعر غثياناً. حاول أن يتقيّأ، ولكن عبثاً بسبب خواء الأمعاء. استجار بالزمزميّة وتناول جرعة، ولكنّه لم يستطع أن

يتخلّص من الحريق الذي خلّفته الجرعة المسمومة. اضطرّ أن يتناول جرعة أخرى كي يطفئ لهيب السمّ!

استلقى في جوف الطوق ليتطلّع من خصاص الفروة نحو أفقٍ مخضّب بشفق الغسق. من خصاص السعف أفلت شعاع قانٍ سطع على سطح الماء الكئيب فتبدّى الغمر بركةً من دم.

13 ـ ليل السُّرَى

أيقظه حريقٌ في الحلق. جفافٌ لا يطاق في الحلق. تناول من الزمزميّة جرعة سخيّة علّها تمحو مفعول السمّ المبثوث في ماء البركة الدامية. فأيّ عرق في الأرض جاد بهذا السائل الشرّير؟ بلى! السرّ في جنس الأرض وليس في جنس الماء الذي يسري في عروق الأرض. الماء كلّه نقاء لأنه سليل سماء. أمّا العلّة ففي الأرض. فلون الماء من لون الأرض، ورائحة الماء من رائحة الأرض، وطعم الماء من طعم الأرض أيضاً. فأيُّ أرضٍ هذه التي ألبست النطفة النقيّة بكسوة في لون الدم، وبثّت في دمعة السماء البكر الرائحة المنفّرة، ودسّت في هبة اللّه هذا الطعم المنكر الذي جرّده زاده من الماء بدل أن يزوّده بنصيبٍ من ماء؟ كلّا! كلّا! أرضٌ كهذه ليست طيّبة! أرضٌ كهذه خُلقت لنعبرها لا لنركن إليها! أرضٌ كهذه فأل سوء أيضاً مثلها مثل نومة الشؤم التي ذهبت بالتميمة البارحة!

في خصاص السعف سطعت النجوم. في المكان هيمن السكون. انتصب واقفاً. تسلّل خارجاً. تطلّع إلى المحفل

السخيّ، المتغامز بلغة الأضواء الخاطفة، اللجوج في تبادل تلك الإشارات الغامضة، كأنّ الكلّ يضيق بالأمر الجلل فيسابق البوح بالخبر اليقين، كأنّ الكلّ يريد أن يكسب الرهان ويفوز بقصب السبق في مباراة البلاغ المبين!

تفقّد الأثر في الخارج تحت ضياء القناديل الفاتنة فتبيّنه بوضوح. تأبّط الزمزميّة وانطلق. استعان بالنجوم في ظلّ غياب القمر، لأن في مثل هذه المفازات فقط يتضخّم حجم النجوم، ويشتدّ فيها النور إلى حدّ تنيب فيه عن نور القمر لتكون دليلاً لكلّ من تحاشى الظمأ واختار السُّرَى ليلاً.

تطاول في الكثبان العظمى التي تعالت في المسافة التالية كأنّها تنوي أن تنافس الأجبال طولاً. احتال على انتصابها مراراً بالطواف حولها وتحاشي تسلّق الامتداد رأساً، محاولاً الالتفاف جانباً قبل الانحراف ثانيةً حول الأثر، في حين لاحظ كيف كانت تتحامل فتتسلّق الارتفاع مجابهةً كسباً للوقت.

الوقت؟

الوقت عدوّه أيضاً. الوقت هو عدوّهما المشترك، وهو أيضاً بينهما الشريك المشترك. هي تريد أن تكسبه، لأن زادها من الماء وفيرٌ في خزنة بطنها، وهو لا يملك إلّا أن يخسره لأن زاده من الماء شحيح في زمزمية ولا وجود له في بطنه. وليس له إلّا أن يعوّض الوقت الضائع للاحتيال على الكثبان

بالهرولة كلّما تسامحت الأرض وانبسطت في سهول، دون أن ينسى أيضاً أن الهرولة ليست جهداً بلا ثمن، لأن السباق مع جلالة الوقت يستنزف من الجسد نصيباً أوفر من الكنز الذي لا يقدّر بثمن! وكان يمكن أن يكون المصاب في الماء أهون لولا جرعة العلقم. لولا مفعول السمّ الذي اختلس منه الماء بدل أن يمنّ عليه بالماء. وهو ما يبرهن بوجود البحر في الموقع قديماً. البحر العظيم الذي تروي سيرته أساطير الأجيال المطمور الآن تحت بحر الرمال العظيم، لأن مياه البحور وحدها غمرٌ من علقم كما يؤكّد العقلاء. ربّما لهذا السبب يحذّر الدّهاة من عبور البحور. لأن ما جدوى وجود البحور إذا كان الماء فيها مسموماً؟ وها هو البحر القديم يسلبه الماء بدل أن يزوّده بحاجته من الماء! ولكن عليه ألّا ينسى أنه هو مَن أخطأ. ألم يحلم ببحيرة تستظلّ بفروة الشجر بمياهٍ زرقاء قبل أن يضيف فيحلم بوجود حسناء الزمان بالجوار؟

لقد حقّقت له الغيوب حلم البحيرة ليعلم أن خلاص الإنسان لا يوجد في أحلام الإنسان، لأن كثيراً ما تكون أحلام الإنسان قصاصاً في حياة الإنسان، كما ردّد الفقيه الفقيد مراراً.

ألن يعني هذا أن عليه أن يستشعر الامتنان لحكمة الغيوب، لأن العقاب ربّما كان أسوأ فيما لو تحقّق بشطره الثاني أيضاً فوجد ناقة اللّه في انتظاره بالجوار؟

14 ـ لغز الوتد

استنكر مراراً كيف استطاعت أن تفعل به ما فعلت. استنكر أن تفعل بنفسها ما فعلت أيضاً، لأنه على يقين أنها إذا تجرّأت وفعلت ما فعلته به، فإنها إنّما فعلت ذلك بنفسها أيضاً. أيُّ سحرٌ في الأوطان يستطيع أن يُفقد الكائنات الصواب إلى الحدّ الذي تكفر فيه بالأرباب؟

أم أن الوطن هو المكان الوحيد المسكون بربّ الأرباب فتفرّ الكائنات من ربّ الحضيض توقاً إلى ربّ الأرباب؟ فما لم يفارقه أبداً هو اليقين بأنها لم تكن لتتخلّى عنه لو لم تستشعر في قلبها النار التي لا تُحتمل؛ ناراً لا يكفي أن تكون توقاً، أو شوقاً، أو حنيناً، او أيّ جنسٍ من ألم، ولكنها النار التي لا تطاق. النار الوحيدة التي تستلّ آخر ذرّة من عقل، وآخر قدْرٍ من غريزة، لتنصّب الجنون سلطاناً على الكائن فلا يرى وجوداً لربّ الأرباب إلّا في سرّة الأرض التي كانت للرأس مسقطاً، وللرّوح مهداً، والركيزة التي شهدت انقطاع حبل الوصل بين المجهول ووطن الأرض، ليصير موقع انقطاع

الحبل وتدُ الأبد. فطلسم الجنون كلّه يسكن في لغز هذا الوتد. وكل ذنب كائن مثلها هو عجزها عن فهم معنى أن يقترف الكائن رذيلة اسمها الحرب في حقّ قرينه الكائن، فيعمل على نفي الكائن في نيّة للبطش بالكائن، فلا يجد مفرّاً من الفرار إلى أبعد أرض طلباً للنجاة. يهجر سرّ الميلاد، يتخلّى عن عروة الوتد الوثقى، ليحتمي بأوطان هيهات أن تنال لقب الأوطان ما ظلّت أوطان الأغراب. أوطان هي ساحة أرض، وليست أوطاناً إلّا في عرف أبنائها الذين كانت لهم مسقط رأس ووتد أبد. ولأنها لا تفهم جرماً اسمه حرب، ولا تريد أن تعترف بجنون اسمه الحقد، آثرت أن تضحّي بالحميم الذي كان لها أباً، لتستجير بالمعبود الذي كان لها بالوتد ربّاً، يقيناً منها بأن السكّين في وطن ربّ الأرباب، أهون من نعيم في وطن الأغراب. وما عراكها معه طوال هذا الوقت إلّا رسالة منها إليه كي يستوعب الدرس وينضمّ إلى ركبها المحموم، بدل أن يعترض سبيلها بصنوف الفنون.

15 ـ الأثر

في ذلك اليوم اعتصر من الزمزمية آخر قطرة ماء دون أن يتبدّى لها خيال في الأفق. لم يكن فناء الماء سوء الحظّ الوحيد في ذلك اليوم، ولكن الصحراء أيضاً عبست في وجهه منذرةً بهبوب الريح. وهو ما خافه وتحصّن منه بقراءة التعاويذ، لأن هبوب الريح لا يعني محو الأثر فقط، ولكنه يشير بحلول التّيه. الجوع يهون إلى جانب الريح، والعطش أيضاً قد يهون، ولكن ما لا يُحتمل هو الريح. فإذا هبّت لتباغت العابر في بطن الصحراء الرملية فتلك مكيدتها الأسوأ، لأن الرمال سلطانها، وذرّاتها سيوفها. وليس له الآن إلّا أن يفلت من أوحال الرمال بأقصى سرعة ليدرك صحراء اليبيس ليس فقط لأن عنف الريح سيكون هناك أضعف، ولكن لأن الأثر في اليبوسة أبقى برغم أن البصمة على الأرض أخفّ. وما عليه إلّا أن يفعل المستحيل كي يخرج من الفخّ بأيّ حيلة.

التقط تحت شجرة نخيل حبّات تمر يابس. دسّها في جيب الجلباب بعد أن غامر بتناول حبّة تمر واحدة لأن تناول المزيد

يعني قبول الظمأ، بدليل أن السليل عندما طرده المعبود من الوطن ووجد نفسه في الصحراء توجّه للسماء بنداء: «يا مولاي هبني قُوْتاً، فأنا جائع!»، فالتفت ليجد قامة نخلة تنتصب إلى جواره. اقتات السليل تمر النخل فاشتعل جوف الشقيّ بلهب، فركع السليل ليتوجّه للسماء بنداءٍ آخر: «مولاي! اجعل لي حيلة تطفئ في جوفي اللهب!»، فالتفت السليل ليجد إلى جوار النخلة ناقة، شرب حليبها فانطفأت النار في الجوف. منذ ذلك اليوم صارت الناقة في ناموس الأجيال ناقة اللّه، كما كانت النخلة شجرة اللّه، كما صار التمر والحليب طعام اللّه!

هرجل مسافة طويلة قبل أن تعترضه نخلة أخرى تتشبّث بجذعها ثلاث فسيلات كأنها تحتمي بالأمّ من عدوٍّ مجهول. استلّ المدية المشدودة إلى عضله ونحر إحدى السليلتين ليستخرج الجمّار. كان ذلك شراباً مسبوكاً في طعامٍ أيضاً، قبل أن ينطلق. هرجل يسابق الريح.

تشبّث بتلابيب الأثر قبل أن يباغت الريح ليقطع دابر الأثر. فلا ضلال في سبيل ما بقي في الدنيا الأثر. فما نحن سوى ظلّ والأثر فينا أصل بدليل أنّنا نزول ولا نترك وراءنا سوى الأثر. بل لا نبقى إن بقينا إلّا في الأثر. ناقة اللّه تبخّرت من بين يديه ولم يقبض منها سوى الأثر. أين ناقة اللّه في مسيره هذا؟ أين ناقة اللّه في كل المسير؟ ألم يعش أبداً

مطارداً لأثر طريدة؟ أيستطيع أن يشكّ في الواقع الذي يقول إنه عايش الأثر أكثر ممّا عايش وليّة أمر الأثر؟ وليّة أمر الأثر دوماً شاردة، وحياته معها مطاردة، ولا وجود بين يديه سوى للأثر. الطريدة دوماً شبح، طيف، سراب يتبدّى، ولكنّه يتبدّد؛ أمّا الأثر فوحده بصمة البرهان المحفورة في الأرض. المحفورة في الأرض؟ كلّا! الأثر وسم ليس محفوراً في الأرض إلّا أنه محفورٌ فينا. الأثر المحفور في الأرض شبح بائس للأثر المحفور فينا. ونحن لا نطارد وليّ أمر الأثر لكي ندرك وليّ أمر الأثر. لا نطارد صاحب الأثر لكي ننال صاحب الأثر، ولكن لكي نعزّي أنفسنا بوجود كنوز أبعد منالاً من الطريدة، والأثر هو الآية الوحيدة التي ستقودنا لنحلّ أضيافاً يوماً في هذا الحرم. فما نحن سوى قوم لا نهلك إلّا بما نهوى، كما لا ننجو إلّا بما نخشى، أي عكس ما يتوهّم سواد الناس، لأننا إذا كنّا سنهلك في كل حال، فالأفضل أن نهلك بما نهوى، من أن نهلك بما نخشى. إنها الوصيّة التي سمعها يوماً من عابرٍ مجهول نزل عليه ضيفاً في صحراء «تينيري»، ولم يكتشف أنه لم يكن سوى سليل خفاء يتنكّر في جلد سليل خلاء إلّا في اليوم التالي عندما انقشع دون أن يترك على الأرض أثراً. فتّش في كل بقعة، ولكن لا أثر للأثر. ساعتها أيقن أن الأشباح وحدها بلا أثر. ما لا وجود له وحده لا يخلّف في أرض الدنيا أثراً. فلسنا نحن من يقيم الدليل على

وجود الأثر، ولكن الأثر هو من يقيم الدليل على وجودنا في صحراء الدنيا. والدليل ناقة اللّه التي عاند فيها الأثر، وصاحب الأثر، وتلهّى في الصحراء بحضور أثرها، بل بحضورها في الأثر، أكثر بما لا يقاس من معاندته لناقة اللّه، أو مصاحبته لناقة اللّه، أو لهوه مع ناقة اللّه، مما يعني أن دنياه كانت رهينة أثر لوليّ أمر أثرٍ هو ظلّ لأثر، شبحٌ غائبٌ لأثر، هو شاهد عيان على غياب وليّ أمر الأثر. ونحن لم نكن لنهلك بما نهوى فيما لو تنكّرنا للوهم واعترفنا بالحقّ المستحقّ للأثر لنكتفي بالأثر، بدل الانطلاق وراء الشبح الذي يعد به الأثر، فلا ندركه حتى لو أدركناه، لأنه سيتبخّر بهتاناً ما أن يُنال. لأن الفخّ حقّاً هو أنه لا يُنال. لا يُنال لأن زواله رهين مناله. ولكن الأثر وحده هو الرهان الذي لن يخذلنا في هذا العهد أبداً. لهذا السبب صمّم أن يحارب الريح قبل أن تجرؤ على محو الأثر. لأن فقدان الأثر سوف يعني فقدان الأمل. وإذا فُقِدَ الأمل، فسوف يفقد الجمال المعنى، فلا يبقى للوطن أيّ معنى أيضاً!

يكفي الأثر بطولةً أنه حتّى وإن أخفق في أن يقود إلى جنّة الجنّات المسمّاة في ألسنة الأمم وطناً، فإنه لن يخذل في أن يقود إلى غنيمة كل مسافر وهي: **الماء!**

كل أثر لا يقود إلى الماء ليس أثراً.

16 ـ الانكسار

استمرّ الاحتقان في سيماء الصحراء طويلاً، فسابق الريح طويلاً أيضاً. انتهز الفرصة فانتهب المسافات لاهثاً. قهر السيوف الرملية، وأدرك فسحة اليابسة المفروشة بالحصباء بأسرع ممّا توقّع. في هذه الخلوة، حيث تجثم بعض الأنصاب الحجرية العالية كأنّها أوثان الأوّلين، حدث خلل مريب في مسلك الطريدة: استدار الأثر فجأة وعاد على عقبيه! انحرف غرباً ليرتدّ مسافة بمحاذاة أثر الفرار، ثمّ توقّف. حام في المكان خطوات، قبل أن يتراجع ليُيَمّمَ صوب الجنوب من جديد. فما معنى هذا؟ هل انكسر فيها الجنون فانتوَت أن تكفّر عن خطيئتها وتعود؟ هل استيقظ فيها الإحساس بالعهد فقرّرت أن تتوب؟ هل أفاقت من غيبوبتها في لحظة تجلٍّ فرأت أن تعود لتستجدي الغفران؟

ذاك كان فأل خير، لأنه الدليل على ميلاد عراك. وميلاد العراك برهانٌ على استعادة للصواب الضائع. العراك آية أمل لم تخطر له على بال. في العراك قرأ نيّة في التحرّر من

الأشباح التي تلبّستها فاستبدلتها بالمخلوق الفظيع الذي سكنها، فلم يجد مفرّاً من أن ينكرها، وكلّ ما حاول أن يفعله هو أن يخلّصها من شرّه ويستعيدها من شركه.

قطع مسافة أخرى قبل أن تتعثّر مسيرة الأثر من جديد. طافت حول نفسها في دائرة شاسعة، مدهشة، وربّما مسلّية، كأنّ الشقيّة تلهو، ثم ضاقت بالدائرة حتّى قفلت الوسم بآخر خطوة، ثمّ. . . ثمّ عادت تيمّم صوب الجنوب.

قرأ في المسلك فألاً حسناً: يخفق المسعى إذا انطفأت في القلب جذوة التصميم. السرّ كلّه في الحماس. وهو أكثر من جرّب كيف انشلّ مراراً ما إن ينسلّ الشكّ. لا شيء يفلح إذا تردّدت الإرادة. لا شيء يفلح إذا تدخّلت الوسوسة. لا غاية تُدرك إذا انكسر عظم النيّة وارتدّت القدم إلى الوراء خطوة!

ازداد الأفق اكتئاباً، فتحامل. سفح عرقاً سخيّاً في سعيه الحثيث الذي انقلب عَدْوَاً دون أن يدري، لأن تكشيرة الأفق كانت السيف المسلّط على الرقبة، وعليه أن يكتم أنفاس المسافة بينهما بأيّ ثمن قبل أن ينفجر في وجهه وعيد الأفق. ليس له إلّا أن يضحّي قليلاً كي يدركها. ليس التردّد وحده ما يفضح انحسار المسافة بينهما، ولكن بصمة الأثر أيضاً ترطن بالبشرى.

نزل سهلاً نبيلاً مغموراً بآثار الأوائل، مشفوعاً بأرواح الأمم التي تتابعت في المقام بالمكان، ولكنها لم تترك وراءها

سوى حجر مصقول مشذّب هنا، وسكاكين منحوتة من الصوّان استُخدمت سلاحاً هناك. أليس هذا درساً في «ميدّياغز» (البهتان) الذي يتردّد في ألسنة أشياخ القبائل ليل نهار؟ ألَا تبدو حتّى أطلال الأمم الفانية وصيّة ناطقة تؤكّد عدم جدوى الطمع في المزيد؟ ألم تطرح الصحراء في وجهه طوال السباق الدليل تلو الدليل على بؤس مسعاه ووضاعة تشبّثه بتلابيب القفار الواقعة وراء الحدود؟ ألن تكون النجيبة التي يطاردها ليردّها على أعقابها غصباً أنبل روحاً وأقوى حُجّةً في بلاط هذه الوصيّة الإلهيّة القاسية؟ لماذا عليه أن يتّهمها بالجنون إذا كان الواقع يقول إنه هو المجنون؟ لماذا لا يواجه الحقيقة أخيراً ليعترف لنفسه مرّة وإلى الأبد أنه لا يفعل ذلك حبّاً بها، ولكن حبّاً بنفسه؟ لماذا لا يعترف ببساطة أنه. . . جبان؟ لماذا لا يعترف بأنه أجبن جبان برغم ادّعائه لنفسه بأنه أشجع الشجعان؟ لماذا يذهب الرفاق إلى الموت بخطى واسعة، في حين يستغفل هو القتلة ويستعين بأجنحة ناقة اللّه في الفرار من الجحيم؟ لماذا يحاول أن يقنع نفسه بأنه لم يفرّ من المذبحة جبناً، ولكن لأنه لا يريد أن يموت بالمجّان، لا يريد أن يموت ميتة «أضحية العيد» كما راقه أن يصفها في مجالس الرعاة مراراً؟ فلماذا قاوم؟ لماذا قاوم البطلة التي إذا كانت له طوق النجاة، إلّا أنها لا تنوي أن تجعل من النجاة وطناً، بل معبوداً؟ لماذا لا يمشي في ركابها بدل أن يقاتلها قتالاً كي

يعيدها إلى الوراء مسمّياً ذلك «إعادة إلى صواب» طوال الصراع؟ لماذا يريد أن يقنع نفسه بأن يفعل ذلك حرصاً عليها من تهلكة، في حين أنه لا يفعل إلّا ليجير نفسه من تهلكة، أو بالأصحّ، ليجير نفسه من تهلكتين: تهلكة بتهلكتها وتهلكة أسوأ بفقدها؟ لماذا لا يعترف أنه لا يفعل ما فعل شفقةً عليها في حين يدري بينه وبين نفسه أنه إنّما يرضي أنانيّته لأنه لا يستطيع أن يحيا بغيابها؟ لماذا لا يتحلّى بنصيبٍ من شجاعة فيقول إن حبّه حبّ المستضعفين، في حين يدري أن الحبّ هو حبّ القربان، أو بالأصحّ، حبّ الموت؟ ألم تعلّمه أن حبّ الوطن هو حبّ الموت في سبيل الوطن؟ أليس مخجلاً أن يخدع نفسه بلقب مهيب كالفارس في حين يتلصّص في صحاري الجوار يسترق النظر إلى فيصل الحدود كالرعديد، متشبّثاً بتلابيب عارٍ اسمه النجاة؟ فهل هذا كل شيء في صحيفة الهزيمة؟

كلّا! هذا ليس كل شيء. فقد بلغ به الظمأ للنجاة حدّاً لم يستحِ فيه بأن يدبّر لها ذلك العقال اللعين، فما كان منها إلّا أن تخلّصت منه بتلك البطولة كي تلقّنه الدرس.

فجأة لاح في الأفق شبح.

كانت الشمس قد تخلّت عن كبريائها فركعت لتلثم الأفق الملفوف في ستور احتقانٍ قانية كأنه يعاند مارد الريح في القمقم. في امتداد القوس المشدود نحو الجنوب تبدّت بطلّتها

المكابرة، وقوامها النحيل، منتصبةً في وقفة خاشعة كأنها الصلاة. كأنّها. . . كأنّها رابطت هناك لتنتظره. كأنّها مشدودة إلى الأرض بوثاق العهد القديم المبرم بينهما منذ الزمن الذي لا يعترف به الزمن.

انتابته قشعريرة طاغية في اللحظة التي أفلت فيها مارد الريح من القمقم، ليتبلبل الخلاء بنفحة كأنه يتنفّس الصعداء استعداداً لخوض المخاض.

17 ـ عودة الابن الضالّ

كانت تنتظره! يقيناً كانت تنتظره. كانت تستدرجه. كل الطواف حول نفسها في دوائر السهل كان انتظاراً. كان استدراجاً، ولو لم يكن كذلك هل يستطيع أن يدرك لها أثراً؟ كلّ لحاقٍ بها في المطاردات السالفة لم يكن سوى ضربٍ من إغواء لمرافقتها. كان في كل مرّة دعوة صريحة لم يُحسن قراءتها، وإلّا هل كان يتخيّل أن ينال ناقة اللّه التي تطير بجناحين، بل بالألف جناح؟

كانت تتظاهر بالفرار، ولكنها تتباطأ علّهُ يستيقظ من سباته ويستجيب لندائها. بل لم تتردّد حتّى في أن تلجأ لاستفزازه عندما هاجمته في إحدى الغزوات فاستجار بالجبل القائم كبرزخ بين الحمادة والصحراء الوسطى. وها هي. . .

ها هي تُدبِر. ها هي تعود إلى الوراء. ها هي تهرع لاستقباله. تهرع لملاقاته لأنها كانت تنتظر وصوله. لا تنتظر وصوله وحسب، ولكنها كانت تحدس ندمه. تحدس نيّته في التكفير عن خطاياه. ها هي تقبل. . .

احتضنها. عانقها. مسح دموعاً في حدقتيها النجلاوين المذهلتين، ولكنّه لم يدرِ كيف يمسح من الشعلتين الذكيّتين ذلك الحزن المميت الذي صار في الآونة الأخيرة في عينيها آية. آية في قوامها. آية في سيمائها كلّها. همس لها بالبيان الوحيد الذي لن تعترف في موقف التوبة بسواه:

«سُوْرفيد!» (اغفري لي!).

جاست في وجهه. لثمت بجحفلتها وجنتيه. لثمت أنفه، ثم ذراعه. لمست بلسانها كل مكانٍ انحسر عنه القناع في وجهه. لم تبخل عليه بذلك الصوت الموجع الذي ينطلق من مكانٍ مّا في أعماقها. ليس في صدرها. ليس في حنجرتها. ليس في أيّ مكان من جسمها، ولكن في كل مكان من جسمها. في اللامكان من جسمها. في البُعْد المجهول فيها، فلم يملك إلّا أن يتغنّى بـ:

«سورفيد!».

لتجيبه برطانتها الموجعة التي أحسّها دوماً نزيفاً في القلب برغم أنه لم يجهد نفسه يوماً في ابتذالها بترجمتها في العبارة. عاد يحتويها بين ذراعيه ويهمس في أذنها:

ـ تيدتّنّم! (كنتِ على حقّ). حنحنت تعبيراً عن سعادة. ابتلعت الصوت الآخر، الموجع، الذي لا يطاق، ونطقت بالإشارة الأخرى، ترحيباً بعودة السليل الضالّ، واحتفاءً بتجديد فحوى العهد الضائع.

حشرج بهتملة مبهمة، لأن الحريق في الحلق انتقل إلى اللسان ليصيب العضلة بخلل. حريق جرعة العلقم الذي جفّف الحلق وخنق في صدره الأنفاس وها هو يتمادى فيشلّ فيه اللسان أيضاً.

في الخلاء عوت الريح بصوتٍ منكر خدش حياء الصحراء وغمر الفضاء بغيمة كثيفة من غبارٍ كئيب!

بدأ العراء يحتجب بفعل الغيهب المباغت حتّى غاب الأفق تماماً.

لا يدري كم استغرقت مناجاته عندما هبّت موجة لتنتزعه من الملاذ فتطوّح به بعيداً. صرعته أرضاً بغضبة جنونيّة، ثمّ دحرجته على البساط المنمنم بالحصباء طويلاً، تماماً كما ينتزع الإعصار الشجيرات البريّة من جذورها ليحوّلها كرة من اليبيس البئيس تتدحرج عبر المفازات. وكان يمكن أن يتدحرج هو أيضاً إلى المجهول لو لم تكن له حارس المجهول الذي انتشله من براثن الزوبعة.

تشبّث برقبتها بكلتا يديه، في حين تشبّثت العاصفة بتلابيبه بعنادٍ أيضاً في محاولة محمومة لانتزاعه من الرقبة.

18 ـ الريح

الريح!

إنها خلّه القديم الذي لا يعلم أحد كما علم هو ما لهذا المارد الرهيب من فضل في إبداعِ جنّة الأجيال بأنفاسه السحريّة. جنّة الأجيال المسيّجة بجدرانٍ من عجبٍ اسمه العدم، صار في رطانات القبائل «تينيري» (الصحراء)، وفي هتملات الجنّ «أسوف» (الوِحشة) ليتنازعه هذان الثقلان منذ الأزل، لأن كل قطب يدّعي أسبقيّة الانتماء إليه واتّخاذه الحرم الحرام الذي استقام تالياً في لقبٍ احتفظ بنصيبٍ من القداسة الأولى هو: الوطن!

والفضل في نحت هذه الأرجوحة في الحضيض السفلي المعادي، واستنزال سيماء السماء في ساحتها، إنّما يرجع لداهية اسمه الريح!

الريح! رسول المجهول المجلّل بوصايا الزمان الذي يقبل حاملاً في عبّه بذور الغيوب التي تلقّن الأشجار باللقاح، نافثاً

في المكان الأنفاس التي تطهّر الربوع من الوباء، مشيّعاً المعول الذي يعيد نحت كيان الجِنان الخاوي، مشيّداً جدران العجب التي تحصّن بستان العدم، ولكنه لا يستحي أن يكشف القناع عن سحنته الأخرى فيمحو بكفّه الخرافيّة اليسرى كل ما ابتناه بيده الخرافية اليمنى: يغمر الغمر مهما أحاط، يفني السبل مهما انشقّت، يطمر العمران مهما تعالى، يضيّع الأثر مهما عظم، يطوي صحيفة الزمان مهما اغتنت، ويمحو ما اختطّ مهما تجلّى، ويبيد ما سوّى مهما استكبر؛ كل هذا ليبرهن أنه البهلوان الذي لفّق لنفسه جسداً بذرّات الغبار، برغم أنه الفارس الخفي الذي لا يُدرك له جنس ولا يُشقّ له غُبار!

كم مرّة خاض مع الريح صراع الأبطال فتخطّفه حيناً، وطوّح به في الهواء حيناً آخر كغصن يبيسٍ من عشب البريّة. كم مرّة سمل عينيه بذرّات الغبار، وأضاع في وجهه السبيل، واستدرجه في مراعي الجنوب ليختلس من بين يديه ناقة اللّه، ويميته عطشاً حيناً، وصبراً حيناً آخر، ليبعثه في الصحراء حيّاً من جديد، ليختفي كأنه الكابوس، مخلّفاً وراءه أرضاً بتولاً كأنها حُلُمٌ تنزّل من ملكوت اللّه للتوّ؟

الريح لم يعدم روح اللعب أيضاً. فهو الداهية الذي لا يضيره أن يتسلّح بالمزاج السمج المكلّل بالمُكر أيضاً. ينقطع من أرباع اليابسة دهراً حتّى تكاد كائنات البيداء تلفظ الأنفاس

له توقاً، فيلبّي النداء لا ليجير من الدّاء، ولكنّه يحمل بجنون مستبدّ. يهجم لينتقم. يهجم ليلقّن الدرس بالمجّان. لا، ليس بالمجّان. بل بأغلى الأثمان. يُقبل غازياً ليستولي على المكوس بالجملة، لينال القرابين دفعة واحدة، مستعيناً بأشرّ سلاح وأتفه سلاح معاً؛ أتفه حجماً وأشرس مفعولاً: الغبار!

كم كانت القبائل ستجلّ الريح لترى فيه رسولاً، بل معبوداً، فيما لو تخلّى في طوافه مرّة عن البردعة المنسوجة من ذرّات الغبار!

19 ـ الحسناء

الغبار لم يكتفِ بغسل بدنه، ولكنه سمل عينيه، وغمر منخريه، وغزا رئتيه، واستباح فمه، وسلخ وجنتيه، بروح تلك البسالة التي لم يحسنها حتّى عتاة الجنّ الذين يشاركون أهل الصحراء وطناً اسمه الصحراء.

وكان بوسع شقاوات الريح أن تهون فيما لو باغته وهو يستجير بفوهة بئر، أو يتحصّن بقربة ماء، أو يتأبّط زمزميّةً ملآنةً بالماء، ولكنه يأبى إلّا أن يستجيب لدين البطولة، فيتلقّفه عارياً من كل هذه التّمائم.

أمّا في هذه الجولة فقد فاجأه وهو يعاند بليّة أخرى لم يقرأ لها في رحلته حساباً وهي الحريق. حريق الجرعة المسمومة التي استمرّت تشتعل في حلقه لتحيل البلعوم قشرة مثيلة لطين الوديان التي تتشقّق بفعل الجفاف الطويل. وهو ما سعّر في الجوف ظمأً تضامن مع نفاد آخر قطرة في مخزون الزمزميّة.

لاذ بجيد حسناء الزمان بعد أن أحكم اللثام حول وجهه كلّه بما في ذلك العينين لأنه لم يكن في حاجة إلى عون العينين في ظلماتٍ تحالف فيها حجاب الإعصار مع حجاب المغيب. استجار بقامتها زمناً أملاً أن تهدأ الزفرة الجنونية فتلتقط الأنفاس. ولكن هيهات!

استمات في البداية للزحف إلى الأمام، نحو الأفق المؤدّي إلى فوّهة الحدود في الجنوب، مستعيناً بجرم الحسناء، ولكن عنف الزفير، المتدفّق من ناحية الغرب، صدّه فلم يقطع سوى خطوات شقّها بجهد ناقة اللّه لا بجهده هو. ولكن جنون الزفير ما لبث أن نال من المسكينة أيضاً، فتشكّت بحشرجة مكتومة قبل أن تستسلم وتتوقّف. فسوء الحظّ أَبَى إلّا أن يأتي بالهجمة من ناحية الغرب لتجرف في طريقها كل شيء صوب ركن الدنيا المجابه، نحو الشرق! وليس له إلّا أن يتشبّث بتلابيب الحسناء إذا شاء أن ينجو من شَرَك الريح اللئيم، لأن الحسناء في المحنة دوماً ملاذ أخير، لا لأنها وتد نجاة، ولكن لأنها معقل الخطر. الخطر وحده ضمان لأننا يجب أن نستجير بما نخشى، لا بما نهوى. بدل أن نفعل العكس دوماً فنلتجئ بساحات ما نهوى، ونفرّ ممّا نخشى. الحسناء التي يستجير بها الآن أيضاً خطر، لأنه لم يتردّد في أن يفضّلها على الحسناء التي اصطفتها له الأمّ ليصير بيدها رهينة منذ اليوم الذي نفخ فيها من روحه ليبعثها إلى الصحراء

حيّةً، ليستودعها قلبه، لينصّبها في حياته «دسّينا» أخرى. ففي كل الأزمان وُجدت في الصحراء الفتنة. وُجدت الحسناء. وُجدت «دسّينا» التي تريد أن تنقذ الأجيال بسلطان الجمال، ولكن جمالها ينقلب على الأجيال دوماً شرّاً. «دسّينا» هي التي هزمت بطل الأبطال موسى أج أماستان، وليس جيوش الفرنسيس. قبل «دسّينا» بما يزيد على المائة عام عاشت في الصحراء حسناء أخرى باسم «تاوَتوك» التي استطاعت بدمعة واحدة من مقلتها النجلاء أن تفعل بمملكة الصحراء ما لم يفلح أشرّ الأعداء أن يفعلوه بها على مدى قرون وقرون. إنها الدمعة التي أشعلت الحرب بين شقّ المملكة الشمالي «آزجر» وشقّ المملكة الغربي «آهجّار»، لتزعزع بذلك أركان الكيان الأسطوري المنيع الذي حصّنه الجرمنت بصيتهم منذ أقدم العصور، في النزاع المشين الذي لا يستحي فيه الأخ من أن يسفح دم أخيه، فتضعضع القوم، ونال الوهن الكيان، ليكون هذا العمل الأحمق السبب الذي مهّد السبيل بعد قرنٍ من الزمان لأن يفلح الفرنسيس في كسر شوكة المملكة من جهتي الغرب والجنوب، كما سهّل لدولة بني عثمان في الشمال أن تتوغّل في عمق الصحراء لتبسط نفوذها على «آزجر».

كل هذا البلاء جرّته دمعة الحسناء. كل هذا البلاء هدهده الجمال في عبّه المسكون بالألغاز. هو أيضاً لم يفرّ من أشباح اللعنة لينجو بنفسه كما ظنّ في البداية، ولكنه فرّ لينجو بها،

لأنه لا يدري أن لا مكان للجمال في أرض البلبال. لا مكان لقرين الجمال، لا مكان لحبّ، في وطنٍ يرتع فيه السكّين. السكّين القديم الموروث من ثنايا الوصيّة المستعارة من دمعة الأجيال، من دمعة الجمال!

وها هو يستسلم لمشيئة الجمال من جديد. ها هو يسلّم زمام الأمر بيد الجمال كي يعيده جلالة الجمال إلى وطن الجمال المفقود، لأن الموت في أحضان الجمال، الموت في أحضان الوطن المفقود، دخولٌ في جنّات عدنٍ (كما يسمّيها الفقيه الشهيد)، دخول في جنّات عدمٍ، كما يسمّيها دهاة الأجيال؛ لأنه الخيار الأهون من معاندة الحنين في أوطان المجهول.

الجمال! الجمال! اللغز كلّه في الجمال! الجمال وحده مستودع الألغاز! الجمال وحده سبب البلايا! الجمال وحده عروة الخلاص! الجمال هو مَن وهب! الجمال أيضاً هو من أخذ! الجمال فردوس، والجمال سبب الطرد من الفردوس، لأن الجمال وحده يملك الحقّ في أن يُحيي! لأن الجمال وحده يملك الحقّ في أن يُميت!

20 ـ الأجرام تريد أن تدلي بشهادتها

عوت الريح بمعزوفتها الشرّيرة طوال الليل. المعزوفة لا تكون شرّيرة إلّا بقدر ما تحمل من غبار، ولا تغدو معزوفة الجنّ (كما تسمّيها الأمّ) إلّا بملاقاتها في الخلوات وجهاً لوجه. أمّا إذا زغردت في حِمى الأخبية، أو في بطون الغيران، فإن معزوفة الريح تنقلب لحوناً تستدرج الأحلام، وتدغدغ الحواس لتوقظ الحنين في الوجدان. وعليه أن يعترف كم هي الريح ضيف حميم في تلك الغزوات التي اغتنمتها الذاكرة في مختلف السنوات لتكون له زاد أسفار يستعيدها كلّما انقطع به السبيل في المراعي، أو في الحجّ إلى «بيلما» في غزوات الملح، تماماً كما يستعيد أشعار الصبايا في الاحتفاء باستواء القمر بدراً، ليستعين بها كلّما عصف به الشجن.

ولكن الضيف الحكيم لا يلبث أن يتنصّل من حكمته ليكشف عن وجهٍ آخر، معادٍ، ما أن ينوء بوزر الغبار، ما إن يستزيد من زاد الذرّات المسعورة، ليحاكي أدعياء الزهد الذين

يجوبون الصحراء لتسويق دين الرباط، كما يشيعون، ليسلبوا البسطاء أرزاقهم، فلا يجد الأبرياء سبيلاً لكشف الزيف إلّا بما يحمله من متاع: فكلّما عظمت أثقال الزّاد تناقصت فرصة الضيف في نيل شرف الانتماء إلى ملل الرباط، وكلّما خفّ وزن الأوزار، أو انعدام الزاد، آمن الناس بالعابر مرابطاً في سبيل اللّه!

في مسلك الريح قرأ أيضاً خصلة أخرى. فهو في العراء الخاوي يعوي عواء الذئاب الجائعة، ولكن النغم في المعزوفة يستقيم في رنينٍ آخر محكومٍ بديدَن الجرم الذي يعترض السبيل، كأنّ الأجرام لمعزوفاته أوتارٌ تُملي شروطاً لتحقن اللحون بروحها هي. كأنّ الأجرام تأبى إلّا أن تستخدم الريح وسيطاً تقول بلسانه كلمتها. تدلي على لسانه بشهادتها، ليغدو جنس اللحن من جنس العقبة! الصخرة لحن، والشجرة لحن، ويبيس العشب لحن، وفوهة الغار لحن، والنواح الموجع في فراغ اللانهاية لحنٌ آخر أكثر فجيعة من كل اللحون.

هذا الجنس من النواح الفاجع كان معزوفة الريح في تلك الليلة بسبب. . . غياب العقبة!

21 ـ السعادة

تحصّن ببدنها كطفلٍ يتشبّث بتلابيب أمّ فزعاً من خطر منتظر. لِمَ لا إذا كانت أمّه بقدر ما كان لها أمّاً، وكانت طفلته بقدر ما كان لها طفلاً؟ لِمَ لا إذا كانت سيرته ترجماناً لسيرتها، كما سيرتها ترجمان لسيرته هو؟ لِمَ لا إذا كانت روحه تسكن بعيداً بعيداً مجاهل روحها، كما كانت روحها تسكن بعيداً بعيداً مجاهل روحه؟ والدليل؟ الدليل الآن ليس وقفة التماهي، ولكن في التماهي الآخر الذي يعرفه ويعجزه اللسان في التعبير عنه الذي جمعهما لحظتها في ذروة المحنة، فلم يملك إلّا أن يستشعر الامتنان للمحنة بدل أن يصبّ اللعنات على رأس المحنة. فهل هذا ما يروق بعض أخيار القبائل أن يخلعوا عليه لقباً غامضاً هو: السعادة!

هو لا يدري، وهي أيضاً لا تدري، وربّما هي بالذّات مَن يدري، لأن من أُوتي القدرة على أن يقول بعينيه، لا بلسانه، وحده مَن يدري، لأنه هو لا سواه من جرّب أن هذه العضلة التي يتباهى بامتلاكها الكلّ، هي أعجز المعجزات عن القول،

بدليل أنها لم تسعفه يوماً أبداً في أن يقول ما يريد أن يقول! أمّا العيون فمعجزة أخرى. العيون المعبود الوحيد الذي نصّبه المعبود في البدن الفاني لكي يفشي السرّ الذي أعجز كل الألسن وكل العقول وهو: سرّ المعبود!

وإذا سُئل في اليوم الذي لا ينفع فيه لا الآباء ولا البنون عن اللّه، فلن يزيد على أن يقول: «ابحثوا عنه في عينيّ ناقة اللّه»!

فمنذ متى تلازما كما يتلازمان الآن؟ منذ متى تسارارا كما يتساراران الآن؟

منذ متى تعانقا كما يتعانقان الآن؟ منذ متى التقيا مجرّد تلاقٍ كما يلتقيان الآن؟ فكل شيء ارتهن في مجهول المؤجّل منذ فرّقت بينهما سكاكين الأشباح. كل شيء تغرّب منذ حاق بالوطن البلاء. لم يغترب الأهل وحدهم، ولا الأحبّة أو الأخلّة وحدهم. لم تغترب حتّى الفئة المفقودة، بل ولا الشهداء الذين ذاقوا طعم السكّين، كما اغتربا هما على الرغم من بقائهما قيد الحياة، أو ما يظنّه الأغيار حياة. عليه أن يعترف لها الآن، ولنفسه أيضاً، أن ما حسبوه نجاةً يوم الفرار من أرض الوطن، لم يكن في الحقّ نجاةً، ولكنه كان لحظة فراق! ذهبا إلى أرضٍ أخرى هي أيضاً صحراء، هي أيضاً أرجوحة أسلاف، ولكنّها لم تكن مسقط رأس، ولم تفز بشرف مشاهدة مراسم قطع السرّة المجيدة، ولهذا ظلّت مراح

أغراب. عاشا في ربع الأغراب على أمل استعادة الحلم الضائع، ووضع حدّ لرحلة الضياع. عاشا زماناً ميّتاً، لأنهما نذرا نفسيهما لليوم المنشود ليكتشفا أنهما لا يعيشان، ولكنّهما ينتظران. رَهَنا كل شيء إلى اليوم الموعود. رَهَنا روحين ظامئتين في قبضة المستقبل وقنعا بالحكم المؤجّل، ولكن المستقبل لم يأتِ بيوم الخلاص الموعود فكان أن نشب بينهما الخصام. لم تحتمل هي الانتظار، لأنها لم تعترف أصلاً بالقسمة المبرمة مع أقسى ما في الصحراء وهو القدر، فقررت أن تتولّى زمام الأمر. استهانت بالأخطار، استهانت بالأشباح، استهانت بالسكّين، بل استهانت حتّى بالعهد المبرم بينهما، فيمّمت صوب الجنوب. وكان يمكن أن تفلت فيما لو... لم يخذلها القلب. بلى! لقد تقاعست في رحلتها لأنها لم تحتمل أن تتركه يعارك أوهامه وحيداً ليقينها بأن الأوهام أيضاً يمكن أن تتحوّل حقيقة إذا استعنّا عليها بقرين. تقاعست فانشلّ يمين الإرادة بسوس الشكّ، فأدركها. أدركها في تلك المرّة لتبدأ ملحمة الكرّ والفرّ الدامية. وها هما الآن يتسامحان ويتسالمان ويتناسيان رغم أنف الريح، ورغم أنف الظمأ، ورغم أنف الجوع، لا لشيء إلّا لأنّهما متّفقان على تجديد العهد! متّفقان على الرجوع، لإيمانهما بأن الأمل في استرداد الوطن الضائع يشفي من كل داء حتى لو كان هذا الداء شبح الأشباح التي تلوّح في الهواء بنصل السكّين!

22 ـ الماء

أطلق أنيناً عميقاً أدهشه ما إن سقط في أذنه. لقد عاند الحريق في الحلق طوال الوقت، ولكنه تمادى بدل أن ينطفئ. كان مفعول المرار الذي التقمه في جرعة ماء تلك البركة المشؤومة يجتاح البدن كلّه كأنّه جرعة سمّ لا جرعة ماء. استشعر جفافاً في البلعوم ظلّ يتضاعف ويتوغّل في البدن سارياً في الدم حتّى أتى على آخر أثر لرطوبة، ليبلغ الظمأ حدّاً لم يعد يطاق، وما الأنين المباغت إلّا الترجمان لإمام الجبابرة في كل الصحراء: الظمأ!

انعطفت بجيدها الخرافي لتحتويه بلفتة تعاطف حميم قبل أن تطلق أنيناً عميقاً أيضاً كأنّه رسالة استجابة لنداء الوجع. لم تكتفِ بالأنين، ولكنّها جاست بجحفلتها في ثنايا اللثام حتّى أدركت وجنته، ثم شرعت تلثمها بلسانها المخشوشن بحماس. مدّ يده ليتحسّس فكّيها العاريين وعينيها المغمضتين علامة امتنان، ولكن لدغات ذرّات الغبار دفعته لأن يسحب

يده ليدسّها في كم الجلباب. كانت تلك وخزات بأسنانٍ حادّة كالأشواك ممّا يعني أن الريح تمادت في العدوان لأن ما وخزه لم يكن ذرّات الرمل، ولكنه حبيبات الحصباء! فالريح لا تجرؤ على التسلّح بالحصباء في الصحراء إلّا إذا فقدت صوابها، وإذا فقدت الريح صوابها فإن عدوانها عادةً لا يدوم طويلاً. فالحصباء هي سهامها المخفيّة في قاع الجراب، ولا تحتكم لساحتها إلّا في حال فقدت الحيلة ولم يبقَ لها إلّا أن تلفظ أنفاسها الأخيرة!

كل شيء في الصحراء يلفظ أنفاس النزع الأخير إلّا شيء واحد لا يلفظ أنفاس النزع الأخير، لأنه وحده المَلَك المخوّل بنزع أنفاس النزع الأخير، لا بلفظ أنفاس النزع الأخير. ذلك المَلَك هو: الظمأ!

كل شيء في الصحراء ينهزم. الظمأ وحده لا يعترف بغير الغلبة ديناً. لكل شيء في الصحراء ترياق، الحرّ، القرّ، المرض، الجوع، الوجد، الحنين، حتّى الحنين، حتى الحنين يصير له الوطن ترياقاً، إلّا الظمأ فحسب بلا ترياق، لأن السماء التي تجود بماء الروح الذي يسمّيه دهاة القوم حريّةً، لا تستنزله إلّا بصفقة تنال بها حرية الجسد الملقّبة باسم الماء في المقابل!

فمشيئة الصحراء هي التي قضت بأن يغترب الماء حيثما استعارت الحرية جسداً لتستوي في جرمٍ اسمه صحراء، لأن

الماء مع الأحجية المسمّاة حريّة كانا في خصام منذ الأزل، والعبودية وباءٌ لا يستشري إلّا على شطوط المياه!

أمّا الظنّ بامتلاك الماء والصحراء في قمقم واحد فهو كالظنّ بامتلاك اللّه وعدوّ اللّه إبليس في قلبٍ واحد كما راق الفقيه الفقيد أن يتندّر دائماً في لحظات التجلّي!

فليس لمن ارتضى المقام في الجنّة المحروسة بجدران العدم (كما يسمّيها الدّهاة) إلّا أن يقبل بالظمأ خلّاً يستطيع أن ينقلب في أي حين جلّاداً يستمرئ أن يكتم أنفاس مريديه شفقةً عليهم من ألم التنقّل بين الأنام على قدمين!

23 ـ الذهب

كان يعاند آلام الحلق، وخواء الجوف، وأنفاس الغبار التي تكتم الأنفاس، وغزوات النعاس عندما وقف فوق رأسه ثالوث الزبانية، كأنّهم طائفة من قبائل الجنّ تجسّدت لتحتلّ لنفسها حيّزاً في المكان في غمضة. تطلّعوا عليه بالسيماء المعادية دوماً قبل أن يكشّر في وجهه صاحب الشفة التي تتدلّى كجحفلة بعير، وهو يتوعّده بنصل سكّينه الفظيع. إلى جواره وقف صاحب البندقية وهو يبتسم بغموض. على الجانب الآخر من ناقة اللّه وقف الثالث بقامته القصيرة كأنّه القزم. انحنى صاحب الجحفلة المنكرة ليحدّثه بصوت غريب كأنه دقات طبل: «أنت في وضعٍ لا تحسد عليه، ولكننا نستطيع أن نعينك في سبيل استرداد كنزك إذا وعدتنا أن تعيننا في استرداد كنوزنا التي أخفاها فقيهك اللعين!». تبادلا نظرة مزمومة قبل أن يضيف: «أنت تدري ما أعني!». همّ بأن يجيب، ولكن خوفاً غامضاً كأنه إلهام استبدّ به فجاة فأصاب عضلة اللسان في فمه بالشلل. عاد صاحب الجحفلة يتكلّم:

«ألم تخبرنا بوجود كنوزك في أحشاء هذه الدابّة؟ سوف نستخرجها لك مقابل أن تدلّنا على مخبأ كنوز الفقيه التي سرقها جدّه منّا قبل أن تدركه لعنة سحرتنا هناك في مكّة!».
حاول أن يحتجّ. حاول أن يستنكر. حاول أن ينكر ما صرّح به في حضرتهم مرّة، ولكن اللسان لم ينطق، تماماً كما خذلت الطلقة صاحب البندقية فلم تنطلق في ذلك اليوم لتحرمه ارتياد تلك الآفاق التي وعد بها عمق السماء الزرقاء فتمنّى أن يضغط الوغد على الزناد لكي يكتمل المشوار فتتحقّق غمضة العجب العجاب التي لم يعرف لماذا خامره اليقين أنها كانت الغنيمة المنتظرة التي سار لنيلها في كل دنياه.

ولكن إمام الزبانية لم ينتظر. قفز ليضع النصل في النحر! فشلّت فيه الفجاءة كل شيء. شلّت اللسان والصوت والحيلة وكل عضوٍ في الجسد.

أحسّ بالنصل يخترق نحره هو، والدم ينزف من شرايينه حارّاً، شحيحاً، لزجاً، ليسيل على يديه ويغمر صدره العاري. فتح عينيه فأدهشه أن يراها تنتصب بجيدها الخرافي كأنّ النحر الذي يخوض فيه النصل الشره ليس نحرها، والدم الذي يتدفّق ليس دمها. حاول أن يصرخ، ولكن شبح الشرّ هو الذي صرخ عنه بالإنابة: «ألم تخبرني بأن ذهبك هناك؟ أنت لم تخطئ لأن ما هو الذهب إن لم يكن ماءً؟ أنت الآن في أشدّ الحاجة إليه؟ ستشرب الآن الدم، ثم ترتوي من الكنز الآخر الذي أخفته لك

معشوقتك في بطنها انتظاراً لهذا اليوم، لأنه ما جدوى الماء المخزون في الكرش إن لم يُجِر من ميعاد مثل هذا اليوم؟». قاوم الشلل لكي يهرع لنجدتها. قاوم العجز كي يوقف النزيف الذي لم يتدفّق من جسدها كما تدفّق من جسده. ولكن الشبح لم يرحمه، بل لوّح بالنصل الدّامي قبل أن يحشرج في وجهه: «لا تظنّ أنّي أفعل ما أفعل حبّاً بك أيّها الأبله، أو شفقةً عليك، ولكنّي أفعل ما أفعل حرصاً على حياة الشاهد الوحيد الذي سيدلّني على ذهبي المسروق!».

بدأ يختنق. النصل استنزف فحوى المستودع فعاند ليلتقط الأنفاس. أنفاس النزع الأخير التي يريد الشبح أن يبعثها فيه بجرعة الدم أوّلاً، ثمّ... بجرعة الماء المحفوظ في خزنة الكرش ثانياً، ليرتوي من الظمأ. يرتوي بدمها كما يفعل كل العابرين إذا انقطع بهم حبل النجاة. يرتوي من خزان الكرش كما يفعل ضعاف النفوس من فرسان الزور بمطاياهم التي لم تكن لهم في الأسفار مطايا بقدر ما كانت خلّان عمر. الإحساس بوصمة هذا العار هو ما أصابه بالمسّ الذي أحياه بعد وفاة. الإحساس بالعار كان النصل الأقوى من نصل الأشباح الذي حرّر البدن من سلطان الشلل، فانطلق اللسان بصرخة كأنها الطلقة. هبّ واقفاً وهو ما يزال يردّد نداء الاستنكار، فهبّت هي أيضاً لتردّد وراءه صيحة الاستنكار. هرع إليها ليحتويها بين ذراعيه. يلثم وجهها بشفتيه، ثم يتفقّد

النحر، وكل الجسم المنتصب بين يديه، بحثاً عن طعنة النصل، أو أثر الدم. جاب بيديه البطن أيضاً بحثاً عن الجوف المبقور حيث المستودع الذي يخزّن الكنز.

كان ما زال يلهث ويتزلزل برعدة عندما أدرك أن المذبحة لم تكن سوى رؤيا عاصية في كابوسٍ مميت.

24 ـ الأسر

أوّل ما تبيّن، بعد الصحوة من الغيبة، هو تضعضع أنفاس الريح. لم يستشعر في يديه أو في ذراعيه الحاسرتين وخز الحصباء. لم يواجه العنف المجنون في هبّات الإعصار الذي طرحه أرضاً في زفرة الاستهلال. ولكن الوهن لم يصب الكثافة في الغبار، كما لم يسحب البساط من تحت أقدام الظلام. حاول أن يستجمع في الفم لعاباً كي يبصق الرمل الذي علق بالفم، ولكن أعجزه أن يعتصر اللعاب. في المنخرين أيضاً احتشد الغبار. اكتسح الغبار العينين رغم أنف اللثام. فالغبار قدر الصحراء. في الصحراء لا عاصم من الغبار. الربّ الذي سوّى الصحراء صحراءً ليس الشمس. ليس غياب الماء. ليس الريح أيضاً، ولكنه الغبار. الريح مطيّة، ولكن الغبار هو الفارس الذي يمتطي المطيّة. الريح رسول، ولكن الغبار هو فحوى الرسالة. الريح في العهد روح، ولكن الغبار في الصفقة هو الكيان. كلّ شيء في الصحراء مريد، ولكن الغبار وحده في العرش سلطان. فلا

شيء يمكن أن يُخفي الغبار، تماماً كما يستحيل أن يُخفى شيء عن جلالة السلطان!

لا ينسى كيف تعجّب مرّة بحضور الفقيه من سلطان الغبار الذي يخترق حتّى جدران القمم ليكتم أنفاس ضحاياه، فما كان من الرجل إلّا أن تضاحك قبل أن يجود بتعقيب يقول: «كيف يعجز الغبار عن اختراق جدران القمقم إذا لم يعجز في اختراق أبدان الأمّهات ليسهم في تلفيق طين الأجنّة؟». ولكن الأدهى من أن يصل الغبار إلى بطون الأمّهات هو أن يفلح في السطو على بحر الصحراء القديم ويقطع أثره من الأرض بكسوة كفنٍ منسوجٍ من ذرّات رمل، ليقلب بذلك الآية رأساً على عقب، فيصبح بحر الغمر العظيم، بحر الرمال العظيم، لأن شرع هذا الداهية أن يمحو اليوم كل ما ابتنى بالأمس، ليقينه بأنه لن يملك الحقّ في أن يحرّر اليوم، إذا لم ينصب بالأمس الشَّرَك!

تفقّد السليلة براحة الكفّ فهاله كم عانت من غزوة الجبّار: كانت الرموش حول عينيها محاطة بطوق من ذرّات الغبار تتيبّس بفعل الدموع التي انهمرت من مقلتيها طوال الليل. حول الجحفلتين أيضاً تجمّع اللئيم في سيورٍ كأنها أسورة طينية. عاند ليجرّدها من الأدران حول العينين، ثم حول الشفتين وهو مغمض العينين رغم عصبة اللثام، لأن لا جدوى من استيضاح الأشياء إذا كان الليل لا يحجب الرؤية

بالظلمات فقط، ولكن بعتمة الغبار أيضاً. أمّا الظمأ فهو الحجاب الأسوأ، لأنه لا يكتفي بأن يعمي البصر، ولكنه يعمي البصيرة إلى جانب البصر. هذا الظمأ الذي لم يكن ليكون لو لم يتدخّل الغبار لينسج له كياناً جعله يدبّ على الأرض بقدمين!

لا يدري الآن ما إذا كان قد أخطأ أم أصاب عندما فضّل أن يسرع لإدراكها راجلاً لكسب الوقت، بدل أن يلتجئ إلى المرعى حيث ترك الرفاق كي يسرّج وراءها مطية ليضيّع أنفس كنز في حال أي مطاردة وهو: الوقت!

ولكن عليه أن يعترف لنفسه الآن أن ثمّة كنزاً أنفس من كنز الوقت لا في حال أي مطاردة وحسب، ولكن في حال أي حال ألَا وهو: الماء!

فكلّ طريدة يمكن أن تُنال في الصحراء بوجود الماء، ولكن لا وجود في الصحراء لطريدة يمكن أن تُنال بغياب الماء مهما حضر الوقت. ذلك أن في الصحراء دوماً متّسعاً من الوقت. بل الصحراء لم تكن يوماً سوى فسحة من الوقت. فسحة هائلة من الوقت تتناسب مع الفسحة الهائلة من المدى، ولكن حلفهما يتحوّل في طريق العابر عدوّاً لدوداً إذا لم يستعن عليهما بالتميمة الوحيدة التي لا غنى عنها في حُمّى هذا الكفاح وهي: الماء!

فماذا فعل هو؟

هو فعل العكس. ضحّى بالتميمة وذهب ليعارك الحلف اللدود بيدين عاريتين. ولهذا وجد نفسه أسيراً في قبضة أخبث الخبثاء الذي لم يعجزه أن يسرق حتى من الأرض روحها ليحيلها صحراء جرداء. وقع أسير الغبار!

25 ـ جنّاتُ عَدَم

لا يدري متى ولا كيف غفا. ما يدريه أنه غفا في حماها، وعندما استيقظ وجد نفسه في ركنٍ آخر، من أرضٍ أخرى، لا تمتّ بصلة إلى بساط الجنّ الذي طاف به أركان الصحراء ليرمي به في زوبعة خارج الصحراء. كان الضوء البكر يسري في قوس الأفق مبشّراً بميلاد كوكب العجب في سماء عارية، وادعة، تنكبّ على مدىً هاجعٍ، مستسلمٍ لسكونٍ عميق يدلي بالشهادة القائلة بأن قيّامة البارحة لم تكن سوى حلم شرّير في كابوسٍ لعين!

تطلّع حوله فوجد سيفاً رمليّاً حقيقيّاً بجوار الناقة من ناحية الغرب. على الجانب الأيسر، على بعد خطوة واحدة من ملاذه، نما عِرق آخر هزيل بالمقارنة مع الرابية المريبة التي ابتنتها الريح بكفّ الغبار لتكون لهما بمثابة ضريح!

حاول أن ينهض على قدميه لينفض عن لباسه ذيول الغبار، ولكن خواءً عنيداً أصابه بالشلل. خواء؟ ربّما لم يكن خواءً،

ولكن جنس من وهن. هل هو الجوع؟ هو جوع يقيناً، ولكنه جوعٌ مشفوع بما هو أسوأ من الجوع. مشفوع بمكيدة الغبار الأبدية: الظمأ!

استخرج من الجيب حبّات التمر التي التقطها من تحت نخلة شاردة قبل اجتياز الصحراء الرمليّة الوسطى في رحلة لم يقطعها بالأمس القريب، ولا حتّى بالأمس البعيد. الرحلة التي خيّل له الآن أنها حدثت في زمنٍ بعيد، زمنٍ منسيّ، زمنٍ لم يعشه في الواقع. زمن عاشه في الحلم، وربّما لم يعشه في حلم، ولكن عاشه في حياة أخرى، في دنيا أخرى، والدليل هو حبّات التمر بين يديه. حبّات التمر المستعارة من بستان الوطن المفقود! من بستان الوطن الذي ظنّ أنه لم يفعل بنفسه كل ما فعل إلّا للوصول إليه. إلّا للعودة إليه، إيماناً منه بأن لا أحد يجرؤ على الذهاب إلى وطنٍ منشود ما لم يكن هذا الوطن هو الوطن المفقود يوماً. وما الاستماتة في السعي إليه إلّا الدليل على عدم الاعتراف بطبيعة الفقد فيه ليكون الوطن المستعاد بدل الوطن المفقود. فأين هو الآن من الوطنين الخالدين؟

هو لا يعلم الآن في أي برزخ هو، ولكن ما لا يُخفَى عليه هو أن لا وجود في أرض الأنام لجنّات عدن (التي يتحدّث عنها الفقيه الشقيّ) ما لم تكن جنّات عدم (كما ينعتها دهاة

القبائل). ولا وجود في أرض الأنام لجنّات ما لم تكن هي الوطن، ولا وجود في أرض الأنام لوطن ما لم يكن الوطن مسقط رأس مريد الوطن.

26 ـ نفحة المُحال

شدّد قبضته على حبّات التمر غائباً. كان يدري أن تناول حبّة تمر سوف تضيف لهباً جديداً على لهب حلقه الجريح. حبّة التّمر ستكون للجسد قُوْتاً، ولكنه لن يضمن ألّا تكون له سمّاً أيضاً، كما كانت له جرعة العلقم من مستنقع الدم سمّاً آخر. حبّة التمر قوّة حقّاً، ولكنّها القوّة التي تستهلك النصيب الأوفر من الكنز المفقود. فلماذا لا يستعين على الظمأ بالاستغناء عن القُوْت كما يليق بالشجعان؟

ناقة اللّه وحدها تملك الحقّ في التقام القوت لأنها تملك في جوفها النصيب الأعظم من مخزون كنز الكنوز.

استعان برقبتها ليقف على قدميه. داعب كل جزء في رأسها قبل أن يدسّ حبّات التمر بين فكّيها. في عينيها فزّت دمعة إمتنان قبل أن تشرع في طحن الغنيمة الصغيرة فيتبلبل السكون المهيب بصوت فكّيها وهي تسحق قطع النوَى المخفيّة في حبّات التمر.

برز أوّل شعاع فحدّثها بصريح العبارة:

ـ إذا لم تبلغي بنا «آكوكاس» قبل حلول المغيب، فلن أضمن لك بلوغ الوطن أبداً!

طاف حولها. تفقّد بدنها كلّه. نزع من الوبر بعض الأشواك، واستأصل قُراداً تشبّث بعجيزتها، قبل أن يمسّد سنامها الهزيل الذي أباده الجوع حزناً على فراق الوطن. فزّت من مقلته دمعة.

عاد يعاند سرّ الوقت، وسرّ الماء. قال لنفسه أن لا وزن للوقت في حال وجود الماء، ولكن الوقت يغدو أنفس من كل نفيس في دنيا الصحراء في حال غاب الماء.

ترنّح قبل أن يستجير ببدنها. مكث برهة ثم وثب خلف السنام. استنهضها بقدمه فهبّت واقفة. بذل جهداً في ترويض لحن اعتاد أن يترنّم به ليحثّها على الفرار سنوات النعيم في صحاري الجنوب في العهد الذي سبق هجمة الأشرار.

أصاخت السمع لحظة كأنها تستعيد ذكرى الزمن الضائع، ثم رفّت بالأذن اليمنى إيذاناً بتلبية النداء المبثوث في الوصيّة.

بعدها لاحظ كيف توتّرت فيها كل عضلة ليفزّ من جسدها المستنفر عرقٌ حادّ الرائحة. ثمّ... ثمّ فرّت. بعد قليل استعارت جناحين استطاعا أن يطويا السراب الذي تدفّق في الخلاء ما إن استوى قرص الشمس فوق الأفق.

صمد خلف السنام ببسالة، ولكن ما لم يقرأ له حساباً هو غياب السنام. ما خذله هو السنام. لم يجد ما يتشبّث به بسبب

اختفاء السنام. بحث عن الوبر، ولكن الوبر أيضاً ذهب بذهاب السنام.

قاوم مسافة طويلة قبل أن يبدأ الدوار. بلغ الخواء الخفيّ حدوده القصوى، فأعجزه أن يصمد فوق السنام. ربت على جنبها بعنف ليوقظها من رقصتها. من وَجْدها. من جنونها، كما اعتاد أن يفعل عندما يريد أن يلجمها. عندما يريد أن يعيدها إلى صوابها. ولكن ظمأها إلى الوطن أعماها عن الإشارة. الظمأ إلى الوطن أفقدها رشدها، كما أفقده الظمأ إلى جرعة الماء رشده، فواصلت تحليقها في الفراغ المغسول بشعاع الكوكب الوليد من رحم الليل، في نهارٍ وليدٍ من رحم الإعصار، في مدى وليد اللابداية واللانهاية.

الآن فقط اكتشف كم كانت مهزولة. الآن عندما غاص في بدنها بأظافره بحثاً عن وبر أو نتوء يستجير به. اعترضته الضلوع الناتئة المختبئة خلف الوبر الهزيل كأنه الزّغب، فاستعان بها مسافة أخرى. ولكن الخواء في الجوف، والحريق في الحلق، والظمأ الذي جرّد العروق من آخر قطرة بلل، زلزل الكيان، وأصابه بالدوار. في لحظة أخرى انتابته نوبة غثيان. ولكن الإحساس بالهشاشة صار له عوناً. الإحساس بالخفّة كأنّه ريشة طير تتناقلها الريح في الفضاء، بل الإحساس بخفّة الطير، بخفّة العصفور وهو يحلّق كذرّة غبار. لم يعد للأرض وجود. لم يعد للصحراء وجود. لم يعد

للسماء أيضاً وجود. لم يعد لأي شيء وجود. هو أيضاً لا وجود له في الوجود. فهل هذا العجب هو ما يسمّيه التّقاة حرّيةً؟ أم أنّه هو فورة النشوة التي يتغنّى بها مرابطو الطريقة القادرية ليسمّوها الوَجْد حيناً، أو الحضرة حيناً، أو الحال أحياناً؟ أليس هذا هو الإحساس الذي عرفه في المرّة التي فرّت به من شراك الأشباح؟ كلّا! هذا إحساسٌ لم يعهده ولم يعرفه. إحساسٌ تحرّر فيه من المطيّة. المطيّة تلاشت، لأن ناقة اللّه لم تكن يوماً مطيّة، ولكنّها القدر الذي سكنه مرّة، ولم يفارقه يوماً. وهي لا تحمله بقدر ما يحملها. لم تحمله يوماً بقدر ما حملها دوماً. وها هي تتبخّر الآن لتحلّ فيه ويحلّ فيها، لأن تلك معجزة غياب المكان، والسباحة في اللامكان، والحضور في حدٍّ مجهولٍ لم يكن سوى البُعْد المفقود كما ينعته دُهاة الجنّ الذين يعبرون الصحراء متنكّرين في أجرام المريدين. في نفحة المحال تبدّد الخوف. تبدّد الحزن. تبدّد حتّى سُوس الروح المميت المسمّى حنيناً. حتّى الظمأ لم يعد له حضور. حتّى الظمأ انقشع كما انقشع في الصباح الإعصار. لم يعد مهدّداً بأشباح اللعنة. لم يعد مهدّداً بكل ما يحسبه الناس أخطاراً. لم يعُد مهدّداً حتّى بالشبح الأفظع الذي سمّم حياة الأجيال المدعو في لسان القوم موتاً...

27 ـ لغزٌ اسمه الإنسان

ما حدث في تلك المهلة هو ما لا يستطيع أن يحدّث به أحداً، لا لأنّ العضلة المسمومة المسمّاة لساناً أعجز من أن تفعل، ولكن لأن الخوف من قصاصٍ مجهول كان تحريم الحدود القصوى الذي لم يملك حقّ الإخلال به، بل ولم يملك حقّ حتّى استعادته لنفسه ليختزنه سرّاً مبهماً مثله مثل المعجزة التي يستطيع أيّ مخلوق أن يعيشها، ولكن المجهول يعجزه أن يرويها؛ كما لا يستطيع أن يستعيدها لأنه حينئذٍ سيشكّك فيها. ولكن...

ولكن ما لا يستطيع أن يشكّك فيه، بعد عودته المخيّبة للآمال، هو حلوله ضيفاً ثقيلاً في بلاط مملكة الأرض، محشوراً في حبسٍ بغيضٍ اسمه الجسد، مصاباً في هذا الشَّرَك المتقن بعطب. وكان من حقّه، لهذا السبب، ألّا يستعيد صوابه إلّا بعد جهد، ليتساءل بعجب عن سرّ ما حدث.

في البدء جاهد في استنطاق الذاكرة كي يستعلم من جنابها عن السلالة، ثمّ أخضعها لمساءلة أقسى في استفهامه عن

الهويّة، ثمّ استجوابٌ آخر مستفيض عن المكان، وعن الزمان، وعن العلاقة، وعن المهمّة. .

كان من دواعي سروره بالطبع أن يعلم من المساءلة الأولى أنه بالانتماء إنسان، وليس ما تخلع عليه الأقوام لقب حيوان. وكان أن استشعر في غيبوبته إحساساً كالفخر عندما علم في المساءلة الثانية أنه سليل صحراء، وليس سليل عمران. ثم نازل نشوةً خفيّةً كأنّها السعادة عندما أُحيط علماً بأنه ليس نكرةً مجهولة، ولكنه حامل لوسام اسمٍ جليل هو: أسيس الذي وإن راعه في المعنى، إلّا أنّه هوّن عليه غياب الاسم ليقينه الخفيّ بأن ما لا اسم له هو ما لا وجود له، وأَنْ يحمل اسماً مهيباً يحمل دلالة فاجعة كـ«الألم»، أفضل من أن يعدم الاسم، ليعدم الوجود بعدم وجود الاسم. ولكن الصدمة تجلّت في هبة الذاكرة في الجواب عن المسألة الرباعية الأركان (المكان والزمان والعلاقة والمهمّة) لتكون بمثابة النبوءة التي أبطلت مفعول كل البشارات السابقة، فانقبض وتشاءم: لماذا صار الزمان هو الجلّاد في حلفه المشبوه مع قرينه المكان، ومع مريديه الآخرين العلاقة ثمّ المهمّة؟

لا يدري. ولكن ما يدريه أن ألم الجسد، الناتج عن خللٍ مجهول حتّى تلك اللحظة، لم يهيمن إلّا بعد تلقّي النبوءة عن الرباع، لأن بفضلها استعاد كل شيء سبق حقيقة البرزخ

المحرّم الذي لا يُسمّى ولا يُحاط به علم دون قصاص مهول. استعاد الزمان المشؤوم الذي سيكون فاصلاً جسيماً في سيرة أمّة الأمم التي لم تصر ضحيّةً إلّا لاعتناقها دين التخلّي والفرار بغنيمتها إلى أبعد الأركان. استعاد الزمان المشؤوم الذي يدري أنه سيحظى بلحون الأشجان في أشعار حسان القبائل ليصبح عام 1963 هو وثيقة الحداد في تاريخ الأجيال!

والمكان؟

بليّة المكان مستعارة من جعبة الزمان أيضاً، لأن وجوده في فيافي صحاري الشمال، بعيداً عن جنّات مسقط الرأس، لم يكن ليكون لولا الكابوس الذي لم يعد الرعيان، ولا أبناء القبائل، يعرّفونه إلّا بالتاريخ المعتمد في تقويم نصارى الفرنسيس لأنهم هم الذين اختطّوه في رقم بليد وشرّير هو 1963 من يوم الممات، لا يوم الميلاد!

أمّا أكثر أركان الرباع أحزاناً فهو ركن العلاقة، لأن ركن الرباع الرابع كان سيفقد المعنى لولا وجود (في دنياه) لمخلوقٍ كناقة اللّه؛ لأنّ... لأن الغاية هي أن يحقّق لها حلم العودة إلى ربوع وطنٍ شقيّ صودر غدراً بحرف السكّين!

ولكن ها هو الجسد يخذله فينتكس في منصف الطريق. وهو الذي كان دوماً في شكٍّ من هذا العدوّ، وها هو ينتهز الفرصة لينصب له العقبة التي لن يغتفرها لنفسه أبداً.

الجسد. . . إنه الفخّ الذي أتقنته مملكة الأرض لتسفّه فيه الحُجّة التي رآها منذ قليل سبباً للفخر، وهي الانتماء إلى هويّة لغز مغرٍ وثريّ اسمه: الإنسان!

28 ــ وطن اللّه

ما لم يشكّ فيه هو الهزّة التي أعقبت السّقطة. هزّة في الأعماق لا تقارن إلّا بانهيار جدارٍ مّا، هناك، في الأعماق. والغيبة كانت علّة الانهيار. لم يدرِ كم استغرقت الغيبة، ولكنّه لا ينسى أن استجواب الذاكرة لم يبدأ إلّا بعد الميلاد من رحم الغيبة. وكلّ الجدل مع الذاكرة حدث في المهلة السابقة على خوض معركة الجسد التي استهلّها بمعاندة الوجع في الذراع حيث استقرّت المدية مشدودةً بسير الجلد. استمات حتّى استطاع بثّ أنفاس الحياة في العضو المشلول بالألم، وربّما بنصل المدية، وربّما بخللٍ أعظم شأناً لم يكن ليعرف له سبباً دون استكشافٍ لم يجد له حيلة لسببٍ آخر هو العجز. استشعر وجود ذرّات رملٍ في الفم مجدوحةً بمذاقٍ مريب في اللعاب. بذل جهداً كي يبصق التراب وهو ما يزال منكبّاً على وجهه في الأرض. عاد يحاول اكتشاف سرّ الوجع في الذراع فصعقه ألمٌ لا يُطاق. لحظتها استنجد بالحدقة. فتح عينيه فعاد يغمضهما في ومضة. وخزه وميض الشعاع الساطع المتدفّق فوق ذيول

سرابٍ أغرق الخلاء كلّه. شيّع رأسه ببطولة مستعيناً بمرفق اليد الأخرى قبل أن يحقّق بطولة أخرى بفتح عينيه مرّة أخرى. حدّق طويلاً، معانداً الدوار والغثيان. فوق الغضون التي خطَّتها الريح بقلم الغبار، فوق وسادة الرمل الوضيع، أبصر البصقة. أبصر الدمِ في البصقة!

لم يكترث، لأن الألم في الذراع كان حتّى تلك اللحظة هو الهمّ. احتال حتّى استطاع أن يتفقّد الذراع اللعينة مستعيناً بالذراع الأخرى. انتزع المدية من الغمد، ولكنّه لم يتوصّل لسبب الألم، لأن المفاجأة كانت تنتظره عندما حاول زعزعة الجسد لينهض، فعصف به الدوار من جديد. جاهد لالتقاط الهواء لحظات ثم عاد ليبصق اللعاب الدّامي؛ لعاباً ممزوجاً بذرّات الرمال ومشفوعاً بسيماء بركة الدم التي سكنت طوق النخيل في رحلة ظنّها بحثاً عن طريدة، عن ناقة اللّه، ولم يعلم إلّا الآن أنها كانت رحلة البحث عن ربّ الطريدة، رحلة البحث عن اللّه!

والدم؟

ما هو الدم إن لم يكن أصغر قربان لفتح خزائن المجهول التي تستطيع أن تدلّ على بوّابة الوطن حيث يسكن اللّه؟!

الألم؟

ما هو الألم إن لم يكن المكوس المستوجبة الدّفع مِنْ يد كلّ مريدٍ لم يولد إلّا ليسلك سبيل الظمأ الذي لا يرويه إلّا أمل

الحضور في ملكوت المكان الوحيد الذي لم نكن لنعترف به يوماً وطناً إن لم يكن وطن «أساهو» الذي يسكنه اللّه؟

تراءى له الفقيه الشهيد وهو يتلو أوراده عن الوطن المسكون باللّه قبل أن يهجم الهمج ليسلخوا جلده طلباً للكنوز المزعومة، ولا يدرون أن مَنْ نصّب اللّه لنفسه كنزاً وحده لا يضيره أن يجود بجلده قرباناً للمثول في حضرة اللّه!

29 ـ الشُّعَاع

في النهاية، بعد عراكٍ مجيد، استطاع أن يستلقي على ظهره ليكتشف أن الوجع في الذراع لم يكن إلّا جرحاً في الماسورة بجوار المرفق أحدثه سنّ المدية الذي اخترق الغمد لينغرس في الجلد لحظة الارتطام بالأرض، أمّا العطب الحقّ فكان في مكانٍ مّا في نصف الجسم السّفلي، تحديداً في العجيزة التي أعجزه تطويعها.

انتابته نوبة غثيان جديدة، ولكن الأمعاء الخاوية من الطعوم ومن السوائل خذلته. ولكن ما لم يخذله حقّاً هو الدم الذي ظنّه في البداية نزيفاً في الفم بسبب كسر في الأسنان، ولكنه اكتشف أنه نزيفٌ في الحلق حيث لسعته جرعة السمّ المستعارة من مستنقع الدم. كان الحريق في الحلق قد اشتدّ ممّا يقطع بانفجار التشقّق في نزيفٍ شحيح، ولكنّه برغم الشحّ حثيث.

تطلّع إلى السماء فشاهد كيف استوى معبود الأوائل على العرش ليبدأ مراسم لسع الأرض بسياطه المفتولة من ألسنة

اللهب، فأسبل جفنيه من فرط ألمٍ آخر أُضيف إلى حفنة الآلام الأخرى.

في تلك اللحظة فقط وقف فوق رأسه الرسول المنتظر ليظلّل جسده المحطّم بقامته المكابرة. أطلقت أنيناً قاسياً قبل أن تنحني عليه لتلثم وجهه العاري، المعفّر بالتراب، بعضلة لسانها. جاست في وجهه طويلاً قبل أن تنتقل إلى يديه وذراعيه كأنّها تريد أن تمتصّ آلامه امتصاصاً، لا أن تخفّف آلامه. تحامل لكي يدرك بيده وجهها العبوس المجلّل بالوجل ليهمس في أذنها:

ـ يبدو أنّي لن أستطيع. . .

لم يكمل، لأن دمعه فزّت من مقلته فاختنق بالعبرة، فاستجابت للنداء لتغمر وجهه بدموعها وهي تهمهم بحشرجتها الموجعة التي تنطلق من مكانٍ مّا مجهول، ليس الصدر يقيناً، ولا الحلق، ولا أي جزء من الجرم، ولكن في بُعدها الخفيّ، في بُعْدها المفقود، كما راقه أن يسمّي ما لا يسمّى دائماً.

ولكن الغمّ لم يقتل فيه التحدّي، فابتسم.

ابتسم وهو يداعبها بيده الأخرى قبل أن يتمتم:

ـ أنتِ تعرفين الآن ماذا ستفعلين. . .

اختنق بسعال حادّ لينفث في وجهها رذاذاً دامياً، فتوجّعت بفزع لتلحس الدم عن وجهه بلسانها. خذله عدوّ الأبد

(الجسد) مرّة أخرى فسقطت يده بجواره بيأس. لحظتها لم تحتمل. شيّعت رأسها إلى أعلى كأنها تحتكم في شأن فجيعتها إلى المجهول الذي يسكن السماء، قبل أن تولول بذلك النداء بأعلى صوت.

ناحت نواحاً طويلاً، متّصلاً، ولكنّ النواح لم يشفِ فيها الغليل، فنكست مرّة أخرى لتلتهمه بشفتيها وتلعق كلّ طرفٍ فيه بلسانها اللجوج المجبول بالحمّى، فمدّ يديه ليتشبّث برقبتها. تعلّق بالرقبة وأفلح في التحرّر من الأرض أشباراً ولكن العجيزة أعجزته مرّة أخرى، فأدرك عدم جدوى الجهد! هوى أرضاً لأن أوان دفع المكوس للأرض قد حان. الأرض التي استهان بها طويلاً، وداسها طويلاً، واستباحها طويلاً، كانت تتسامح دوماً في انتظار ساعة الانتقام. في انتظار ميعاد استرداد الأمانة التي استودعتها لديه وديعةً، ولم تنتوِ أن تتخلّى عنها على سبيل الهبة لأحد يوماً. والآن جاء وقت القسمة المدوّنة في اللوح المحفوظ الذي يتحدّث عنه فقيهه الشهيد، لأن السماء تتطلّع بوجلٍ أيضاً لتنال نصيبها المستحقّ من القسمة. السماء تنتظر الشطر الآخر الذي استودعته صلصال الأرض في الصفقة المبرمة مع حميمتها الأرض...

طاف في عينيه طيف الوليد المهشّم فابتسم. ابتسم لها ثمّ تمتم:

ـ أنتِ ستأخذينني الآن إلى الوطن! كل ما عليك أن تفعليه

في سبيل ذلك هو أن تأخذي منّي ما هو حقّ، وتلقي إلى الأرض ما هو باطل! هل تفهمين؟

لم تفهم. وربّما فهمت، ولكنها رفضت أن تفهم. رفضت أن تفهم لأن ما أراد أن يُفهمه لها فوق طاقتها. فدبّت في الأرض. جعجعت بنداءٍ فاجع قبل أن تنطلق. هرجلت في البداية دون أن تتوقّف عن العويل. دون أن تتوقّف عن مرثيّتها المنكرة. استبسل كي يرتفع عن الأرض شبراً ليشاهد فرارها. في الأفق شاهد أنصاباً يتلاعب بها السراب، فهتف بوَجْد:

ـ تادرارت!

بلى! كانت تلك قمم آكوكاس التي هبطت من السماء لتكون للأسلاف في حضيض الأرض أرجوحةً لئلّا ينسوا الوطن الأوّل! لئلّا ينسوا هويّتهم المنتمية إلى «أساهو». قمم آكوكاس المنحوتة من صلد العجب، الموسومة بفتنة الأساطير، لتكون للأخلاف آية تصلح درساً يجعلهم يعافون الحطام، ويترفّعون عن البهتان، ويتنصّلون من ارتكاب الكبائر، لأنهم في الأسافل لم يكن ليكونوا إلّا أضيافاً، واليوم الذي سيحشرون فيه في حجيج العودة إلى وطن الأعالي، آتٍ. وليس عبثاً أن تحمله ناقة اللّه لتضعه على أعتاب الباب الوحيد المؤدّي إلى مسقط الرأس حيث يقوم المنفذ الملقّب باسم «تخرخوري»!

تابع خيالها وهي تغرق في غمر السراب المتوّج بالشعاف

الإلهيّة التي تخترق الفضاء لتدوس السائل اللعوب المتدفّق عبر قوس الأفق المزموم.

هوى بظهره أرضاً ليعاند سعالاً جافّاً استلّ من حلقه دفعة دم جديدة. حاول أن يبصق الدم، ولكن الإعياء نال منه فابتلع الدم. أسبل جفنيه واستسلم لحريق الحلق وشلل الجسد. بعد لحظات تراءى الفقيه. كان ينكبّ على المصحف المتآكل ويترنّم بتلاوة الآيات. أصاخ ليتبيّن الآية، ولكن دمدمةً شديدة أفسدت عليه الرؤيا. فتح عينيه ليلتفت صوب الصوت العميق والمكتوم معاً. كانت تطير بجناحين، بألف جناح، لتحطّ بالجوار. لم تحطّ، ولكنّها واصلت الفرار الجنونيّ. واصلت الفرار حارثةً بأخفافها طوقاً حول جسده المسجّى على الأرض. غمرته بقطع زبدٍ كثيف ظلّت تنثره حوله بسخاء. طافت حوله بجنون قبل أن تتوقّف. ظلّلته بقامتها وهي ترتجف وتسفح العرق. في مقلتيها النجلاوين الهائلتين لمع ألقٌ مخيف. انحنت فوق جسده فتلقّف رأسها ليوشوش في أذنها:

ـ كنت أدري أنك ستعودين، لأنّ الجُبنَ لم يكن من شيَمك!

حاول أن يلتقط أنفاساً، ولكن الحلق خذله فاختنق بالدّم. حشرج وهو يتشبّث برأسها:

ـ سنترافق إلى الوطن... إلى وطن اللّه... ألستِ ناقة اللّه؟ كيف تكونين ناقة اللّه إن لم تكوني سليلة وطن اللّه...

غصَّ بالدم. عاند كي يبصق السائل، ولكن عبثاً. شهق في مطاردة مستميتة لالتقاط الأنفاس. استبسل كي يضيف:

ـ أيّ وطنٍ ذلك الوطن الذي لا يكون وطن اللّه؟

تشبّث بالرُّكبة المحمومة. اغتصب بسمة قبل أن يبذل بطولةً ليُضيف:

ـ أنت لست في حاجة لأن أعلّمك ما يجب عليك أن تفعلي الآن... اغفري لي... ولكن لن أغفر لكِ... إن لم تفعلي!

نفثت في وجهه أنفاساً حارّة. في المقلتين تمادى الجنون، توجّعتْ بأنينٍ مكتوم، لامست وجنتيه بشفتين راجفتين في حين تمتم:

ـ هذا لن يُعجزك إذا لم يعجزك مع الوليد يوماً!

اشتدّ الفحيح في أنفاسها. هَوَت على صدره بركبتها. لامست ذراعه المعطوبة. اجتازت الذراع. تردّدت عند الكتف. سرت فيها رجفة كأنّها ردّة. ولكن الزحف المحموم عاد يجتاز إلى الرقبة. توقّف. ولكن الفحيح في الأنفاس اشتدّ. لمح شعاع الشمس المعادي فوجده حميماً، مغرياً، وفاتناً بلا حدود. حزمة شعاع تستقيم في وترٍ متوتّرٍ مجلّلٍ بوسم نارٍ ظنّه جلّاداً طوال رحلة الزمن الضائع، ولم يكتشف إلّا الآن كيف يستميت في الحملة الشرهة ضدّ مستودع الوتد المسجّى في متاهة العدم ليُحيل الوتد وطناً بعد أن كان الوتد

مريد وطن. شُعاعٌ يستعير فتنةً مبهمةً في تماهيه بالساق الهزيلة كأنّها ساق غزال، المبلبلة بحمّى كالوَجْد، لتجسّد، في الحلف المريب مع الشُّعاع، لغز الجمال وهو يتلو الصلوات في مغامرة استرداد الوطن المفقود، لأن الجمال القادر أن يُميت، هو وحده الجمال القادر أن يُحيي، لأنّنا إذا كنّا لا نهلك إلّا بما نهوى، فإنّنا لا نُبعث أيضاً إلّا بما نخشى! لحظتها فقط اقتنص ومضة العجب التي ذاق طعمها مرّة عندما حدّقت في وجهه فوهة البندقية. ولكن حرف الوصيّة المبثوث في ركبة ناقة اللّه لم يُمهلْهُ فتنزّل على الرقبة... فانطفأ الشعاع!

الفصل الضائع
من سيرة ناقة اللّه

1 ــ الضيف

سلخ الكابوس من عمره أعواماً عندما أقبل على «بسّا» أحد أشياخ قبائل «إيفوغاس» قادماً من «آضاغ» في طريقه إلى الأراضي المقدّسة لتأدية فريضة الحجّ قبل أن ينقطع الحبل، كما عبّر، أو «قبل أن تتمكّن أشباح كيتا، التي هيمنت على الدنيا حتى بعد زوال سلطان كيتا، من قطع الحبل»، كما أضاف بتلك اللهجة الماكرة التي لا تتردّد في أن تخلط الجِدّ بالهزل على عادة أشياخ القبائل.

في ذلك اليوم هرول «بسّا» في الخلاء كالدرويش لكي يحتفي بضيفٍ ليس ككلّ الأضياف؛ ضيفٍ لم يقبل من أيّ مكان، ولكنه أقبل من ربوع قبيلة حوّلها قمع السلطات الجديدة حرماً منيعاً أبعد منالاً حتى من حرم اللّه الذي احتمل الضيف عبء أرذل العمر وأهوال السبيل كي يحظى بشرف الحلول في رحابه في ذلك الزمن الصعب الذي لم تشهد الصحراء له مثيلاً في كلّ تاريخها الموجع.

في مراسم الاحتفاء بالضيف النبيل استنفر «بسّا» الأقران

في المراعي، لا لأنه حمل في أعطافه روح القبائل السجينة وحسب، ولكن لأنه حمل في أعطافه أنفاس وطنٍ أضحى ضائعاً منذ سنوات، أو أنفاس زمنٍ غدا مفقوداً أيضاً، ليصير الضيف ذاكرة مجسّدة لحقبة ضائعة تدبّ في أرض اللّه على قدمين! هذه الخصال هو ما حوّل الشيخ، في نظر اللاجئين المستجيرين بتلابيب صحراء الشمال، مريداً من سلالة المرابطين، وربّما شهيداً حقيقياً وإن ظلّ على قيد الحياة! فأولئك الذين اغتربوا عن الأوطان طويلاً وحدهم يرون في كل إنسان لفظه الوطن رسول وطن، ولن يتردّدوا، بوحيٍ من روح الشجن، أن يتّخذوه معبوداً؛ يتّخذوه معبوداً حتى لو كان طريداً؛ لأن الهوس بالمعبودات كان دوماً سجيّة البسطاء. لأن كل البسطاء بالسليقة شعراء، فكيف إذا كان هؤلاء الشعراء أبناء صحراء؟

2 ـ الإيماء

تحلّق اللاجئون الظامئون إلى الوطن حول رسول الوطن: «أسوف»، و«إيمري»، و«آكسا» ورفيق أسيس القديم «ساهو». لهذا اللفيف انضمّ فريق رعاة قبائل آزجرٍ، ورعاة قطعان قبائل جبل نفوسة أيضاً، الذين طوّقوا الزائر الجديد ليلبّوا نداء الآذان الظامئة لسماع الجديد عن الوطن المنكوب، بعد أن أغدقوا عليه بحليب النوق، وأنواع الكمأ، وصنوف اللحوم المجفّفة، في عامٍ كانوا فيه شهوداً على هيمنة سلطان شتاءٍ قاسٍ، ليخلفه مناخٌ بَشَّرَ بربيعٍ مبكّر، كأنّ الصحراء تأبى إلّا أن تعوّض الأبناء المكوس التي دفعوها في الشتاء. كتموا أنفاس اللهفة في صدورهم ليفوّضوا الصمت ليقول عنهم بالإنابة ما لم يجرؤ اللسان أن يكون له ترجماناً ليقين موروث مستعار من الناموس الضائع «آنهي» يقول إن اللسان لم يوجد ليقول، ولكن وُجد ليُخفي القول، بدليل عدم وجود إنسان واحد يجرؤ أن يعترف بأن ما قال هو حقّاً ما أراد أن يقول!

ساءلوا الضيف إيماءً، فأجابهم الضيف إيماءً أيضاً.

استعانوا على فضولهم بالإيماء إكراماً لجلالة المعبود الأبدي: **الصمت!** فاستعان مريد الواجب بالإيماء أيضاً إكراماً لمعبود الأوائل الذي يسكن الصمت، لأن في الصمت لا يسكن البيان. في الصمت يسكن ربّ البيان الذي لا ينوي أن يبتذل الروح فيتكلّم حرفاً، ولكنه يفوّض الروح فتنطق رمزاً.

تولّى الصمت زمام الأمر مع زحف غيهب الغروب في حملته على الأفق المعادي، في محاولة للجم فراره الجنوني نحو البُعْد المفقود، فتنزّ في امتداده سيماء قانية كأنها دموع دم، تُسفح حداداً على غياب سبيكة الذهب الخرافية التي لم تكن لتكون معبود الأوائل لو لم يرجع لها الفضل في تطهير الأرض لتحيلها حرماً هو الصحراء. ولكن كوكب العجب لا يتخلّى عن الوطن، لأنه ينفخ في السماء من روحه ليهبها نصيباً من سحره الذي يباشر مفعوله في نمنمة الفضاء بفصوص كأنها وشْيٌ ساطع في نسيجٍ أسطوريّ. فصوصٌ تتغامز بوميضٍ فتّان يترجم فضولاً، كأنّ الفصوص تتبارى في لعبة الضوء لتلقّن الأجيال درساً في قوّة البيان الذي تلهج به رطانة الإيماء.

في رقعة الفصوص قرأ الكلّ أنشودة ناقة اللّه في لقاء تلك الليلة، كما ردّدتها قبل تلك الليلة كل كائنات الصحراء، دون أن يجرؤ أحد يوماً أن يدنّس حرمة السيرة فيحدّث بها الإنسان أخاه الإنسان مستخدماً عضلة آثمة كاللسان، لأن ما لا يطاق وحده جديرٌ بختم التحريم، برغم حضوره جرحاً دامياً ينزف به كل وجدانٍ حيّ.

3 ـ ثأرُ اللّه

سلطان التحريم اغتنم سيرة السكّين أيضاً، لأن الناموس لا يبيح تحوّل شأن عظيم كالبلايا مضغة ألسن، لأن الدَّنَس لم يتسلّل إلى قلب السلف الأوّل «مندام» إلّا من عضلة اللسان. ولكن إذا أحكم سلطان التحريم القمقم حول عضلة الآثام، فليس لمريد الحقيقة إلّا أن يستجير بالاستعارة. ولا يذكر «بسّا»، ولا أحد من أقران بسّا، أيّ عضو في محفل تلك الليلة واجه الضيف الجليل بالسؤال عن موقف العدالة. ويبدو أن السؤال راق الشيخ فما كان منه إلّا أن اعتدل في جلسته ليواجه السؤال بسؤال:

ـ ولكن عن أيّ عدالة تتحدّث؟

لم يُجِب السائل فأضاف الضيف:

ـ إذا كنت تتحدّث عن عدالة الدنيا، فاعلم أن تلك هي العدالة التي لم نعوّل عليها يوماً، لأنها العدالة التي لم تنصفنا يوماً. هل تدري لماذا؟

سكت. تطلّع إلى الفصوص الخرافية كأنّه يستعير من إيمائها إلهاماً، ثم أضاف:

ـ لأن عدالة الدنيا لم تخلق لتنصف أناساً اختاروا الفرار من الدنيا!

تساءل السائل:

ـ لماذا؟ ألم تخلق عدالة الدنيا لتنصف أهل الدنيا؟

أجاب الشيخ بيقين:

ـ وهل تحسب أهل الصحراء أهل دنيا؟

ـ أليسوا كذلك يا كبيرنا المبجّل؟

استنكر الشيخ:

ـ ليس لمن اختار الفرار ديناً أن يطمع في الانتماء يوماً إلى عرق الدنيا فيعوّل على عدالة الدنيا!

سكت لحظات ثم واصل:

ـ يجب ألّا ننسى أننا في الدنيا الفصيل المغضوب عليه بناموس الدنيا، لأن مجرّد البقاء على قيد الحياة قد يعني الاعتراف بوجودنا قيد الحياة، ولكنه لن يعني الاعتراف لنا بحقٍّ في الحياة!

هيمن صمت. هيمن ذاك الجنس من الصمت الذي يستحضر الغيوب فلا تكتفي بموقف الشاهد على الحوار، ولكنها تأبى إلّا أن تمارس دور المشارك في الحوار. لحظتها

تساءل أعضاء المحفل عمّا إذا لم يكن صاحب السؤال نفسه مخلوقاً دسّه في المحفل سلطان الغيوب. ولكن هوية السائل لم تكن لتعني أحداً في المحفل، لأن لغز العدالة كان المرض الذي عانى منه الكلّ:

ـ هل علينا أن نستسلم يا كبيرنا ونتنازل عن نصيبنا ككل الأحياء في هذه الدنيا؟

أجاب الشيخ بلهجة كالبرود:

ـ لا نصيب لنا في هذه الدنيا، وليس لنا إلّا أن نتنازل عن صحرائنا إذا شئنا أن ننال ما تسمّيه نصيباً من الدنيا!

ولكن السائل عاند:

ـ سبحان اللّه يا شيخنا: ألا ندبّ على قدمين كما يدبّ الكلّ، ألا نؤمن كما يؤمن الكل؟ ألا نتنفّس برئتين كما يتنفّس الكلّ؟ ألَا نعشق كما يعشق الكلّ؟ ألَا نؤمن كما يؤمن الكلّ؟ ألَا... ألا نعبد اللّه كما يعبد اللّه الكل؟

هبّ الشيخ:

ـ هنا يكمن السرّ! فالواقع أننا نعبد اللّه كما لا يعبده الكل، ونؤمن كما لا يؤمن الكلّ، لهذا السبب نحن خارج القسمة!

هيمن الصمت حتى استشعر المحفل حضور الغيوب. لم يستشعر المحفل حضور الغيوب وحسب، بل استشعر الغيوب وهي تتجسّد، فأضاف الضيف:

ـ فالصحراء هي حرم اللّه الذي اخترناه طوعاً فاخترنا بهذا الخيار أن نحيا في اللّه، لأن الصحراء تسكننا كما نسكن نحن الصحراء. وهو ما يعني أننا نبيت كل ليلة في بيت اللّه، كما يبيت فينا بيت اللّه، وإلّا لما قام بيت اللّه في صحراء الشرق، ولما غالبتُ العمر لأحلّ فيه لأنه امتدادٌ لصحرائي، وصحرائي امتدادٌ لقلبي، وقلبي فسحة إيماني. وفسحة إيماني فردوسي!

ولكن مريد العدالة ما لبث أن حاجج:

ـ ولكن لماذا لا يجيرنا هذا الفردوس من الجور يا سيّدنا!

عاد الشيخ يعتدل في جلسته. تطلّع إلى سماء تشتعل بالفصوص الخرافية، كأنها تسفّه غياب القمر في متاهة الفضاء لتقول بلسان الإيماء إن الوميض الذي يوحي أدهى من الوميض الذي يعلن، لأن سلطان الجمال ليس في ما استظهر، ولكن في ما استتر. أجاب الضيف أخيراً:

ـ الجور مكوس كل فردوس. نحيا في صحرائنا بناموس الفراديس، وننسى أن الصحراء ليست خارج هذا الكوكب، ولكنها تسكن قلب الكوكب. والأسوأ من موقعها داخل قمقم هذا الكوكب، هو كونها بلا حول ولا قوّة!

ـ بلا حول ولا قوّة؟

ـ أعني أنها لا تملك للدفاع عن النفس الحيلة، لأنها عزلاء! والأعزل دوماً ضحيّة! ولهذا علينا أن نقبل بقدر الضحية إذا شئنا أن تبقى قلوبنا البيت الذي اختاره اللّه سكناً!

عاد الصمت يتسلّط ويدلي بأقوى بيان مستخدماً اللغة الأقوى من لغة البيان، إلى أن تساءل صوت المجهول بنبرة كأنها اليأس:

ـ إذا عدمنا عدالة الأرض، أفلا يحقّ لنا، يا مولانا، أن نطمع في وجود عدالة أخرى يمكن أن نسمّيها عدالة السماء تعيد لنا ولو نصيباً يسيراً من الثقة بأنفسنا، ومن الثقة بوجود هذه العنقاء؟

ساعتها سمع المحفل صدر الضيف وهو يدمدم بأنينٍ عميق كانّه ينفّس عن فجيعة حبسها في صدره طويلاً، ولم يجد للتعبير عنها سبيلاً. زفر أنفاساً بعد ذلك قبل أن يقول بلهجة من يدلي بوصيّته الأخيرة:

ـ بليّتنا أننا نطلب قصاص السماء بناموس الأرض، وننسى أن حسابات السماء تختلف اختلافاً قطعيّاً عن حسابات نواميسنا الأرضيّة، وإذا كانت تختلف بحكم طبيعة المكان فكيف ننكر أن تختلف في طبيعة الزمان أيضاً؟

التقط أنفاساً لاهثة قبل أن يضيف بحماسٍ مفاجئ:

ـ لماذا تريدونني أن أقترف الإثم وأخرق التحريم فأقول إن عدالة السماء أنصفتنا في بليّتنا الأخيرة أيضاً، كما أنصفتنا في بلايانا الكثيرة طوال تاريخ صحرائنا الطويل؟ هل نسيتم ما حلّ بصاحب نوميديا؟ هل نسيتم ما حلّ بوليّ نعمة صاحب

نوميديا المقيم في قصور ما وراء البحور؟ هل نسيتم ما حلّ بالسفّاح كيتا؟ أم أنّكم نسيتم ما حلّ بِتِرْبِهِ السفّاح ديوري أيضاً؟ لقد أطاح بصاحب نوميديا أقرب الناس إليه ليودعه الحبوس التي شاء أن يضعنا فيها، لأن الموت خلاص في ناموس عدالة السماء، أمّا الحبس فهو القصاص الأسوأ من الموت، لأنه غيابٌ لأنْفَس ما في الوجود في عُرفنا وهو الحريّة. بغياب هذه الهبة اقتصّت عدالة السماء من قرينيه في المكيدة كيتا وديوري. أمّا جنرال ماوراء البحار الذي حَبَكَ خيوط البليّة من موقعه في رحاب ماوراء البحار فعاقبته عدالة السماء بأشرّ ما يمكن أن تعاقب به مريد سلطان. لقد جرّدته من السلطان بمشيئة أمّته التي صنعت أسطورته يوماً، وراهن عليها ظنّاً منه أن الصيت يستطيع أن يعصمه من عدالة السماء ويغفر له الآثام التي اقترفها في حقّ الأبرياء! أفلا نظلم السماء عندما نتغنّى بغياب عدالة السماء لمجرّد أنها عدالة تبدو مؤجّلة، وننسى أنها لا تخضع لقياسنا، ولكنها تخضع لقياس السماء؟

توقّف، ولكن الأنفاس فيه لم تتوقّف. فلم يلبث أن أضاف:

ـ ثأر الدنيا يكلّف الضحايا غالياً، أمّا ثأر اللّه فأعظم شأناً برغم أنّه لا يكلّف شيئاً، اللهمّ إلّا إذا كان التسليم ثمناً جسيماً!

تغنّى المحفل بكلمة «تسليم»، فرتّلها بالنغم الملحون كما اعتادت مثل هذه المحافل أن ترتّل تمائم الأولين، أو أدعية الدّين. ولكن الصمت ما لبث أن هيمن من جديد ليتمرّد على ناموس الصمت، متمخّضاً عن هديرٍ مريبٍ، كأنّه نداءٌ حبيس.

سالو (كاتالونيا)
السواحل الجنوبيّة لشبه الجزيرة الإيبيريّة
27 يونيو 2015

الفهرس

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

الفصل الضائع من سيرة ناقة اللّه

مؤلّفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج 6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج 3، (موسوعة البيان) ج 7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

70 ـ ناقةُ اللّه (رواية) 2015م.

مؤلّفات إبراهيم الكوني النظرية

71 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

72 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

73 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

74 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

75 ـ ثوبٌ لم يُدنّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

76 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

77 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثانٍ 2013م.

78 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م.

إبراهيم الكوني

ناقةُ الله

«الحياة سجن. الحضارة عنف. في سمفونية إبراهيم الكُوني تتبدى الصحراء مسرحاً لدراما الوجود الإنساني، حيث النضال للتحرر من شراك الحضارة، والعودة للحياة البدئية الأصيلة في الصحراء. الغرباء من البحر الأبيض المتوسط يأتون لإصطياد الحيوانات النادرة، ومن تينبكتو يمرون للتحكم بطرق القوافل، جالبين معهم إغواء الذهب والسلطة، الذي يودي بالإنسان والحيوانات إلى هاوية السقوط، والنفي من الجنة.

الصحراء جحيم الكُوني على الأرض. جحيمٌ يعج بكل أنواع الكائنات المتورطة في معارك للنجاة من عنف الحضارة الذي يهدد حياتها وعالمها. حيث يتبدى الإنسان، بعالمه الذكوري، ممزقاً دائماً برغبات متعارضة ومتنافسة. يشدُّه توقٌ مُلحٌ لحياة العزلة الروحية وحيداً في الصحراء، ويجذبهُ ميلٌ دائم للحب، والمجتمع، والاستقرار في الواحة. وعبر هذا الصراع الأليم بين توق الفرد للحرية، ومطالب المجتمع المتغلغلة عميقاً في بنية شعوره، وأفكار الحضارة المفروضة على عقله وقلبه، تتكشف أعماق الوجود الإنساني، حيث تتجادل وتتواشج تقاليد الأديان التوحيدية، والتراث القبطي، والبابلي، والسومري، والأساطير الطوارقية، والثقافة العربية الإسلامية، والاستشراق الأوروبي، من خلال مخاضات عاصفة تخنق كل ولادة جديدة، وتعيق كل خطوة يخطوها الإنسان في درب آلامه الدامي إلى الحرية.

الموت العنيف قدرٌ لا مفر منه يواجه أبطال الكُوني، وفي الأفق يلوح وميض الحرية مثل السراب، والصحراء متألقة بشاعرية صوفية، حيث الغزال، والجمل، والودّان، قرابين السماء، تنطق بروح الصحراء، وتبوح بتوق الإنسان الطوارقي إلى جنته المفقودة. وسواء أكان الإنسان والحيوان متحدين أو منعزلين، حلفاء أم أعداء، فإنهم يغدون معاً ليغنوا ألحان الحب والحرية حتى في خضم الحرب، واحتلال المدن والواحات. إن قراءة إبراهيم الكُوني هي بحق خبرة روحية متجاوزة لمعطيات الحواس».

لجنة جائزة المان بوكر الدولية 2015

ISBN: 978-614-8020-02-5

